

ابن حجر
السبكي
كتاب التذكرة

الذريعة في علوم القرآن

محاضرات في علوم القرآن . تبحث عن نزوله وتدوينه
وجمعه وإعجازه وعن التفسير والمفسرين . مع رد شبهات المستشرقين
بأسلوب يجمع بين الجدة والتحقيق

للشيخ محمد علي الصابوني حفظه الله

الأستاذ بكلية التربية والدراسات الإسلامية
جامعة المكرمة (سابقا)

طبعة مديرية رسمية ملونة

مكتبة الشريعة
كراشي - باستان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
صُبَرْ شَادِ الْمُؤْمِنِينَ

الْتَّحْدِيدُ

فِي

عِلْمِ الْفُرْقَانِ

محاضرات في علوم القرآن تبحث عن نزوله وتدوينه
وجمعه واجازه وعن التفسير والمفسرين مع رذبهات المستشرقين
بأسلوب يجمع بين الجدة والتحقيق

للشيخ محمد على الصايبوني حفظه الله

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة الكرمة (سابقا)

طبعة مديرية صحيحة مارونة



اسم الكتاب : التبيان في علوم القرآن
تأليف : للشيخ محمد علي الصابوني حفظه الله
الطبعة الأولى : لـ١٤٣١ هـ / سـ٢٠١٤ء
الطبعة الجديدة : لـ١٤٣٢ هـ / سـ٢٠١٥ء
عدد الصفحات : ٢٣٦

السعر = 150 روبيہ

مکتبۃ البشیری

للطباعة والنشر والتوزيع

AL-BUSHRA PUBLISHERS

Choudhri Mohammad Ali Charitable
Trust (Regd.)

Z-3, Overseas Bungalows Gulistan-e-Jouhar,
Karachi- Pakistan

الهاتف: +92-21-34541739, +92-21-37740738

الفاكس: +92-21-34023113

الموقع على الإنترنت: www.maktaba-tul-bushra.com.pk

www.ibnabbasaisha.edu.pk

البريد الإلكتروني: al-bushra@cyber.net.pk

يطلب من

مكتبة البشري، كراتشي، باكستان ٢١٩٦١٧٠

مكتبة الحرمين، اردو بازار، لاہور.

+92-321-4399313
المصباح، ٦-١، اردو بازار، لاہور.

+92-42-7124656, ٧٢٢٣٢١٠
بل لینڈ، سٹی پلازہ کالج روڈ، راولپنڈی.

+92-91-2567539
دار الإخلاص، نزد قصہ خوانی بازار، پشاور.

+92-333-7825484
مکتبہ رشیدیہ، سرکی روڈ، کوئٹہ.

وأيضاً يوجد عند جميع المكتبات المشهورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، والصلاه والسلام على عبده رسوله محمد المبعوث هاديا ورحمة للعالمين، فكان نعم المبلغ للرسالة ونعم المؤدي للأمانة، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيمـاً.

وبعد، فالقرآن الكريم هي المعجزة الخالدة وآخر الكتب السماوية الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فقد اعنى به العلماء اعتناء خاصاً منذ الرعيل الأول للمسلمين، وتناولوه قراءة وحفظاً وتعلينا وتفسيراً، وإبرازاً لغامضه وما خفي من المعاني، وإظهاراً لوجهه بيانه، ومعرفة لأسباب نزوله، وناسخه ومنسوخه، ورسمه، وتاريخ نزوله وتدوينه إلى أن نضجت العلوم والفنون، وتقدم موكب الحضارة والتمدن، فتشعبت العلوم والفنون، فأصبح كل فرع متشعب يصب في مصبه.

ومادة علوم القرآن أيضاً وليدة هذا التطور العلمي والتشعب الفيـ، وألـفت مئات الكتب في هذا الموضوع قدـماً وحدـثـا، والكتـاب هذا أـي "التـبيان في عـلوم القرـآن" في الحـقـيقـة بـجمـوعـةـ حـاضـراتـهـ الـتيـ أـلـقـيـتـهاـ عـلـىـ طـلـابـ الجـامـعـةـ، ثـمـ رـتـبـتـ هـذـهـ الـمـاضـرـاتـ وـطـبـعـتـ لـعـمـومـ الـفـائـدـةـ، وـقـدـ منـحـهـ اللـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ قـبـوـلاـ حـسـنـاـ فـانـتـشـرـتـ فـيـ الـعـالـمـ، وـبـدـأـ النـاسـ يـطـبـعـوـهـاـ فـيـ بـلـادـ آـخـرـىـ أـيـضاـ بـعـدـ الـمـلـكـةـ الـعـرـبـيـةـ السـعـوـدـيـةـ، وـالـتـفـتـ إـلـيـهـاـ بـعـضـ النـاسـ فـيـ باـكـسـتـانـ أـيـضاـ فـطـبـعـوـهـاـ، فـوـجـدـهـاـ الـعـلـمـاءـ وـالـطـلـابـ نـافـعـةـ وـمـفـيـدـةـ، وـرـأـواـهـاـ بـنـظـرـ الإـعـجـابـ.

وـبـعـدـ أـصـحـابـ مـكـتـبـةـ الـبـشـرـىـ تـحـمـلـواـ عـلـىـ عـوـاقـبـهـمـ مـسـؤـولـيـةـ إـخـرـاجـ الـكـتـبـ الـدـينـيـةـ فـيـ ثـيـابـ جـدـيـدةـ وـحـلـلـ قـشـيـةـ، فـالـتـفـتوـاـ إـلـىـ طـبـاعـةـ هـذـاـ الـكـتـابـ أـيـضاـ، فـأـخـرـجـوهـ فـيـ طـبـعـتـهـ الـرـابـعـةـ معـ بـعـضـ الـتـعـديـلـاتـ الـتـيـ رـأـهـاـ بـعـضـ الـعـلـمـاءـ مـفـيـدـةـ وـنـافـعـةـ لـلـقـرـاءـ، وـاستـشـارـوـنـيـ فـيـ هـذـاـ الـأـمـرـ أـيـضاـ،

وكانوا معي دائم الاتصال عبر الهاتف، فالتعديلات التي تم إنجازها في هذا الكتاب كالتالي:

- الترتيب الجديد للفصول.
- تعديل بسيط في علامات الترقيم.
- توضيح الكلمات الصعبة في المقامش.
- تخريج أحاديث الكتاب.
- ذكر عنوانين رئيسية وفرعية على رأس كل صفحة.

ولم يتم أي تغيير بعد في هذا الكتاب على ما كان عليه في الطبعة الثالثة.

وأخيراً أشكر لفضيلة رئيس وفاق المدارس العربية بباكستان ومسؤوليه بأهتم اختاروا هذا الكتاب لمنهجهم في مادة علوم القرآن، وأشكر لأصحاب مكتبة البشرى أيضاً على طباعته بثوبه الجديد وبورق أنيق، واعتنوا به اعتناء كبيراً يستحقه، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزيهم خير الجزاء على هذا العمل الجليل، والله ولي التوفيق.

الشيخ محمد علي الصابوني
مع المصحف
١٤٣٠، ١٢، ٢٥

الشيخ محمد علي الصابوني

١٤٣٠/١٢/٢٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله أنزل كتابه المبين، تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة للمؤمنين، والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وأصحابه، شموس الهدایة، ونجوم العرفان، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن القرآن العظيم معجزة "محمد" ﷺ الخالدة، وحجته الدائمة، الناطقة بصدق رسالته، وهو البرهان على أنه الوحي الإلهي، المنزّل على هذا النبي الأمي، الذي لم يتلقَ علمًا على يد إنسان، ولا عرف له صلة بأحد من علماء أهل الكتاب، وهو مع ذلك لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وجاء بهذا الكتاب المعجز، كبرهان ساطع، ودليل قاطع، على أنه وحي من عند رب العالمين: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتَلَوُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُطْهُ بِيَسِيرٍ إِذَا لَأْرَتَابَ الْمُبْطَلُونَ، بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَسِيرَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٩، ٤٨).

وقد حوى هذا القرآن العظيم علوماً و المعارف، وجاء بأحكام وتشريعات في معالجة الأمراض الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، تُحِيرُ الألباب، ويعجز عن محاكاتها ومجاراها فطاحل^(١) النبغاء والعلماء، وفيه من الوجوه البينانية والبلاغية ما لا يستطيعه فرسان البلاغة، وفحول الأدباء، وأهل الكلام، ولهذا كان من الجدير بالمشتغلين بالدراسات القرآنية أن يبيّنوا للناس ما حواه هذا القرآن المجيد من أصول العلوم والمعارف، وأن يوضّحوا وجوه الإعجاز في سورة وآياته، وقصصه وأخباره، وفي أسلوبه وبيانه، وسائر ما حواه من كنوز ودقائق.

هذا وقد تناولتُ في هذا الكتاب "البيان في علوم القرآن" بعضَ هذه الخصائص والمزايا، وفصلتُ فيه شيئاً من أسرار هذا الكتاب المعجز في دراستي لعلوم القرآن، وأخرجه في فصول

^(١) فطاحل جمع فطاحل: السيد العظيم والضخم الممتلىء الجسم والغزيز العلم. (المندجد: ٦٩٤).

عشرة، هي كما يراه القارئ:

الفصل الأول: التعريف بعلوم القرآن، وبيان فضائل القرآن، وآداب حملته وحفظته.

الفصل الثاني: معرفة أسباب النزول، وفوائد معرفة الأسباب في فهم آيات الكتاب، وأمثلة ذلك.

الفصل الثالث: في حكمة نزول القرآن المجيد مفرقاً، واختلافه عن الكتب السماوية السابقة المتزللة جملة.

الفصل الرابع: جمع القرآن العظيم في عصر النبوة، وجمعه في مصاحف متعددة في زمن أبي بكر رضي الله عنه، ثم في مصحف واحد زمن عثمان رضي الله عنه.

الفصل الخامس: النسخ في القرآن الكريم، ومعنى النسخ، والحكمة التشريعية من نسخ الأحكام.

الفصل السادس: التفسير والمفسرون، وأنواع التفسير بالرواية والدراءة، وشروط المفسر لكتاب الله الجليل.

الفصل السابع: في التفسير الإشاري، و موقف العلماء منه، والفرق بين الإشاري والتفسير الباطني، وغرائب التفسير.

الفصل الثامن: في أشهر كتب التفسير "بالرواية والدراءة والإشارة"، والتعريف بمزايا كتب التفسير.

الفصل التاسع: بحث حول ترجمة القرآن العظيم، وما يحلّ منها، وما يحرم، وشروط الترجمة.

الفصل العاشر: نزول القرآن على سبعة أحرف، القراءات السبع المتواترة، وأشهر القراء من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

والله أعلم أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به إخواننا المؤمنين، ويرزقنا العمل الصالح بكتابه المبين؛ ليكون لنا ذخراً يوم الدين يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

مكة المكرمة / غرة رجب الفرد سنة (١٤٠٨) هـ

وكتبه خادم الكتاب والسنة

لشيخ محمد علي الصابوني

الأستاذ بجامعة أم القرى بجدة المكرمة

الفصل الأول:

علوم القرآن

تمهيد :

يقتضينا علم التفسير أن نُلّم إماماً موجزة بـ "علوم القرآن"، وأن نعرف ما رافق هذا الكتاب المجيد من عنابة فائقة، وجهود واسعة، وأبحاث مستفيضة، بذلت كلّها في سبيل خدمة هذا الكتاب العزيز على أيدي أساتذة أعلام، وعلماء فطاحل، أفنوا عمرهم في سبيل الحفاظ على هذا التراث الكريم، والكتز الثمين من لدن عصر نزول القرآن إلى يومنا هذا، ثم انتقلوا إلى جوار الله، وقد خلفوا لنا ثروة علمية هائلة، لا ينضب معينها، ولا تنتهي دررها على كرّ الدهور ومرّ الأزمان، ومع كل هذه الجهود المبذولة – في القديم والحديث – فإن القرآن يبقى بحراً ذاخراً، يحتاج إلى من يغوص في أعماقه؛ ليستخرج منه اللالي والدرر.

ولقد تسابق الفصحاء والبلغاء، والحكماء والشعراء في وصف هذا القرآن، وسرد محاسنه وفضائله، ولكننا لا نجد أبلغ ولا أسمى من وصف صاحب الرسالة "محمد بن عبد الله" صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول:

"كتاب الله فيه نباً من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تريغ به الأهواء، ولا تتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق^(١) على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَابًا يَهُدِي إِلَى الرُّشْدِ فَأَمَّا بَهِ﴾ (الجن: ٢-١)، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدٰي إلى صراط مستقيم". (رواه الترمذى، في باب: "فضائل القرآن").

^(١) أي: لا يليل ولا تذهب جدته على كثرة القراءة والتردد.

ما المقصود بعلوم القرآن؟

يقصد بعلوم القرآن الأبحاث التي تتعلق بهذا الكتاب المجيد الخالد من حيث النزول والجمع، والترتيب والتدوين، ومعرفة أسباب النزول، والمكفي منه والمدني، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وغير ذلك من الأبحاث الكثيرة التي تتعلق بالقرآن العظيم، أو لها صلة به.

والغرض من هذه الدراسة فهم كلام الله عز وجل، على ضوء ما جاء عن الرسول ﷺ من توضيح وبيان، وما نقل عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم حول تفسيرهم لآيات القرآن، ومعرفة طريقة المفسرين، وأساليبهم في التفسير مع بيان مشاهيرهم، ومعرفة خصائص كل من المفسرين، وشروط التفسير، وغير ذلك من دقائق هذا العلم.

تعريف القرآن:

"هو كلام الله المعجز، المتنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتبع بدلالته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس".
وهذا التعريف متفق عليه بين العلماء والأصوليين.

أنزله الله تبارك وتعالى؛ ليكون دستورا للأمة، وهداية للخلق، ولن يكون دليلا على صدق الرسول ﷺ، ويرهانا ساطعا على نبوته ورسالته، وحججا قائمة إلى يوم الدين، تشهد بأنه تنزيل الحكيم الحميد، بل هو المعجزة الخالدة، التي تتحدى الأجيال والأمم على كرّ الأزمان ومرّ الدهور، والله در "شوفي" حيث يقول:

جاءَ النَّبِيُّونَ بِالآيَاتِ^(١) فَانْصَرَمْتُ^(٢)
 آيَاتُهُ كُلُّمَا طَالَ الْمَدَى^(٣) جَدَّ
 وَجَتَّنَا بِكَابٍ غَيْرِ مُنْصَرِمٍ
 يُزِينُهُنَّ جَمَالٌ الْعَنْقُ وَالْقِدْمُ

^(١) المراد بالآيات هنا: المعجزات التي أيد الله بها رسليه الكرام.

^(٢) انصرمت: أي ذهبت بذهابهم وانقضت بوفاتهم، فلم يعد لها وجود.

^(٣) المدى: الرمان الطويل.

فضائل القرآن:

وقد وردت آثار كثيرة في فضائل القرآن وعلومه، منها ما هو متعلق بفضل التعلم والتعليم، ومنها ما هو متعلق بالقراءة والترتيل، ومنها ما له علاقة بحفظه وترجيعه. كما وردت آيات عديدة في كتاب الله عزوجل، تدعو المؤمنين إلى تدبره وتطبيق أحكامه، وإلى الاستماع والإنصات عند تلاوته، نذكر بعض هذه الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة.

الآيات الكريمة:

أولاً: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَنَاهُمْ سِرًا وَعَلَانِيَةً يَرِجُونَ تِحَارَةً لَنْ شَبُورَ﴾ (فاطر: ٢٩).

ثانياً: وقال تعالى: ﴿هُوَ إِذَا قَرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوهُ وَأَنْصِتُوا الْعَلَكُمْ مُثْرَحُونَ﴾ (الأعراف: ٤).

ثالثاً: وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالُهَا﴾ (محمد: ٤).

الأحاديث الشريفة:

أولاً: وقال عليه السلام: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" (رواه البخاري). ثانياً: وقال عليه السلام: "الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن، ويتعنت فيه - أي تصعب قراءته عليه لعيّ لسانه - وهو عليه شاق له أجران". (رواه البخاري ومسلم). ثالثاً: وقال أيضاً: "أشراف أمتي حملة القرآن". (رواية الترمذى). رابعاً: وقال أيضاً: "اقرؤوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيمة شفيعا لأصحابه". (رواية الترمذى). خامساً: وقال أيضاً: "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن، كمثل الأترجمة^(١)، ريحها طيب، وطعمها طيب". (متفق عليه).

سادساً: وقال أيضاً: "إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلّموا من مأدبتـه ما استطعتم..." (متفق عليه). وينبغي للدارس لعلوم القرآن أن يتأنّب بآداب القرآن، ويتخلّق بأخلاقـه، ويكون غرضـه من

^(١) الأترجمة: شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون الكبير، وهو ذهبي اللون، ذكي الرائحة، حامض الماء. (المعجم الوسيط: ٤).

وراء العلم رضوان الله والدار الآخرة، لا حطام الدنيا، وأن يعمل بما فيه؛ ليكون حجةً له يوم القيمة، فقد صح في الحديث الشريف: "القرآن حجة لك أو عليك"^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية حَفَظَهُ اللَّهُ: "من لم يقرأ القرآن فقد هجره، ومن قرأ القرآن ولم يتدبر معانيه فقد هجره، ومن قرأه وتدبره ولم ي عمل بما فيه فقد هجره". يشير بذلك إلى قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبَّ إِنَّ قَوْمِي أَتَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣٠).

أسماء القرآن:

للقرآن الكريم أسماء عديدة، كلها تدل على رفعة شأنه وعلوّ مكانته، وعلى أنه أشرف كتاب سماوي على الإطلاق، فيسمى: "القرآن" و"الفرقان" و"التنزيل" و"الذكر" و"الكتاب"... إلخ.

كما وصفه الله تبارك وتعالى بأوصاف جليلة عديدة.

منها: "نور" و"هدى" و"رحمة" و"شفاء" و"موعظة" و"عزيز" و"بارك" و"بشير" و"نذير" ... إلى غير ذلك من الأوصاف التي تشعر بعظمته وقدسيته.

وجه التسمية:

أ- أما تسميته بـ"القرآن" فقد جاء في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ لَكُمُ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾** (ق: ١).

قوله تعالى: **﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾** (الاسراء: ٩).

ب- أما تسميته بـ"الفرقان" فقد جاء في قوله تعالى: **﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾** (الفرقان: ١).

ج- وأما تسميته بـ"التنزيل" ففي قوله تعالى: **﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلٌ رَّبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾** (الشعراء: ١٩٢-١٩٣).

^(١) انظر "تفسير القرطبي" الجزء الأول.

د- وأما تسميته بـ"الذكر" ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

هـ- وأما تسميته بـ"الكتاب" ففي قوله تعالى: ﴿حَمٌّ، وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ...﴾ (الدخان: ٣-٢).

وأما الأوصاف فقد ورد فيها آيات عديدة، وقلما تخلو سورة من سور القرآن من وصف رائع مجيد لهذا الكتاب الذي أنزله رب العزة؛ ليكون معجزة خالدة لخاتم الأنبياء. نذكر منها: أولاً: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤). ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَنَنْزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدٰىٰ وَشِفَاءٌ﴾ (فصلت: ٤٤).

رابعاً: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتُكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدٰىٰ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧).

والقرآن كالقراءة، مصدر:قرأ القراءة وقرآنا، هكذا يرى بعض العلماء، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمِيعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبَعْ قُرْآنَهُ﴾ (القيامة: ١٧، ١٨) أي: قراءته. فالقرآن على هذا الرأي يكون مشتقا.

ويرى بعض العلماء: أنه ليس مشتقا من قرأ، وإنما هو "اسم علم" لهذا الكتاب المجيد، فهو مثل "التوراة"، ومثل اسم "الإنجيل"، وهذا رأي الإمام الشافعي عليه. انظر كتاب "مباحث القرآن" للأستاذ مناع القطان.

متى ابتدأ نزول القرآن؟

كان بدء نزول القرآن الكريم في السابع عشر من رمضان لأربعين سنة خلت من حياة النبي الأمي محمد ﷺ، في بينما كان رسول الله ﷺ يتحنث - أي يتبع - في غار حراء، إذ نزل

عليه الوحي - جبريل الأمين - بآيات الذكر الحكيم، فضمه إلى صدره ثم أفلته - فعل ذلك به ثلاث مرات - وهو يقول له في كل مرة: ﴿أَقْرَأْتُكَ﴾، والرسول الكريم ﷺ يحبه: "ما أنا بقارئ" أي: لست أعرف القراءة، وفي المرة الثالثة قال له: ﴿أَقْرَأْتُكَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، أَقْرَأْتُكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَنِ، عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١-٥).

فكان ذلك بدء الوحي، وبعد نزول القرآن، ولقد سبق نزوله بعض الإشارات - أي الإشارات والدلائل - التي تدل على قرب الوحي، وتحقق النبوة للرسول الكريم ﷺ.

من هذه الدلائل: "الرؤيا الصادقة" في النوم، فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا وقعت، كما رأها في منامه. ومنها: "حبه للعزلة والخلوة"، فكان يخلو بغار حراء، يتعبد ربه فيه.

رواية البخاري:

وقد أخرج البخاري في صحيحه، في باب "بدء الوحي" ما يشير إلى هذا، وإلى كيفية نزول القرآن، حيث روى بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت:

"أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح،^(١) ثم حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاء،^(٢) وكان يخلو بغار حراء، فتحنث فيه - وهو التعبد - الليليات ذات العدد قبل أن ينزع^(٣) إلى أهله، ويتوارد لذلك، ثم يرجع إلى خديجية، فيتوارد مثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك^(٤) فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطّني،^(٥) حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني، فغطّني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني، فغطّني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿أَقْرَأْتُكَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١)، فرجع بها رسول الله ﷺ يرحف فؤاده...". (صحيح البخاري، الجزء الأول).

^(١) أي نور الصباح وضياؤه. ^(٢) الخلاء: أي العزلة. ^(٣) ينزع: أي يرجع.

^(٤) الملك: المراد به جبريل عليه السلام. ^(٥) فغطّني: أي ضمّني إلى صدره.

ونزول القرآن في شهر رمضان، وفيه نص صريح واضح في كتاب الله عز وجل، حيث يقول عز من قائل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وأما كون الملك الذي نزل به هو "جبرئيل" عليه السلام، فقد ثبت أيضاً بنص صريح في القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿هُنَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيًّا مُبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَ رُوحُ الْقُدْسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيَبَيِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدَىٰ وَبُشِّرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

والمراد بالروح الأمين أو روح القدس، إنما هو "جبرئيل" عليه السلام باتفاق المفسرين، فهو أمين الله على وحيه، وهو الذي نزل بالوحى على جميع الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين.

أول ما نزل، وآخر ما نزل:

أول ما نزل من القرآن الكريم الآيات الأولى من سورة العلق: ﴿أَقْرَأْنَا بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ (العلق: ٥-٤) كما مر سابقاً في حديث البخاري، وأما آخر ما نزل من القرآن، فهو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَيَّ اللَّهُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨١).

هذا هو الصحيح الراجح الذي اختاره العلماء، وعلى رأسهم "السيوطى"، وهو منقول عن حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فقد أخرج النسائي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: آخر شيء نزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَيَّ اللَّهُ...﴾ (البقرة: ٢٨١)، وقد عاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية تسعة ليال، ثم مات ليلة الاثنين في الثالث من ربيع الأول^(١). وأما قول بعضهم: إن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيْنًا...﴾ (المائد: ٣)، فهو رأي غير صحيح؛ لأن هذه الآية

^(١) انظر كتاب "الإنقاذ في علوم القرآن" للسيوطى: (٨٢/١).

الكريمة نزلت على رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وهو واقف بعرفة، وقد عاش ﷺ بعدها واحداً وثمانين يوماً، وقبل وفاته بتسعة ليالٍ نزلت آية البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً...﴾، فتكون هي آخر ما نزل، لا آية المائدة، وهذا هو الرأي الصحيح، وبنزلول هذه الآية الكريمة انقطع الوحي، فكان ذلك آخر اتصال السماء بالأرض، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بعد نزول ختام القرآن، بعد أن أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وهدى الناس إلى دين الله.

آية المائدة متأخرة في النزول:

وما يدل على أن آية المائدة نزلت في حجة الوداع ما ورد في "صحيح البخاري" أن يهوديا جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين! آية في كتابكم، لو علينا - معشر اليهود - نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال عمر: وأي آية تعني؟ قال: قول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّيْوَمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيْنًا...﴾، فقال له عمر: "والله إني لأعلم المكان الذي نزلت فيه، وال الساعة التي نزلت فيها، نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ بعرفة في يوم الجمعة بعد العصر"^(١)، أي إنما نزلت في يوم، هو من أعظم الأعياد الإسلامية، فهو عيد على عيد.

تنبيه:

أورد العلامة السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" بعض الإشكالات على أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل، وأجاب عنها بأجوبة سديدة، نلخصها فيما يلي: ^(٢)

- الإشكال الأول: أنه روي في الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سئل: أي القرآن نزل قبل؟ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّرِّ﴾ (المدثر: ١)، فقيل له: بل ﴿وَاقْرُأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١)، فقال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: "إني جاورت

^(١) انظر صحيح البخاري، باب التفسير.

^(٢) انظر "الإتقان في علوم القرآن" للسيوطى: (٧٥/١).

بحراء، فلما قضيت جواري، نزلت، فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني وشمالى، ثم نظرت إلى السماء، فإذا جبرئيل، فأخذتني رحفة، فأتيت خديجة، فأمرتهم، فدثروني، فأنزل الله ﷺ **(يَا أَيُّهَا الْمُدَّرُّ)**. فهذا الحديث يدل على أن سورة المدثر هي أول ما نزل من القرآن. وقد أجاب عن ذلك السيوطي بقوله:

ويحاب عن هذا الحديث بأجوبة:

أحدها: أن السؤال كان عن نزول سورة كاملة، وبين أن "سورة المدثر" نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة **(فَاقْرَأْ)**؛ فإنها أول ما نزل منها صدرها، ويفيد هذا ما في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ - وهو يحدث عن فترة الوحي - فقال في حديثه: "بینا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرجعت، فقلت: زملوني، فأنزل الله ﷺ **(يَا أَيُّهَا الْمُدَّرُّ)**".^(١) قوله: الملك الذي جاءني بحراء، يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها: **(فَاقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ)**، ثم سرد أجوبة أخرى، لا حاجة إلى ذكرها.

- وأما الإشكال الثاني: فهو أن آية المائدة وهي قوله تعالى: **(هُوَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...)** تدل على أن الدين قد كمل وتم، فكيف تنزل بعد ذلك آيات، ونقول: إنها ختام القرآن؟

والجواب عن ذلك أن الله عز وجل قد أكمل الدين ببيان الفرائض والأحكام، وبيان الحلال والحرام، فما تحتاج إليه الأمة قد بينه الله عز وجل وفصل أحكامه، حتى أصبحوا على "المحة البيضاء"، وهذا لا ينافي أن تنزل بعض الآيات الكريمة التي فيها التذكير والتحذير من عذاب الله، وفيها تذكير الناس بالوقفة الكبرى بين يدي أحكم الحاكمين في ذلك اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، وقد صرخ بهذا جماعة من العلماء حتى قال السدي: "لم ينزل بعدها حلال، ولا حرام".^(٢)

^(١) انظر صحيح البخاري، باب التفسير. ^(٢) انظر "الإتقان": (٨٦/١).

أول ما نزل في القتال، والخمر، والأطعمة:

أولاً: نزلت في القتال آيات عديدة، ولكن هذه الآيات التي نزلت في شأن القتال كلها مدنية؛ لأن المسلمين - في مكة - كانوا في حالة ضعف، فكان جهادهم للأعداء باللسان لا بالسنان، ولم يسمح لهم بقتال الأعداء إلا بعد الهجرة بعد أن تقوى المسلمين وكثروا، وأصبح لهم دولة في المدينة المنورة، فنزل عند ذلك الإذن بالقتال، وأول آية نزلت في القتال: هي قول الله تبارك وتعالى في سورة الحج: ﴿هُوَ الَّذِينَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِيَقْضِيهِ لَهُدِمَتْ صَوَامِعٌ وَبَيْعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠، ٣٩). فأنت ترى في هذا النص الكريم ما يوضح الحكمة من مشروعية الإذن بالقتال، فلم يكن القتال إلا دفعا للظلم، ودفعا للعدوان، ولم يشرع إلا دفاعا عن المظلومين، وردعا للمعتدين كما هو صريح النص الكريم.

ثانياً: وأما الخمر، فقد نزلت فيها آيات عديدة، وكان أول ما نزل فيها: قول الله تعالى في سورة البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا...﴾ (البقرة: ٢١٩). روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: نزل في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ...﴾. إلخ

ثالثاً: وأما أول ما نزل من الأطعمة في مكة، فقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ حِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلَ لِعْنَةِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغِ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام: ٤٥). التي نزلت بها أحكام القرآن، وهي ما ينبغي وهذه أوائل مخصوصة بعض الأحكام التشريعية معرفته؛ ليقف الإنسان على سر التشريع الإسلامي الدقيق، الذي راعى حاجات الناس ومصالح البشر، والتي معرفته؛ هي أحد الأسس الحكيمية التي سلكها الإسلام في معالجة الأوضاع الاجتماعية، والأمراض الخلقة التي كان عليها الناس في الجاهلية، كما سنوضح ذلك في بحث آخر إن شاء الله.

الفصل الثاني:

حكمة نزول القرآن مفرقا

نَزَولُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

شرف الله هذه الأمة الحمدية، فأنزل عليها كتابه المعجز - خاتمة الكتب السماوية - ليكون دستوراً لحياتها، وعلاجًا لمشاكلها، وبلسمًا^(١) شافيًا لعللها وأمراضها، وآية مجد وفخار على اصطفاء هذه الأمة، و اختيارها لحمل أقدس الرسالات السماوية، حيث أكرمتها الله بإنزال أشرف كتاب، وخصها بالانساب إلى أشرف مخلوق محمد بن عبد الله ﷺ.

وبنزوٰل هذا القرآن اكتمل عقد الرسالات السماوية، فشعَّ النور على العالم، وسطع الضياء على الكون، ووصلت هداية الله إلى الخلق، وكان هذا النزول بواسطة أمين السماء جبريل عليه السلام، يهبط به على قلب النبي ﷺ، ليبلغه وحي الله، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿هُنَّا نَزَّلْنَا بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ على قلبك لتكون من المُنذِّرين ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيًّا مُّبِينًا﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥).

كيف نزل القرآن الكريم؟

لِقَرْآنِ الْكَرِيمِ تَنْزِلَانِ:

الأول: من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا (جملة واحدة) في ليلة القدر.

الثاني: من السماء الدنيا إلى الأرض "مفرقاً" في مدة ثلاثة وعشرين سنة.

أما التنزل الأول: فقد كان في ليلة مباركة من ليالي الدهر، هي: "ليلة القدر"، أُنزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ

كاملًا إلى "بيت العِزَّة" في السماء الدنيا، ويدل عليه عدة نصوص وهي:

^{١٠}- قوله تعالى: ﴿ حَمٌ وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (الدخان: ٣٠، ٣١).

بـ- قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ (القدر: ١٢).

^(١) بلسُم: مادَّةٌ صُمغِيَّةٌ تُضْمَدُ بِهَا الجُرْاحَاتُ، سَائِلٌ عَطْرِيٌّ (يونانية): المنجد: ٤٨.

ج - قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥).

فقد دلت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة، توصف بأنها مباركة، وتسمى "ليلة القدر"، وهي من ليالي شهر رمضان، ويتعين أن يكون هذا النزول هو النزول الأول إلى بيت العزة في السماء؛ لأنَّه لو أريد به النزول الثاني على النبي ﷺ لما صح أن يكون في ليلة واحدة، وفي شهر واحد هو "شهر رمضان"؛ لأنَّ القرآن إنما نزل في مدة طويلة، هي مدةبعثة "٢٣" سنة، ونزل في غير رمضان في جميع الأشهر، فتعين أن يكون المراد به "النزول الأول"، وقد جاءت الأخبار الصحيحة تؤيد ذلك، منها:

أ - عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "فصل القرآن من الذكر، فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ".^(١)

ب - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وكان ي الواقع النحوم، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ، بعضه في إثر بعض".^(٢)

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر

ج - رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة، ثم أنزل بمحوما".^(٣)

فهذه الروايات الثلاث: رواها السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن"^(٤) وبين أنها كلها صحيحة، كما روى السيوطي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سأله عطية بن الأسود فقال: أوقع في قلبي الشك قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقُدْرِ﴾، وهذا أنزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي المحرم، وصفر، وشهر ربيع، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على موقع النحوم رسلاً في الشهور والأيام.

^(١) رواه الحاكم. ^(٢) رواه الحاكم والبيهقي. ^(٣) رواه الطبراني. ^(٤) انظر "الإتقان": ١/٩٠، ٩١.

يريد بقوله: "موقع النجوم" وبقوله: "رسلاً، أي أنه أنزل منجماً مفرقاً، يتلو بعضه ببعض على تؤدة ورفق، وذكر السيوطي أن القرطي نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

ولعل الحكمة في هذا النزول هي تفحيم أمر القرآن، وأمر من نزل عليه، بإعلام سكان السموات السبع: أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لتنزله عليهم.

قال السيوطي: ولو لا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الواقع، هبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله سبحانه بين - أي خالف - بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقاً، تشريفاً للمنزل عليه.^(١)

التزيل الثاني: وأما التزيل الثاني فقد كان من السماء الدنيا على قلب النبي ﷺ منجماً، أي مفرقاً في مدة ثلث وعشرين سنة، وهي من حينبعثة إلى حين وفاته صلوات الله وسلامه عليه. والدليل على هذا النزول، وأنه نزل منجماً:

أ- قول الله تعالى في سورة الإسراء:

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦).

ب- قوله تعالى في سورة الفرقان:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِتُبَثَّتَ بِهِ فُوَادِكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢).

روي أن اليهود والمشركيين عابوا على النبي ﷺ نزول القرآن مفرقاً، واقترحوا عليه أن ينزل جملة واحدة، حتى قال اليهود له: يا أبا القاسم! لو لا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى عليه السلام، فأنزل الله هاتين الآيتين رداً عليهم، وهذا الرد - كما يقول الزرقاني -

^(١) الإتقان: ص: ٤٢.

يدل على أمرتين:

أحد هما: أن القرآن نزل مفرقا على النبي ﷺ.

والثاني: أن الكتب السماوية قبله نزلت جملة، كما اشتهر ذلك بين جمهور العلماء، حتى كاد يكون إجماعا. ووجه الدلالة على هذين الأمرين: أن الله تعالى لم يكذبهم فيما أدعوا من نزول الكتب السماوية جملة، بل أجاهم ببيان الحكمة في نزول القرآن مفرقا، ولو كان نزول الكتب السماوية مفرقا كالقرآن، لرد عليهم بالتكذيب، ويعلن أن التنجيم هو سنة الله فيما أنزل على الأنبياء من قبل، كما رد عليهم حين طعنوا على الرسول وقالوا: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٧)، رد عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٢٠). ^(١)

حكمة نزول القرآن منجما:

لنزول القرآن الكريم منجما، أي مفرقا حِكم جليلة، وأسرار عديدة عرفها العالمون، وغفل عنها الجاهلون، ونستطيع أن نحملها فيما يأتي، وهي:

أولا: ثبيت قلب النبي ﷺ أمام أذى المشركين.

ثانيا: التلطف بالنبي ﷺ عند نزول الوحي.

ثالثا: التدرج في تشرع الأحكام السماوية.

رابعا: تسهيل حفظ القرآن وفهمه على المسلمين.

خامسا: مسيرة الحوادث والواقع، والتنبيه عليها في حينها.

سادسا: الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه تنزيل الحكيم الحميد.

ولنبأ بشيء من التفصيل عن هذه الحِكم العديدة التي أجملناها فيما سبق، فنقول - ومن الله

نستمد العون - :

^(١) مناهل العرفان، ص: ٤٦.

أولاً: أما الحكمة الأولى وهي: "ثبتت قلب النبي ﷺ، فقد ذكرتها الآية الكريمة في معرض الرد على المشركين، حين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة، كما نزلت الكتب السماوية السابقة، فرد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَلِكَ لَتُبْثِتَ بِهِ فُؤَادَكُ وَرَأْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢)، وثبتت قلب النبي ﷺ إنما هو رعاية من الله، وتأييد لرسوله أمام تكذيب خصومه له، وإيذائهم الشديد له ولأتباعه، فقد كانت الآيات الكريمة تنزل على رسول الله ﷺ تسلية له، وشحذا همته، للمضى في طريق الدعوة مهما اعترضه المصاعب والشدائد، وقوية لقلبه الشريف، فقد تعهد الله سبحانه وتعالى بما يخف عنده الشدائيد والآلام، فكان إذا اشتد الأذى عليه، نزلت الآيات تسلية له وتخفيها عما يلقاه، وكانت التسلية تارة عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين؛ ليقتدي بهم في صبرهم وجهادهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا...﴾ (آل عمران: ٣٤)

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٤٨).

وقد أوضح الباري - جلت عظمته - الحكمة من ذكر قصص الأنبياء، فقال - وهو أصدق القائلين - : ﴿وَكُلُّا نَقْصٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبَّتْ بِهِ فُؤَادُكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةً وَذَكْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٢٠) .

وتارة كانت التسلية عن طريق الوعد بالنصر، والتأييد للنبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ (الفتح: ٣)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادَنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصفات: ١٧٣-١٧١) .

وآخر تكون التسلية عن طريق إخبار الرسول باندحار أعدائه واهزمتهم، كما في قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر: ٤٥)، وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران: ١٢)، إلى آخر ما هنالك من ألوان في التخفيف عن قلب الرسول، وتطييب نفسه وفؤاده.

ولا شك أن في تحديد نزول الوحي، وتكرر هبوط الأمين جبريل بالأيات البينات، التي فيها تسلية للنبي ﷺ، وفيها الوعد بالنصر والحفظ والتأييد، كان لها أعظم الأثر في ثبيت قلب الرسول لتابعة الدعوة، والمضي في تبليغ الرسالة الإلهية؛ لأن الله معه، وهل يشعر بالخذلان والفتور من كانت عنابة الله تحوطه، وعينيه ترعاه؟

ثانياً: أما الحكمة الثانية، وهي "التلطف بالنبي ﷺ عند نزول الوحي"، فقد كانت بسبب روعة القرآن وهيبته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المرمل: ٥). فالقرآن - كما هو مقطوع به - كلام الله المعجز، الذي له جلال ووقار، وهيبة وروعه، وهو الكتاب الذي لو نزل على جبل لتفتقّت وتصدع من هيبته وجلاله، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاسِعاً مُتَصَدِّعًا مِنْ حَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ٢١)، فكيف إذا بقلب النبي الرقيق؟ هل يستطيع أن يتلقى جميع القرآن دون أن يتاثر ويضطرب، ويشعر بروعه القرآن وجلاله؟

ولقد أوضحت السيدة عائشة ﷺ حالة الرسول حين نزل عليه القرآن، وما يلاقيه من شدة وهول من أثر التنزيل، فقالت - كما رواه البخاري - : "ولقد رأيته حين ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه - أي ينفصل -، وإن جبينه ليتفصد عرقاً". يتفصد: أي: يتصبّب عرقاً، وذلك من شدة الوحي ووطأته على النبي ﷺ.

ثالثاً: وأما الحكمة الثالثة وهي: "التدريج في تشريع الأحكام"، فقد كانت جلية واضحة، حيث سلك القرآن الكريم مع البشرية - وخاصة منهم العرب - طريق الحكم، ففطمهم عن الشرك، وأحيا قلوبهم بنور الإيمان، وغرس في نفوسهم حب الله ورسوله، والإيمان بالبعث والجزاء، ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة - مرحلة ثبيت دعائم الإيمان - إلى العبادات، فبدأهم بالصلاوة قبل المحرّة، ثم ثنى بالصوم، وبالزكاة في السنة الثانية من الهجرة، ثم ختم بالحج في السنة السادسة منها، وكذلك فعل في العادات المتوارثة: زجرهم أولاً عن الكبائر، ثم نهائهم عن الصغائر في شيء من الرفق، وتدرج بهم في تحريم ما كان مستأصلاً في نفوسهم: الخمر، والربا، والميسر تدرجاً

^(١) الرُّلَال: الماء العذب الصافي البارد السلس (المعجم الوسيط: ٣٩٨).

حكيما، استطاع بذلك أن يقتلع الشر والفساد من جذوره اقتلاعا كاملا. ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك التشريع الحكيم، الذي نجح في انتهاجه القرآن، في معالجة الأمراض الاجتماعية: تحريم الخمر، الذي كان داء مستشر با عند العرب، كيف استطاع أن يمحوه ويقضي عليه الإسلام؟

المراحل الأولى: لقد اتّهَجَ القرآن في تحريمِ أربعة مراحل، كما هو الشأن في تحريم الربا، فلم يحرمه دفعة واحدة؛ لأنهم كانوا يتعاطون شرب الخمر، كما يشرب الواحد منا الماء الزلال،^(١) فلم يكن من الحكمة أن يحرمه عليهم دفعة واحدة، وإنما حرمه بالتدريج، فبدأ أولاً بالتنفير منه بطريق غير مباشر، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَحِلُّونَ مِنْهُ سَكِرًا وَرَزْقًا حَسَنًا﴾ (التحل: ٦٧).

فقد أخبر تعالى أنه قد أنعم على الناس بـهاتين الشجرتين: "النخيل، والأعناب"، يستخرجون منها "السكر"، أي الخمر الذي يسكر، و"الرزق الحسن"، الذي يتغذى منه الناس من مأكل ومشروب، فمدح الثاني، ووصفه بأنه رزق حسن، وأخبر عن الأول بأنه "سكر"، أي شيء يسكر ويدهّب بعقل الإنسان، وهذه المبادئ في الوصف يتضح لكل عاقل الفارق الكبير بين الأمرين المذكورين.

المراحل الثانية: جاء التنفير المباشر عن طريق المقارنة العملية بين شيئين: شيء فيه نفع مادي ضئيل، وشيء فيه ضرر جسمي وصحي وعقلي جسيم، وفيه كذلك زيادة على الأضرار العظيمة مهلكة للإنسان عن طريق وقوعه في الإثم الكبير، استمع إلى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَنِيرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرٌ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (البقرة: ٢١٩).

والمراد بالمنافع هنا المنافع المادية التي كانوا يستفيدونها من وراء التجارة والبيع للخمر، حيث يرجحون منها، كما يرجحون من وراء الميسّر، وقد جمع القرآن بين الخمر والميسّر في الآية الكريمة، ولاشك أن النفع في الميسّر "مادي" بحسب،^(١) حيث يربع بعض المقامرين، فكذلك في الخمر.

^(١) بحث: الصرف الحالص لا يخالطه غيره، يقال: شراب بحث، غير ممزوج. (المعجم الوسيط: ٣٩).

قال العلامة القرطبي في تفسيره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾: أما في الخمر فربح التجارة، فإنه كانوا يجلبونها من الشام بـرخص، فيبيعونها في الحجاز بربح، هذا أصح ما قيل في منفعتها.

وبالمقارنة بين هذين الشيئين تبين أن الإسلام نفر من الخمر عن طريق بيان أضرارها الجسيمة، ولكنه لم يحرمنها، وقد روي في سبب نزول هذه الآية: أن جماعة من المسلمين - فيهم عمر بن الخطاب - جاءوا إلى الرسول الكريم، فقالوا: يا رسول الله! أخربنا عن الخمر؟ فإنما مذهبة للعقل، مضيعة للمال، منهكة للجسم؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾. وفي المرحلة الثالثة: كان التحريم للخمر، ولكنه كان "تحريما جزئيا" حيث نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء: ٤٣).

فقد حرم الله عليهم الخمر وقت الصلاة فقط، حتى يصحوا من سكرهم، فكان المسلمون يشربونها ليلاً، وفي غير أوقات الصلاة، وقد روي في سبب نزول هذه الآية: أن عبد الرحمن ابن عوف صنع وليمة، فدعا إليها بعض الصحابة، قال علي بن أبي طالب: فدعانا، وسقانا الخمر، فأخذت الخمر مِنَّا، وحضرت الصلاة، فقدموني لأصلح لهم إماما، فقرأت: "قل يا أيها الكافرون، أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما عبديتم" إلى آخر ذلك، أي: إنه لسكره غير فيها، فنزلت الآية الكريمة.

وفي المرحلة الرابعة: وهي المرحلة الأخيرة، كان التحريم الكلي، القاطع، المانع، حيث نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّ كُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُمْتَهِنُونَ﴾ (المائدة: ٩١، ٩٠).

وبسبب نزول هذه الآيات الكريمة، على ما ذكره المفسرون هو: أن بعض الصحابة صلوا العشاء، ثم شربوا الخمر، وجلسوا يتسامرون، فلعبت الخمر في رؤوسهم، وكان فيهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وكانت جارية صغيرة تنشدهم وتغنيهم، فقالت ضمن نشيدها:

ألا يا حمزُ للشُّرُفِ النَّوَاءِ وَهُنَّ مَعْقَلَاتٍ بِالْفَنَاءِ

تَهْيَجُ حَمْزَةَ عَلَى النَّوْقِ الْإِبْلِ، الَّتِي كَانَتْ بِجُوارِ الدَّارِ، فَقَامَ حَمْزَةُ، فَجَبَ^(١) أَسْنَمَةً نَاقِيَ عَلَيْهِ، وَبَقَرْ خَاصِرَتِيهِما - وَهُوَ فِي حَالَةِ السُّكْرِ -، فَأَخْبَرَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، فَتَأْلمُ أَشَدَّ الْأَلَمِ، وَذَهَبَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهِ وَسَلَّمَ يُشَكِّوُ إِلَيْهِ مَا فَعَلَ عَمَّهُ حَمْزَةُ، فَحَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ يَعَاْبِهُ، وَيَلْوِمُهُ عَلَى صَنْعِهِ، فَجَعَلَ حَمْزَةَ يَنْظَرُ إِلَيْهِ نَظَرَةً غَرِيبَةً، يَصُوبُ بَصَرَهُ وَيُخْفِضُهُ، ثُمَّ خَاطَبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ مَعْهُ، بِقَوْلِهِ: وَهُلْ أَنْتُمْ إِلَّا عَبِيدُ لَأَبِي؟ فَعْلَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّ عَمَّهُ ثَمَلَ - أَيْ سَكْرَانَ - فَلَمْ يَوْاْخِذْهُ، فَقَالَ عَمْرُ عَنْدَهُ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ يَا بَنْ شَافِيَا، فَأَنْزِلْ اللَّهُ: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ^(٢) (المائدة: ٩٠).

وَهَكُذا تَمْ تحرِيمُ الْخَمْرِ تحرِيمًا "بِالْتَّدْرِيجِ"، فَكَانَ فِي ذَلِكَ أَعْظَمُ حَكْمَةَ جَلِيلَة، سَلَكَهَا الإِسْلَامُ فِي مَعَالِجَةِ الْأَمْرَاضِ الاجْتِمَاعِيَّةِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابٍ "مَنَاهِلُ الْعِرْفَانِ" لِلزَّرْقَانِيِّ مَا نَصَهُ: "وَتَدْرِجُ الْإِسْلَامُ بَهْمَ فِي تحرِيمِ مَا كَانَ مُسْتَأْصِلًا فِيهِمْ، كَالْخَمْرِ تَدْرِجاً حَكِيمًا حَقْنَ الْغَايَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ مِّنْ كَابُوسِهَا"^(٣) فِي النَّهَايَةِ، وَكَانَ الْإِسْلَامُ فِي اِنْتِهَاجِ هَذِهِ الْخَطَّةِ الْمُثْلَى أَبْعَدَ نَظَرًا، وَأَهْدَى سَبِيلًا، وَأَنْجَحَ تَشْرِيعًا، وَأَنْجَحَ سِيَاسَةً، مِنْ تَلْكُمِ الْأَمْمِ الْمُتَمَدِّنَةِ الْمُتَحَضَّرَةِ، الَّتِي أَفْلَسَتْ فِي تحرِيمِ الْخَمْرِ عَلَى شَعُوبَهَا أَفْطَعَ إِفْلَاسَ، وَفَشَلَتْ أَمْرَّ فَشَلَ، وَمَا عَهَدَ أَمْرِيْكَا فِي مَهْزَلَةِ تحرِيمِهَا الْخَمْرَ بِيَعْيِدَ، أَلِيْسَ ذَلِكَ إِعْجَازًا لِلْإِسْلَامِ فِي سِيَاسَةِ الشَّعُوبِ، وَهَذِيبِ الْجَمَاعَاتِ؟ بَلِي! وَالتَّارِيخُ مِنَ الشَّاهِدِينَ.

رَابِعًا: أَمَا الْحَكْمَةُ الرَّابِعَةُ: فَهِيَ تَسْهِيلُ حَفْظِ الْقُرْآنِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَفَهْمِهِمْ وَتَدْبِرِهِمْ لَهُ، فَمِنَ الْعِلُومِ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا أَمِينِينَ، أَيْ لَا يَقْرُؤُونَ وَلَا يَكْتُبُونَ، وَقَدْ سَجَّلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمَمِيْنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ^(٤) (الْجَمَعَةِ: ٢)، كَمَا

^(١) جَبَ: أَيْ قَطْعٍ. (المعجم الوسيط: ٤٠٤). ^(٢) الكابوس: ضغط يقع على صدر النائم لا يقدر معه أن يتحرك.

قِيلَ: لِيُسْ بَعْرِي وَهُوَ بِالْعَرَبِيَّةِ: الْجَاهَنَمُ. (المعجم الوسيط: ٧٧٣).

كان صلوات الله عليه أميا كذلك ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، فاقتضت حكمة الله أن ينزل كتابه المجيد "منجما"؛ ليسهل حفظه على المسلمين؛ لأنهم كانوا يعتمدون على ذاكرهم، فكانت صدورهم أناجيлем كما ورد في وصف أمة محمد ﷺ، وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكتابين منهم على ندرتهم، فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه، وعجزوا بالتالي عن تدبره وفهمه.

خامسا: أما الحكمة الخامسة: فهي مسيرة الحوادث والواقع في حينها، والتنبية على الأخطاء في وقتها، فإن ذلك أوقع في النفس، وأدعى إلىأخذ العضة والعبرة منها عن طريق "الدرس العملي"، فكلما جدّ منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وكلما حصل منهم خطأ، أو انحراف نزل القرآن بتعريفهم وتبيههم إلى ما ينبغي احتسابه، وطلب عمله، وتبههم إلى مواطن الخطأ في ذلك الوقت والحين، خذ مثلا على ذلك: غزوة حنين، فقد دخل الغرور إلى نفوس المسلمين، وقالوا قوله الإعجاب والاغترار، لما رأوا عددهم يزيد على عدد المشركين أضعافا مضاعفة، حين ذاك داخلهم العجب، فقالوا: "لن نغلب اليوم من قلة"، وكانت النتيجة انكسارهم، واهتزامهم وتوليتهم الأدبار، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذَا عَجَبْتُمْ كَثُرْتُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيْسَ مُدْبِرِينَ﴾ (التوبه: ٢٥).

ولو أن القرآن نزل جملة واحدة لما أمكن التنبية على الخطأ في حينه؛ إذ كيف يتصور أن تنزل الآيات في شأن المؤمنين واغترارهم، ولم تحدث بعد تلك الواقعة أو الغزوة؟

وكذلك الحال فيأخذ الفداء من الأسرى في "بدر"، حيث نزل التوجيه السماوي الرائع: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخَنَ فِي الْأَرْضِ...﴾ (الأنفال: ٦٧).

سادسا: أما الحكمة السادسة: فهي الإرشاد إلى مصدر القرآن الكريم، وأنه تنزيل الحكيم الحميد، وفي هذه الحكمة الجليلة يجدر بنا أن ننقل نصّ ما كتبه العالم الفاضل الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه "مناهل العرفان" حيث جاء برأي البیان، فقال ﷺ:

"الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله وحده، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ"

ولا كلام مخلوق سواه، وبيان ذلك: أن القرآن الكريم نقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، أخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة^(١) واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزاءه تفكك ولا تخاذل، كأنه سبط وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته...، وهنا نتساءل: كيف اتسق للقرآن هذا التأليف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناقض المدهش؟ على حين أنه لم يتنزل جملة واحدة؛ بل تنزل آhadما مفرقة تفرق الواقع والحوادث في أكثر من عشرين عاماً؟

الجواب: إننا نلمع هنا سراً جديداً من أسرار الإعجاز، ونشهد سمة فذة^(٢) من سمات الربوبية، ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن، وأنه كلام الواحد الديان: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢) وإن فحذثني بربك كيف تستطيع أنت؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعاً أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط، متين النسج والسرد، متألف البدایات والنهایات، مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر، وهي وقائع الزمن وأحداثه التي يجيء كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها، ومتحدثاً عنها، سبباً بعد سبب، وداعية إثر داعية، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي، وتغاير ما بين تلك الأسباب، ومع تراخي زمان هذا التأليف، وتطاول آماد هذه النجوم إلى أكثر من عشرين عاماً؟ لا ريب أن هذا الانفصال الزماني، وذلك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعي، يستلزمان في مجرى العادة التفكك والانحلال، ولا يدعان مجالاً للارتباط والاتصال بين نجوم هذا الكلام.

أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضاً نزل مفرقاً منجماً، ولكنه تمَّ مترابطاً محكماً، أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القوى والقدر، ومالك الأسباب والمبنيات،

^(١) سبيكة: من الذهب أو الفضة كتلة من الذهب أو الفضة مصبوبة على صورة معلومة، كالقضبان ونحوها، وجمعها سباتك. (المعجم الوسيط: ٤١٥).

^(٢) الفد: الفرد والمفرد في مكانته، أو كفایته، والجمع أفذاد وفُذُوذ، والفلدة: الشاذة. (المعجم الوسيط: ٦٧٨).

ومدبر الخلق والكائنات، وقيوم الأرض والسماءات، العليم بما كان وما سيكون، الخبر بالزمان وما يحدث فيه من شؤون؟

لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله ﷺ كان إذا أنزلت عليه آية، أو آيات قال: "ضعوها في مكان كذا، من سورة كذا"، وهو بشر لا يدرى طبعاً ما ستجيء به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث، فضلاً عما سينزل من الله فيها... وهكذا يمضي العمر الطويل، والرسول على هذا العهد، يأتيه الوحي بالقرآن بحثاً بعد بحث، وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم، وينتظم ويتأخر، ويختلف ويلتشم، ولا يؤخذ عليه أدنى تنازل ولا تفاوت، بل يعجزخلق طرّاً، بما فيه من انسجام ووحدة وترابط: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

وإنه ليتبين لك سر هذا الإعجاز إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتساق والانسجام، لن يمكن أن يأتي على هذا النمط الذي نزل به القرآن، ولا على قريب من هذا النمط، لا في كلام الرسول ﷺ، ولا كلام غيره من البلغاء وغير البلغاء، خذ مثلاً (حديث النبي ﷺ)، وهو ما هو في روعته وبلاعته وظهوره وسموه، لقد قاله الرسول ﷺ في مناسبات مختلفة، لدعوا متباعدة في أزمان متطاولة، فهل في مكتبه ومكتبة البشر معك أن ينظموا من هذا السرد الشتت وحده، كتاباً واحداً يচقله الاسترسال والوحدة، من غير أن ينقصوا منه، أو يتزيدوا عليه، أو يتصرفوا فيه؟

ذلك ما لن يكون، ولا يمكن أن يكون، ومن حاول ذلك فإنما يحاول العبث، ويخرج للناس بشوب مرقع، وكلام ملتفق، ينقصه الترابط والانسجام، ويعوزه الوحدة والاسترسال، وتتجه الأسماع والأفهام، إذن فالقرآن الكريم ينطق نزوله منجماً بأنه كلام الله وحده، وتلك حكمة وتلك حكمة جليلة الشأن، تدل الخلق على الحق في مصدر القرآن، ﴿هُنَّ قُلْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: ٦).

كيف تلقى النبي ﷺ القرآن؟

تلقي النبي ﷺ القرآن بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وجبريل تلقاء عن رب العزة جل جلاله، وليس جبريل الأمين سوى تبليغ كلام الله وإيحائه للرسول ﷺ. فالله - جلت حكمته - قد أنزل كتابه المقدس على خاتم الأنبياء بواسطة أمين الوحي جبريل، وعلمه جبريل للرسول، وبلغه الرسول لأمته، وقد وصف جبريل عليه السلام بأنه أمين على الوحي، يبلغه كما سمعه عن الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير: ٢١-١٩). وقال تعالى في وصفه أيضاً: ﴿أَنَّهُ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٤، ١٩٣).

أما حقيقة الكلام وحقيقة المنزل، فإنما هو كلام الله، وتنزيل رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَأْلَقُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (المل: ٦)، وقد كان - صلوات الله عليه - يعاني عند نزول القرآن شدة، وكان يحاول أن يجهد نفسه من أجل حفظ القرآن، فيكرر القراءة مع جبريل حين يتلو عليه القرآن، خشية أن ينساه أو يضيع عليه شيء منه، فأمره الله تعالى بالإنصات والسكوت عند قراءة جبريل عليه، واطمأنه بأنه تعالى سيجعل هذا القرآن محفوظاً في صدره، فلا يتخل في أمره، ولا يجهد نفسه في تلقيه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زَادْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

وأما تكفل الله تعالى له الحفظ، فقد جاء في قوله سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمِيعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة: ١٦-١٩).

وقد كان جبريل يدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان، فينزل جبريل على رسول الله ويستمع له القرآن، فيقرأ الرسول بين يديه وجبريل يستمع، ويقرأ جبريل والنبي يستمع، وهكذا يدارسه في كل رمضان ما نزل من القرآن مرة واحدة، وقبل وفاته ﷺ نزل عليه جبريل مرتين في رمضان، فدارسه القرآن، حتى لقد شعر عليه الصلاة والسلام - من نزول جبريل مرتين عليه - بدنّ أجله، وقال لعائشة رضي الله عنها: "إن جبريل كان ينزل عليّ، فيدارسي القرآن مرة واحدة في رمضان، وقد نزل عليّ هذا العام مرتين، وما أراني إلا قد اقترب أجلي". وقد كان الأمر كذلك،

فقد انتقل في ذلك العام إلى حوار ربه، صلوات الله وسلامه عليه، وانقطع بوفاته نزول الوحي. أما كيف تلقى جبريل القرآن عن الله عزوجل؟ فقد تقدم معنا أنه كان سمعاً، حيث سمع من الله عزوجل هذه الآيات، فنزل بها على رسول الله، قال البيهقي في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر: ١)، يريد - الله أعلم - : إننا أسمعنا الملَكَ وأفهمناه إِيَاهُ، وأنزلناه بما سمع. ومعنى هذا: أن جبريل أخذ القرآن عن الله تعالى سمعاً، ويؤيدده ما روي في الحديث الشريف: "إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رحفة شديدة من خوف الله، فإذا سمع أهل السماء صعقوا، وخرروا سجداً، فيكون أولهم يرفع رأسه "جبريل"، فيكلمه الله بوجهه بما أراد، فيتهي به إلى الملائكة، فكلما مر بسماء أهلها: ماذا قال ربنا؟ قال: الحق، فيتهي به حيث أمر".^(١)

قال الزرقاني في كتابه "مناهل العرفان":

"وقد أسف بعض الناس، فزعم أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ بمعنى القرآن، والرسول يعبر عنها بلغة العرب، وزعم آخرون أن اللفظ لجبريل، وأن الله كان يوحى إليه المعنى فقط، وكلامها قول باطل أثيم، مصادم لصريح الكتاب والسنة والإجماع، ولا يساوي قيمة المداد الذي يكتب به، وعقيدتي أنه مدسوس على المسلمين في كتبهم، وإلا فكيف يكون القرآن حينئذ معجزاً، واللفظ لمحمد أو لجبريل؟ ثم كيف تصح نسبته إلى الله، واللفظ ليس لله؟ مع أن الله يقول: ﴿هَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (التوبه: ٦) إلى غير ذلك مما يطول بنا تفصيله".^(٢)

هل السنة النبوية بوحي من الله؟

تقدمنا أن القرآن الكريم "كلام الله"، ومعنى ذلك أن اللفظ والمعنى هو من عند الله، ولا دخل لجبريل أو محمد ﷺ فيه سوى التبليغ عن الله عزوجل، أما السنة النبوية، فإنها بوحي كذلك من الله، ولكن اللفظ للرسول والمعنى من عند الله؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهُوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (آل عمران: ٤٢).

^(١) رواه الطبراني. ^(٢) مناهل العرفان، ص: ٤٢.

وقد نقل السيوطي عن الجوهري^(١) أنه قال: "كلام الله المنزل قسمان: قسم: قال الله لجبريل: قل للنبي الذي أنت مُرسَلٌ إليه: إن الله يقول: افعل كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا"، ففهم جبريل ما قاله ربه، ثم نزل على ذلك النبي، وقال له ما قاله ربه، ولم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول الملك من يثق به: قل لفلان: "يقول لك الملك: اجتهد في الخدمة، واجمع جنده للقتال"، فإن قال الرسول: "يقول لك الملك: لا تتهاون في خدمتي، ولا ترك الجندي يتفرق، واحثهم على القتال... إلخ"، لا ينسب إلى كذب ولا تقصير. وقسم آخر: قال الله لجبريل: اقرأ على النبي هذا الكتاب، فنزل به جبريل من الله من غير تغيير، كما يكتب الملك كتابا، ويسلمه إلى أمين، ويقول: اقرأه على فلان.

قال السيوطي: القرآن هو القسم الثاني، والقسم الأول هو السنة، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى بخلاف القرآن.

* * * *

^(١) انظر "الإتقان": ٨٩/١

الفصل الثالث:

أسباب النزول

معرفة أسباب النزول، له أثر كبير في فهم معنى الآية الكريمة، وهذا اعنى كثير من العلماء بمعرفة أسباب النزول، حتى أفرد له بالتصنيف جماعة من العلماء، كان من أقدمهم علي بن المديني شيخ البخاري رحمه الله، ومن أشهر ما كتب في هذا الفن كتاب "أسباب النزول" للواحدي، كما ألف فيه شيخ الإسلام ابن حجر رحمة الله عليه، وألف فيه أيضا العلامة السيوطي رحمة الله عليه كتابا حافلا عظيما، سماه "باب النقول في أسباب النزول".

ولمعرفة أهمية هذا النوع من علوم القرآن، والتأكد من ضرورته لفهم معانى الآيات الكريمة نستطيع أن نقول: إن بعض الآيات لا يمكن فهمها أو معرفة أحكامها إلا على ضوء سبب النزول، فمثلا قول الله تعالى: ﴿وَإِلَهُ الْمَسْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْمَّا تُولُوا فَشَّمَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥) قد يفهم منها جواز التوجه في الصلاة إلى غير القبلة، وهذا الفهم خاطئ؛ لأن استقبال القبلة شرط لصحة الصلاة، وبمعرفة سبب النزول يتضح فهم الآية، فقد نزلت هذه الآية الكريمة فيمن كان في سفر، وأضاع القبلة، فلم يعرف جهتها، فإنه يجبه ويتحرى، ثم يصلى، فإن أي جهة صلى، تصح صلاته، ولا يجب عليه إعادة الصلاة فيما إذا تبين له بعد الانتهاء خطأ توجهه. فالآية إذا ليست عامة، إنما هي خاصة فيمن جهل القبلة، فلم يعرف جهتها.

ومثال آخر على أهمية سبب النزول في فهم الآية أن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا أَتَقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ أَتَقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ أَتَقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: ٩٣)، إنما نزلت في الخمر، وقد يفهم من هذا النص الكريم إباحة شرب الخمر، كما ظن بعض الجهلة حيث قالوا: الخمر مباحة. واحتجوا بالآية الكريمة، ولو علموا سبب نزولها لم يفتروا ذلك، فقد روی أنه لما نزل تحريم الخمر في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
 (المائدة: ٩٠)، قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: فكيف بمن قتلوا في سبيل الله وما توا، وكأنوا يشربون الخمر وهي رجس؟ فنزلت الآية الكريمة تبين أن من شربها قبل التحرير، فإن الله قد عفا عنه، وليس عليه ذنب أو إثم؛ لأن الله لا يؤاخذ على ما سبق من العبد قبل الإسلام، أو قبل التحرير، وبذلك تفهم الآية، ويبقى النص القطعي في تحريم شرب الخمر.

فوائد معرفة أسباب النزول:

قد يظن بعض الناس أنه لاطائل تحت هذا الفن، وليس له أثر كبير لجريانه مجرى التاريخ والقصص، فإن أسباب النزول – على زعمهم – ليست ضرورية لمن أراد تفسير كتاب الله.

وهذا زعم خاطئ وقول مردود، لا يصدر من عالم بالكتاب، مطلع على أقوال المفسرين، وهنا نحن ننقل طرفاً من آراء بعض العلماء، ثم نعقبها بذكر فوائد أسباب النزول:

قال الواحدي: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها، وبيان نزولها.^(١) وقال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن.^(٢) وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالسبب.^(٣)
 وهكذا تظهر أهمية هذا الفن من علوم القرآن.

وأما فوائده فيمكن تلخيصها فيما يلي:

أ- معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

ب- دفع توهם الحصر فيما ظاهره الحصر.

ج- تخصيص الحكم بالسبب (عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب).

د- معرفة اسم من نزلت فيه الآية، وتعيين المبهم فيها.

^(١) انظر "الإنقاذ": ٨٧/١. ^(٢) المصدر السابق. ^(٣) المصدر السابق.

إلى غير ما هنالك من فوائد أخرى جليلة.

أمثلة على معرفة أسباب النزول:

أولاً: أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسِنَ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحَبُّونَ أَنْ يُحْمِدُوا بِمَا لَمْ يَفْعُلُوا فَلَا تَحْسِنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ (آل عمران: ١٨٨)، فقال خادمه: اذهب إلى ابن عباس، فقل له: "لعن كان كل أمر فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معدبا، لعدبن أحجعون". فبين له ابن عباس عليه السلام ما أزال عنه الإشكال، وقال له: إن الآية نزلت في أهل الكتاب - اليهود - حين سألهم النبي ﷺ عن شيء، فكتموه إيه، وأخربوه بغيره، أروه أفهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحسدوا بذلك إليه، فنزلت الآية (رواوه الشیخان).

ثانياً: كما أشكل على عروة بن الزبير رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطْوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة: ١٥٨)، فإن ظاهر الآية الكريمة يشير إلى عدم وجوب السعي بين الصفا والمروة، حتى قال عروة بن الزبير لخالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: يا حالة! إن الله تعالى يقول: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطْوَّفَ بِهِمَا﴾، فرأى أنه لا بأس على الإنسان أن يترك السعي بينهما؟ فقالت له عائشة: بش ما قلت يا ابن أخي! لو كان الأمر كما ذكرت، لقال الله تعالى: "فلا جناح عليه ألا يطوف بهما"، ثم أخبرته بأن الناس في الجاهلية كانوا يسعون بين الصفا والمروة، وكانوا يحجون في سعيهم لصنمين، أحدهما على الصفا، يسمى "إسافا"، والثاني على المروة، ويسمى "نائلة"، فلما دخل الناس في الإسلام، تحرّج بعض الصحابة من السعي بينهما خشية أن يتبيّس الأمر بعبادة الجاهلية، فنزلت الآية الكريمة، تدفع عنهم الإثم والحرج، وتوجب عليهم السعي لله تعالى، لا للأصنام، فقد ردت عائشة على عروة فهمه، وكان ذلك بسبب النزول. ^(١)

^(١) انظر "الإتقان": ٨٩/١.

ثالثاً: أشكل على بعض الأئمة معنى الشرط في قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَئْسَنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبَثُمْ فَعَدْتُهُنَّ ثَلَاثَةً أَشْهُرٍ﴾ (الطلاق: ٤)، حتى قال الظاهري: إن الآية التي انقطع دم الحيض عليها لكبر السن، لا عدة عليها إذا لم ترتب، وقد تبين خطأ فهمهم بسبب النزول؛ فإن الآية خطاب لمن لم يعلم "ما حكمهن في العدة"، وارتاب "هل عليهن عدة أم لا؟" فيكون معنى ﴿إِنْ ارْتَبَثُمْ﴾ أي: إن أشكل عليكم حكمهن، وجهلتكم "كيف يعتدون؟" فهذا هو حكمهن، وقد نزلت هذه الآية بعد أن قال بعض الصحابة: إن عدة بعض النساء لم تذكر في القرآن، وهن الصغيرات والآيسات، فنزلت الآية الكريمة، تبين حكم عدة كلٍّ منها، والله أعلم. ^(١)

رابعاً: ومن أمثلة فوائد معرفة أسباب النزول في دفع توهם الخصر، ما روي عن الشافعي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ حِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلَ لَعْنَةِ اللَّهِ بِهِ﴾ (الأعراف: ١٤٥)، فقد قال ما معناه: "إن الكفار لما حرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة والمحاداة، جاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكانه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلا ما أحللتموه، فلم يقصد حل ما وراءه، وإنما القصد إثبات التحرير لا إثبات الحل. قال إمام الحرمين: وهذا في غاية الحسن، ولو لا سبق الشافعي إلى ذلك، لما كنا نستحيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية". ^(٢)

توضيح معنى الآية الكريمة:

وتوضيحاً لهذه الفكرة أقول: إن ظاهر الآية الكريمة يدل على حصر المحرمات في هذه الأشياء المذكورة في الآية الكريمة، وليس الأمر كذلك، فإن هناك محرمات غير هذه، وإنما وردت الآية بصورة الخصر، وليس معناها الخصر للرد على المشركين في تحريمهم ما أحل الله، وتحليلهم لما حرم الله.

^(١) انظر "الإتقان": ١/٨٨. ^(٢) انظر "الإتقان": ١/٨٩.

خامساً: ومن أمثلة فوائد سبب النزول أن نعرف اسم من نزلت فيه؛ ليزول اللبس والإهام، فقد زعم مروان أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفَ لَكُمَا﴾ (الأحقاف: ١٧)، أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، فردت عليه عائشة رضي الله عنها هذا الزعم الباطل، وبيّنت له سبب نزولها، وتفصيل القصة على ما ذكرها البخاري، هي:

"إن مروان كان عاملا على المدينة، فأراد معاوية رضي الله عنه أن يستخلف يزيد، فكتب إلى مروان بذلك، فجمع مروان الناس فخطبهم، فذكر يزيد ودعا إلى بيته، وقال: إن أمير المؤمنين أراه الله في يزيد رأياً حسناً، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: ما هي إلا هرقلية – يعني أنها استبداد للملك، كعمل ملوك الروم – فقال مروان: سنة أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: هرقلية. إن أبي بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا في أهل بيته، وما جعلها معاوية إلا كرامة لولده، فقال مروان: خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفَ لَكُمَا أَتَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ (الأحقاف: ١٧)، فقالت عائشة من وراء الحجاب: "ما أنزل الله فيما شينا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري – برأعي – ولو شئت أن أسمى من نزلت فيه لسميتها"^(١)

ما هو سبب النزول؟

قد تحصل واقعة، أو تحدث حادثة، فتنزل آية، أو آيات كريمة في شأن تلك الواقعة أو الحادثة، فهذا هو ما يسمى بـ"سبب النزول"، وقد يعرض سؤال على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقصد معرفة الحكم الشرعي فيه، أو الاستفسار عن أمر من أمور الدين، فتنزل بعض الآيات الكريمة، فهذا أيضاً ما يسمى بـ"سبب النزول".

مثال الحادثة: ما رواه البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: كنت قينا – أي حدداً – وكان لي

^(١) انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة حم الأحقاف (رقم الحديث: ٤٥٥٠).

على العاص بن وائل دين، فجئت أتقاضاه ديني، فقال لي: لا أعطيك دينك حتى تكفر بـ محمد، وتعبد اللات والعزى فقلت: لا أكفر حتى يميتك الله، ثم يبعثك، فقال: إني إذا لم يميت، ثم مبعوث، فانتظرني إلى ذلك اليوم، فسأولي مالاً ولدًا، فأوفيتك دينك، فأنزل الله عزوجل فيه قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَاُوتَيَنَّ مَالًاٰ وَوَلَدًاٰ، أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا، كَلَّا سَنَكُثُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدَّاً، وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرَدَادًا﴾ (مرم: ٨٠-٧٧).

ومثال السؤال: ماروي عن معاذ بن جبل رض أنه قال: "يا رسول الله! إن اليهود تغشانا، ويكترون مسألتنا عن الأهلة، فما بال الهلال يبدو دقيقا، ثم يزيد حتى يستوي ويستدبر، ثم يتقصص حتى يعود كما كان؟ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ﴾ (البقرة: ١٨٩) ^(٢).

كيف يعرف سبب النزول؟

يظهر مما سبق أن أسباب النزول لا يمكن أن تدرك بالرأي، ولا بد فيها من الرواية الصحيحة والسماع، من شاهدوا التنزيل، أو وقفوا على الأسباب، وبخوا فيها، من الصحابة والتابعين وغيرهم، من اكتسبوا علومهم على أيدي العلماء الموثوقين.

وقد قال ابن سيرين رض: سألت عبيدة عن آية من القرآن؟ فقال: اتق الله، وقل سدادا، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن.

ويعتمد في معرفة سبب النزول على النقل الصحيح، فإذا صرحت الرواية بلفظ السبب، فهو نص صريح فيه، كقول الرواية: سبب نزول هذه الآية كذا وكذا. وكذلك إذا أتي بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول، كقوله: حدث كذا، أو سئل النبي صل عن كذا، "فنزلت"، فهو نص صريح في سبب النزول أيضا.

^(١) انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة مريم، باب أفرأيت الذي كفر بآياتنا. (رقم الحديث: ٤٤٥٥).

^(٢) انظر "روح المعانى للآلوسى": ١٤٢/٢.

وقد لا تكون الصيغة نصا في السبب كقولهم: نزلت هذه الآية في كذا، فقد يراد منه سبب النزول، وقد يراد ما تضمنته الآية من أحكام، فيكون مثل قوله: عني بهذه الآية كذا.

قال الزركشي رحمه الله في البرهان: قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا...، فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان سبب في نزولها.^(١)

وقال ابن تيمية: قولهم: "نزلت هذه الآية في كذا"، يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية، وإن لم يكن السبب فيه.^(٢)

هل يتعدد سبب النزول؟

كثيراً ما يذكر المفسرون لنزول الآية أسباباً متعددة، والمعتمد في مثل هذه الحال أن ننظر إلى العبارة التي قالوها، ونستطيع أن نستخلص ما يلي:

أولاً: أن يعبر كل منهما بقوله: "نزلت هذه الآية في كذا.."، ويدرك أمراً آخر غير الذي ذكره الأول، فيحمل على أنه استنباط للحكم، وتفسير لمعنى الآية، فلا منافاة بينهما كما مر؛ لأنه ليس بسبب النزول.

ثانياً: أن يعبر أحدهما بقوله: "نزلت الآية في كذا"، ويصرح الآخر بذكر سبب النزول، فالمعتمد هنا التصریح، مثاله: ما رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أُنذلت حَرَثٌ لَكُمْ بـ(البقرة: ٢٢٣) في إتيان النساء في أدبارهن.^(٣)

وروى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: "من أتى امرأته من دبرها

^(١) انظر "الإتقان": ٩٣/١.

^(٢) المصدر السابق.

^(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة البقرة، باب "نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أني شتم وقدموا لأنفسكم" (رقم الحديث: ٤٤٥٣)، ولفظه: عن ابن عمر : "فأتوا حرثكم أني شتم" قال يأتيها في"

في قُبْلَه جاء الولد أَحَوْلٌ" فأنزل الله: ﴿نَسَأُكُمْ حَرَثٌ لَكُمْ﴾^(١) فالمعتمد هنا الثاني، وهو حديث جابر رضي الله عنه; لأنَّه نص في السبب، فهو نقل، وقول ابن عمر رضي الله عنهما ليس بنص، فيحمل على أنه استبطاط للحكم وتفسير له.

ثالثاً: أن يذكر كل واحد سبباً صريحاً للنزول غير الآخر، فيعتمد هنا الصحيح دون الضعيف، مثاله: ما أخرجه الشیخان عن جندب رضي الله عنه قال: اشتكي النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأفته امرأة، فقالت: يا محمد! ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله: ﴿وَالضَّحَى، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (الضحى ٣-٤). ^(٢)

وأخرج الطبراني: أن جروا دخل بيت النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة! ما حدث في بيت رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه حبريل لا يأتيني؟ فقلت في نفسي: لو هيأت البيت وكسته، فأهويت بالملائكة تحت السرير، فأخرجت الجرو، فجاء النبي ترعد لحيته - وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة -، فأنزل الله: ﴿وَالضَّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ إلى قوله ﴿فَتَرَضَى﴾ (الضحى ٥)، فتعتمد على الرواية الأولى؛ لأنها في الصحيحين. قال ابن حجر في شرح البخاري: قصة حبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف، فالمعتمد ما في الصحيح. ^(٣)

رابعاً: أن يستوي الإسنادان في الصحة، فترجع أحدهما على الآخر لوجه من وجوه الترجيحات، كذكر الراوي أنه حضر القصة مثلاً، أو نحو ذلك.

مثاله: ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه بالمدينة، وهو يتوكأ

^(١) أخرجه مسلم في كتاب النكاح، باب "جواز جماع امرأته في قبليها من قدامها ومن ورائها من غير تعرض للدبر". (رقم الحديث: ١٤٣٦، ١٤٣٥)

^(٢) أخرجه البخاري في أبواب التهجد، باب ترك القيام المريض (رقم الحديث: ١٠٧٣، ١٠٧٢)، وفي التفسير، سورة الضحى (رقم الحديث: ٤٦٧)، وأخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب ما لقى النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه من أذى المشركين والمنافقين. (رقم الحديث: ١٧٩٧) ^(٣) الإتقان: ٩٥/١.

على عيسى، فمرّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألكتموه، فقالوا: حدثنا عن الروح، فقام ساعة، ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي، ثم قال: **﴿فُلِّ الرُّوْحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتَيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾** (الإسراء: ٨٥). ^(١)

وما أخرجه الترمذى وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل عنه، فقالوا: أسأله عن الروح، فأنزل الله: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوْحِ...﴾** (الإسراء: ٨٥) ^(٢)
فهذه الرواية تقتضي أنها نزلت بمكة، والأولى تقتضي أنها نزلت بالمدينة، فترجح الرواية الأولى؛ لأن ابن مسعود كان حاضر القصة، ثم ما رواه البخارى يرجح على ما رواه غيره.

خامساً: أن تكون كل من الروايتين صحيحة الإسناد، وأن يكون بينهما تقارب في المدة، فتنزل الآية أو الآيات بسبب الحادثتين معاً، ونتهي إلى الجمع بين الروايتين.

مثاله: ما أخرجه البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلوات الله عليه بشريك بن سحماء، فقال النبي صلوات الله عليه: "البينة أو حد في ظهرك"، فقال: يا رسول الله! إذا رأى أحدهنا مع امرأته رجلاً، ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي صلوات الله عليه يقول: "البينة أو حد في ظهرك"، فقال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله تعالى ما يرى ظهري من الحد، فنزل جبريل عليه السلام، وأنزل الله عليه: **﴿هُوَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾** حتى بلغ **﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾** ^(٣) (النور: ٦-٩).

وما أخرجه الشیخان عن سهل بن سعد قال: جاء عوییر بن نصر إلى عاصم بن عدی فقال: اسأل رسول الله عن رجل وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله فقتل به، أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله صلوات الله عليه، فعاب السائل، فأخبر عاصم عوییراً، فقال: والله لآتين رسول الله فلأسأله، فأتأهله.

^(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب قول الله: "وما أُوتَيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا". (رقم الحديث: ١٢٥)

^(٢) أخرجه الترمذى في تفسير القرآن، سورة بني إسرائيل. (رقم الحديث: ٣١٤٠)

^(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة النور، باب ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه من الكاذبين. (رقم الحديث: ٤٤٧٠).

فقال ﷺ: "إنه قد أنزل فيك وفي صاحبتك قرآن، وتلا الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ شَهَدَاءِ إِلَّا أَنفُسُهُم﴾ (النور: ٦).^(١)

وطريق الجمع بينهما أن نقول: إن أول من وقع له ذلك "هلال"، وصادف مجيء "عويم" أيضاً، فنزلت فيهما جيعاً، قال ابن حجر: ولا مانع من تعدد الأسباب.

سادساً: أن لا يمكن الجمع بين الروايات الصحيحة، فيحمل على تعدد النزول وتكرره؛ لأن المدة بينهما بعيدة.

مثاله: ما روي في الصحيحين عن المسيب قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه رسول الله ﷺ، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: أي عم! قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجٌ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزلا يكلمانه حتى قال: هو على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: لاستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ (التوبه: ١١٣).^(٢)

وما أخرجه الترمذى عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهم مشركون، فقلت: تستغفر لأبويك وهم مشركون؟ فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فذكرت ذلك للرسول ﷺ فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾.^(٣)

وروى أيضاً أن النبي ﷺ خرج يوماً إلى المقابر، فجلس إلى قبر منها، فناحاه طويلاً، ثم بكى فقال: "إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي، وإن استأذنت ربى في الدعاء، فلم يأذن لي،

^(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة النور، باب قوله عز وجل: "والذين يرمون أزواجهم" الآية (رقم الحديث: ٤٤٦٨)، وأخرجه مسلم في كتاب اللعان. (رقم الحديث: ١٤٩٢).

^(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: "لا إله إلا الله" (رقم الحديث: ١٢٩٤)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضرة الموت ما لم يشرع في النزع (رقم الحديث: ٣٩).

^(٣) أخرجه الترمذى في تفسير القرآن، سورة التوبة (رقم الحديث: ٣١٠١).

فأنزل على: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ (التوبه: ١١٣). ^(١) قال السيوطي: فيجمع بين هذه الأحاديث بتعدد النزول. ^(٢)

هل العبرة بعموم اللفظ، أم بخصوص السبب؟

اختلاف علماء الأصول في مسألة دقيقة، وهي: هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟ أي أنه إذا وقعت حادثة فنزلت في شأنها آية كريمة، فهل يقتصر حكم هذه الآية على تلك الحادثة، أو الواقعة، أو الشخص الذي نزلت فيه، أم يتعدى الحكم إلى الجميع؟ فجمهور العلماء يذهبون إلى أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، وهذا هو الصحيح، وهناك رأي آخر بأن العبرة بخصوص السبب.

قال السيوطي رحمه الله في كتابه "الإنقان في علوم القرآن":

ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ: احتجاج الصحابة وغيرهم في وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة، كنزول آية الظهار في سلمة بن صخر، وآية اللعan في شأن هلال بن أمية، وحد القذف في رماة عائشة، ثم تعدد الحكم إلى غيرهم لعموم اللفظ، وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما ما يدل على اعتبار العموم، فإنه قال به في آية السرقة، مع أنها نزلت في امرأة سرقت، ثم روي عن "نجدة الحنفي" قال: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: **﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقةُ﴾**

^(١) وقال خاتمة المحققين الشيخ محمد أمين الشهير بابن عابدين رحمه الله في "رد المحتار على الدر المختار" (٣٦٩/٦): "مطلوب" في إحياء أبيي النبي صلوات الله عليه وسلم بعد موتهما "ألا ترى أن نبينا صلوات الله عليه وسلم قد أكرمه الله تعالى بحياة أبويه له حتى آمنا به في حديث صحيحه القرطبي رحمه الله وابن ناصر الدين حافظ الشام رحمه الله وغيرهما، فانتفعوا بالإيمان بعد الموت على خلاف القاعدة إكراما لنبيه صلوات الله عليه وسلم كما أحيا قتيلبني إسرائيل ليخبر بقاتلاته وكان عيسى صلوات الله عليه وسلم يحيى الموتى، وكذلك نبينا صلوات الله عليه وسلم أحيا الله على يديه جماعة من الموتى، وقد صح أن الله تعالى رد عليه صلوات الله عليه وسلم الشمس بعد مضيها حتى صلى على كرم الله وجهه العصر، فكما أكرمه بعود الشمس والوقت بعد فواته، وكذلك أكرم بعود الحياة ووقت الإيمان بعد فواته. وما قيل: "إن قوله تعالى: **﴿وَلَا تُسَأَلُ عَنْ أَصْنَابِ الْحَاجِمِ﴾** (القرآن: ١١٩) نزل فيهما لم يصح، وخير مسلم: "أبي وأبوك في النار" كان قبل علمه.

^(٢) انظر "الإنقان": ٧١/١

فَاقْطَعُوا أَيْدِيهِمَا ﴿٣٨﴾ (المائدة: ٣٨) أخاصل أم عام؟ قال: بل عام.

قال ابن تيمية: قد يجيء كثيرا من هذا الباب قوله: هذه الآية نزلت في كذا - لا سيما إن كان المذكور شخصا - كقولهم: إن آية الظهور نزلت في امرأة ثابت بن قيس، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله، وأن قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة: ٤٩) نزلت في بني قريطة وبني النضير، ونظائر ذلك.

فالذين قالوا ذلك، لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم؛ فإن هذا لا ي قوله مسلم، ولا عاقل على الإطلاق.

وقال الزمخشري في تفسير سورة الْمُمْزَأة: يجوز أن يكون السبب خاصا، والوعيد عاما؛ ليتناول كل من باشر ذلك القبيح، ولن يكون ذلك جاريا مجرى التعریض،^(١) والله تعالى أعلم.

* * * *

^(١) انتهى بتصرف، من كتاب "الإتقان في علوم القرآن".

الفصل الرابع:

نحو القرآن على سبعة أحرف والقراءات المشهورة

تمهيد:

لما خلق الله الخلق، جعل لكل منهم شرعة ومنهاجاً، وكان للعرب لهجات متعددة، اكتسبوها من فطرتهم، واقتبسوا بعضها من جيرانهم، وكانت لغة قريش لها الصدارة والذيع لأسباب عده، منها اشتغالهم بالتجارة، وجودهم عند بيت الله الحرام، وقيامهم على السدانا ورفادة، وكان القرشيون يقتبسون بعض اللهجات والكلمات التي تعجبهم، من غيرهم، وكان من الطبيعي أن ينزل الله أحکم الحاكمين القرآن باللغة التي يفهمها العرب أجمع؛ لتيسير فهمها، وللإعجاز والتحدي لأرباب الفصاحة بالإتيان بسورة أو بآية، وتيسير قراءته وفهمه وحفظه لهم؛ لأنّه نزل بلغتهم كما قال جل ثناؤه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ لَنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢).

أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف:

أولاً: روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: "أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستريده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف".^(١) زاد مسلم: "قال ابن شهاب: بلغني أن تلك السبعة في الأمر الذي يكون واحداً، لا يختلف في حلال ولا حرام".

ثانياً: روى البخاري ومسلم - واللفظ للبخاري - أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلوات الله عليه وسلم، فاستمعت لقراءاته، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنها رسول الله صلوات الله عليه وسلم، فكدت أساوره في الصلاة، فانتظرته حتى سلم،

^(١) صحيح البخاري (٣: ٢٢٧)، صحيح مسلم (١: ٥٦١) بسندهما عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة.

ثم لبته برداه، فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، قلت له: كذبت، فوالله إن رسول الله ﷺ، أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله! إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتي سورة الفرقان.

فقال رسول الله ﷺ: أرسله يا عمر! اقرأ يا هشام!، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها، قال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت، ثم قال: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه". وفي بعض الروايات: أن رسول الله استمع إلى قراءة عمر أيضاً وقال: هكذا أنزلت.

ثالثاً: روى مسلم بسنده عن أبي بن كعب قال: كنت في المسجد، فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرها عليه، ثم دخل آخر، فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ، فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقراء، فحسن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب، ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري، فقضضت عرقاً، وكأنما أنظر إلى الله عزوجل فرقاً، فقال له: يا أبي! أرسل إلي أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هون على أمري، فرد إلي الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، ولكل ردة رددتها مسألة تسأليها فقلت: اللهم اغفر لأمي، اللهم اغفر لأمي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم، حتى إبراهيم عليه السلام.

قال القرطبي: "فكان هذا الخاطر (يشير إلى ما سقط في نفس أبي) من قبيل ما قال فيه النبي ﷺ حين سأله: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدهما أن يتكلم به. قال: "أوَقد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذلك صريح الإيمان".^(١)

رابعاً: روى الحافظ أبو يعلى في مسنده الكبير: أن عثمان رضي الله عنه قال يوماً وهو على المنبر:

^(١) رواه مسلم.

أذكّر الله رجلاً سمع النبي ﷺ قال: "إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف"، لما قام، فقاموا حتى لم يمحصوا، فشهدوا أن الرسول ﷺ قال: "أنزل القرآن على سبعة حروف، كلها شاف كاف"، فقال عثمان رضي الله عنه: "وأناأشهد معهم".

خامساً: روى مسلم بسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان عند أضاءة^(١) بني غفار قال: فأتاه جبريل عليه السلام فقال: "إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف". فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمري لا تطيق ذلك، ثم أتاه الثانية، فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين. فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمري لا تطيق ذلك، ثم جاءه الثالثة، فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمري لا تطيق ذلك، ثم جاءه الرابعة، فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا".

سادساً: روى الترمذى عن أبي بن كعب أيضاً قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المروة، قال: فقال رسول الله ﷺ لجبريل: إني بعثت إلى أمة أميين، فيهم الشيخ الفانى، والعجوز الكبيرة، والغلام، قال: فمرهم فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف، قال الترمذى: حسن صحيح. وفي لفظ: " فمن قرأ بحرف منها فهو كما قرأ".

وفي لفظ حذيفة: قلت: يا جبريل! إني أرسلت إلى أمة أمية، فيهم الرجل والمرأة، والغلام والجارية، والشيخ الفانى الذى لم يقرأ كتاباً قط قال: "إن القرآن أنزل على سبعة أحرف".

سابعاً: أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو أن رجلاً قرأ آية من القرآن، فقال له عمرو: إنما هي كذا وكذا، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فأي ذلك قرأتم أصبتم، فلا تماروا".

ثامناً: روى الطبرى والطبراني عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال:

^(١) مستنقع الماء كالغدير، وهو موضع بالمدينة نسب إلى بني غفار؛ لأنهم نزلوا عنده.

أقرأني ابن مسعود سورة أقرأنيها زيد بن ثابت، وأقرأنيها أبي بن كعب، فاختلت قراءتهم، فبقراءة أيهم آخذ؟ فسكت رسول الله ﷺ وعلي إلى جنبه، فقال علي: ليقرأ كل إنسان منكم كما علم، فإنه حسن جميل.

تاسعاً: أخرج ابن جرير الطبرى عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ولا حرج، ولكن لا تختروا ذكر رحمة بعذاب، ولا ذكر عذاب برحمة".

الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف:

١- التيسير على الأمة الإسلامية، وخاصة الأمة العربية التي نزل عليها القرآن، وكان لها لهجات متعددة على الرغم أنها تجمعها كلمة العروبة، نأخذ هذا من قوله ﷺ: "أن هؤلء على أمي"، "إإن أمي لا تطبق ذلك"، وغيرها.

قال الحق ابن الجوزي:

"أما سبب وروده على سبعة أحرف؛ فلتخفيف على هذه الأمة، وإرادة اليسر بها، والتهورين عليها، شرفا لها، وتوسيعة ورحمة، وخصوصية لفضلها، وإجابة لقصد نبيها أفضلخلق وحبيب الحق، حيث أتاه جبريل فقال: "إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، فقال ﷺ: أسأل الله مغفراته ومغفرته، فإن أمي لا تطبق ذلك، ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف.

ثم قال: وكما ثبت أن القرآن نزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف، وأن الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد على حرف واحد، وذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يعيشون إلى قومهم الخاصين، والنبي ﷺ بعث إلى جميع الخلق، أحمرهم وأسودهم، عربهم وعجمائهم، وكان العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، لغاتهم مختلفة، وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغة إلى غيرها، أو من حرف إلى آخر، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو بالتعليم والعلاج، لا سيما الشيخ والمرأة، ومن لم يقرأ كتابا، كما أشار إليه ﷺ، فلو

كُلُّفوا العدول عن لغتهم، والانتقال عن ألسنتهم، لكن من التكليف بما لا يستطيع، وما عسى أن يتكلف المتكلف وتأيي الطباع".

٢- جمع الأمة الإسلامية على لسان واحد، يوحد بينها هو لسان قريش الذي انتظم كثيراً من مختارات السنة القبائل العربية التي كانت تختلف إلى مكة في موسم الحج وغيره؛ ولذلك نزل القرآن على سبعة أحرف، يصطفى ما شاء من لغات القبائل العربية التي تمثلت في لسان القرشيين، وهذه حكمة إلهية سامية، فإن وحدة اللسان العام من أهم العوامل في وحدة الأمة، خصوصاً أول عهدها بالتوحيد والنهوض.

معنى نزول القرآن على سبعة أحرف؟

الأحرف: جمع حرف، والحرف له معانٍ كثيرة، قال صاحب القاموس: "الحرف من كل شيء طرفة، وشفيره وحده، ومن الجبل أعلى المحدد، وواحد حروف التهجي ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ (الحج: ١١) أي وجه واحد، وهو أن يعبده على السراء لا على الضراء، أو على شك، أو على غير طمأنينة من أمره، أي لا يدخل في الدين متمنكاً. و"نزل القرآن على سبعة أحرف"، أي سبع لغات من لغات العرب. وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه وإن جاء على سبعة أو عشرة أو أكثر، ولكن معناه أن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن". (بتصرف) مما تقدم نرى أن الحرف من قبيل المشترك اللفظي، والمشترك اللفظي يراد به أحد معانيه التي تعينها القرائن وتناسب المقام.

فالمراد من لفظ الحرف: أنه الوجه، بدليل ما يأتي:

قوله عليه السلام: **أنزل القرآن على سبعة أحرف**.

كلمة "على" تشير إلى أن هذا الشرط للتوسيعة والتيسير، بمعنى أنزل القرآن موسعاً فيه على القارئ أن يقرأه على سبعة أوجه، يقرأ بأي حرف أراد منها على البديل من صاحبه، كأنه قال: **أنزل على هذا الشرط وعلى هذه التوسيعة**.

اختلاف العلماء في تفسير الأحرف الواردة في الحديث:

هنا يختدم الجدال والنزاع، ويكثر القيل والقال، وسنذكر بعضًا من الآراء، ونرجح ما نراه أقرب للصواب:

١ - ذهب بعض العلماء إلى أن المراد به سبع لغات العرب في المعنى الواحد على معنى أنه حيث تختلف لغات العرب في التعبير في معنى من المعاني، يأتي القرآن بالفاظ على قدر هذه اللغات، وإذا لم يكن اختلاف فإنه يأتي بلفظ واحد.

وقيل: إن السبعة هي لغة "قريش"، و"هذيل"، و"ثقيف"، و"هوازن"، و"كناة"، و"تميم"، و"اليمن".

٢ - وقيل: إن المراد بالأحرف السبعة: سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن، على معنى أنه في جملته لا يخرج في كلماته عن سبع لغات، هي أفسح لغاتهم، فأكثروه بلغة قريش، ومنه ما هو بلغة هذيل، أو ثقيف، أو هوازن، أو كناة، أو تميم، أو اليمن.

قال بعضهم: هذا أصح الأقوال وأولاها بالصواب، وهو الذي صححه البهقي، واختاره الأهربي، واقتصر عليه صاحب القاموس.

٣ - إن المراد بالأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، سبعة أصناف في القرآن.

ولكن أصحاب هذه الأقوال يختلفون في تعين هذه الأصناف، وفي أسلوب التعبير عنها اختلافاً كبيراً، فمنهم من يقول: إنها أمر، ونهي، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال.

ومنهم من يقول: إنها وعد، ووعيد، وحلال، وحرام، ومواعظ، وأمثال، واحتجاج.

ومنهم من يقول: إنها محكم، ومتشابه، وناسخ، ومنسوخ، وخصوص، وعموم، وقصص.^(١)

٤ - إن المراد بالأحرف السبعة أوجه من الألفاظ المختلفة في الكلمة واحدة، ومعنى واحد، نحو: هلم، وأقبل، وتعال، وعجل، وأسرع، وقصدي، ونحوئي، فهذه الألفاظ السبعة معناها واحد هو "طلب الإقبال".

^(١) مناهل العرفان ص: ١٧٦.

وهذا القول منسوب بجمهور أهل الفقه والحديث، منهم ابن حجر الطبرى، والطحاوى، وغيرهما.

٥- أن المراد بالأحرف السبعة الاختلاف في أمور سبعة:

أ- اختلاف الأسماء إفراداً وتذكيراً وفروعها، مثاله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَاهَدُوهُمْ رَأْعُونَ﴾ (المؤمنون:٨) فكلمة "أماناتهم" قرئ بالجمع والإفراد.

ب- الاختلاف في تصريف الأفعال من مضارع، وماض، وأمر، مثاله قوله تعالى:

﴿هَرَبَّنَا بَاعِدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ (سبأ:١٩) قرئ بنصب لفظ "ربنا" على أنه منادى،

وبلفظ "باعد" فعل أمر. وقرئ "ربنا بعد" برفع "رب" على أنه مبتدأ،

وبلفظ "بعد" فعلاً ماضياً مضعف العين، جملته خبر.

ج- الاختلاف بالإبدال، سواء كان إبدال حرف بحرف، كقوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا﴾ (البقرة:٢٥٩) قرئ بالزاي وباراء مع فتح النون،

وقوله سبحانه: ﴿وَطَلْحٌ مَنْصُودٌ﴾ (الواقعة:٢٩) قرئ "وطلح" ، فلا فرق في هذا

بين الاسم والفعل أو إبدال لفظ بلفظ، كقوله سبحانه: ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (القارعة:٥) قرأ ابن مسعود: "كالصوف المنفوش".

د- اختلاف بالتقديم والتأخير، إما في حرف كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِ إِنْسِ﴾ (الرعد:٣١)

قرئ "أفلم يأيس" ، وإما في الكلمة، نحو: ﴿قَيْقَلُونَ وَيُقَلُّونَ﴾ (التوبه:١١١) قرئ

بالبناء للفاعل في الأول، وللمفعول في الثاني، وقرئ بالعكس، وكقوله سبحانه:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ (ق:١٩) قرئ "وجاءت سكرة الحق بالموت".

ح- اختلاف وجوه الإعراب، كقوله سبحانه: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ (يوسف:٣١) قرأ

ابن مسعود بالرفع، وكقوله سبحانه: ﴿هُوَ الْعَرْشُ الْمَجِيدُ﴾ (البروج:١٥) بفتح

المجيد على أنه نعت كلمة "ذو" ، وجراها على أنها صفة العرش.

و- الاختلاف بالزيادة والنقص، كقوله تعالى: **﴿فَوْمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾**
(الليل:٣) قرئ "والذكر والأنثى" بحذف "ما خلق".

ظ- اختلاف اللهجات بالتفخيم، والترقيق، والإملاء، والإظهار، والإدغام، وهو كثير،
 ومنه الإملاء وعدمها، في مثل قوله تعالى: **﴿فَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾** (النازعات:١٥).
 وهذا الرأي الأخير قد ذهب إليه الرازبي، وقاربه كل القرب مذهب ابن قتيبة، وابن الجوزي،
 وابن الطيب، وقد أخذ به الشيخ الزرقاني في كتابه "مناهل العرفان" وأيده بعض الأدلة.

الترجح:

وأقرب الوجوه إلى الصواب هو المذهب الأخير، الذي اختاره الرازبي، واعتمده الزرقاني في
 كتابه "مناهل العرفان" وأيده بأدلة، منها:

١- إن هذا المذهب هو الذي تؤيده الأحاديث المتقدمة.

٢- إنه يعتمد على الاستقراء التام لاختلاف القراءات، وما ترجع إليه من الوجوه السبعة.

٣- إن هذا الرأي لا يلزم منه محدود.

والآراء في "الأحرف السبعة" كاملة تجدها في كتاب "مناهل العرفان" للزرقاوي، وفيها توهين
 المذاهب الأخرى والرد عليها (ص: ١٦٥-١٧٧).

ونحن ننقل خلاصة هذا المذهب من كلام أبي الفضل الرازبي في اللوائح حيث يقول: الكلام
 لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف.

الأول: اختلاف الأسماء من إفراد، وثنية، وجمع، وتذكير، وتأنيث.

الثاني: اختلاف تصريف الأفعال من ماض، ومضارع، وأمر.

الثالث: اختلاف وجوه الإعراب.

الرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة.

الخامس: الاختلاف بالتقدير والتأخير.

السادس: الاختلاف بالإبدال.

السابع: اختلاف اللغات، يعني اللهجات، كالفتح والإملاء، والترقيق والتخفيم، والإظهار والإدغام، ونحو ذلك.

هل الأحرف السبعة موجودة في المصاحف الآن؟

١ - ذهب جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أن جميع هذه الأحرف موجودة بالمصاحف العثمانية.

حجتهم:

أ- أنه لا يجوز للأمة أن تحمل نقل شيء منها.

ب- أن الصحابة أجمعوا على أن الصحف التي نقلها عثمان عليهما السلام من الصحف التي كتبها أبو بكر عليهما السلام.

ج- معنى ما تقدم أن الصحف التي عند أبي بكر قد جمعت الأحرف السبعة، ونقلت منها المصاحف العثمانية بالأحرف السبعة كذلك.

د- قول النبي ﷺ: "إن أمي لا تُطبق ذلك" لا يختص بعهد الصحابة دون غيرهم، وبقاء تيسير القرآن مع بقاء إعجازه.

٢ - ذهب جاهير العلماء من السلف والخلف، وأئمة المسلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسماها من الأحرف السبعة فقط، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل عليه السلام.

٣ - ذهب ابن طوير الطبراني ومن معه إلى أن المصاحف العثمانية لم تشتمل إلا على حرف واحد من الحروف السبعة، وقالوا: إن الأحرف السبعة كانت في أيام الرسول ﷺ، وأبي بكر وعمر، فلما كان عهد عثمان رأت الأمة بقيادته أن تقتصر على حرف واحد جمعاً لكلمة المسلمين،

ونسخ عثمان بهذا الحرف الذي استبقيه الأمة وحده جميع المصاحف العثمانية.

قال الزرقاني في "مناهل العرفان" (ص: ٦٦٢) ما نصه:

"ونحن إذا رجعنا بهذه الأوجه السبعة إلى المصاحف العثمانية، وما هو مخطوط بها في الواقع ونفس الأمر، نخرج بهذه الحقيقة التي لا تقبل النقض، ونصل إلى فصل الخطاب في هذا الباب، وهو أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها، ولكن على معنى أن كل واحد من هذه المصاحف اشتمل على ما يوافق رسمه من هذه الأحرف كلاً أو بعضاً، بحيث لم تخال المصاحف في جموعها عن حرف منها رأساً".

وقد بين ووضع الشيخ الزرقاني وجود الأوجه السبعة على مذهب المختار، وأن الأوجه السبعة موجودة الآن في المصاحف العثمانية، وسأكتفي بذكر مثال من أمثلته، غير أن بعض الوجوه السبعة ذكر أنها منسوحة بالعرضة الأخيرة.

مثاله: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المؤمنون: ٨) المقوءة بجمع الأمانة وإفرادها، فقد اشتمل عليها المصحف إذ كان الرسم العثماني فيه هكذا: (لِأَمَانَتِهِمْ) برسم المفرد في الحروف، ولكن عليها ألف صغيرة؛ لتشير إلى قراءة الجمع، وغير منقوطة ولا مشكولة.^(١)

مناقشة مذهب الطبرى:

قال الطبرى: إن الأحرف الستة نسخت بإجماع الأمة في عهد عثمان رضي الله عنه، وبقى حرف واحد حفاظاً لوحدة الأمة الإسلامية من التفرق، حين كفر بعضهم بعضاً بسبب اختلاف القراءات وخافت الفتنة، فلم تجد الأمة حلاً لهذه المشكلة إلا جمع الأمة على قراءة حرف واحد.

الرد عليه:

١- الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في القراءة في عهد رسول الله صلوات الله عليه وسلم، وكادت أن تقع فتنة - كما

^(١) مناهل العرفان، ص: ١٦٢.

- قلتم - فكيف حلّ الرسول ﷺ هذه المشكلة؟ إنما كان حلّه الوحيد إقرار كل من المختلفين على القراءة التي قرأ بها، وأفهمهم أن تعدد وجوه القراءة هو رحمة من الله بهم ويسير عليهم، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة.
- ٢- وقال في الحديث: "إن أمتي لا تطيق ذلك"، وأمته باقية إلى يوم القيمة، كما نشاهد نحن الآن أن بعض الشعوب الإسلامية لا يتيسر لها النطق ببعض الحروف، ولا تحسن إتقان بعض اللهجات دون بعض.
- ٣- بعد ما عرفنا ما تقدم، نقول: كيف يسوغ لصحابي رسول الله عليهم من الله الرضوان، وعلى رأسهم عثمان بن عفان ؓ - إغلاق باب الرحمة والتحجيف الذي فتحه الله لأمة الإسلام؟ مخالفي الرسول عليه الصلاة والسلام في علاجه للنزاع الذي حصل بين الصحابة بتقرير هذا التعدد للحروف.
- ٤- إننا نربأ بأصحاب رسول الله ﷺ أن يكونوا قد وافقوا، أو فكروا على ضياع ستة أحرف من القرآن الكريم، وهي لم تنسخ لا تلاوة ولا حكماً، ولم يكونوا ليخالفوا الرسول في قوله وعمله.
- ٥- لو كانت هذه الأحرف نسخت في عهد عثمان ؓ، لم يبق مجال لاختلاف العلماء فيها، ولكننا نجدهم اختلفوا فيها على نحو منأربعين قولًا.
- ٦- لو فرضنا - جدلاً - أن الأحرف الستة نسخت في عهد عثمان فلماذا لا تبقى مجرد التاريخ فقط في أعظم كتاب مقدس، مع أن الصحابة بينوا الآيات المنسوقة تلاوة أو حكماً، وكذلك الآيات المنسوقة والأحاديث الموضوعة، وبينوا لكل وجهة.
- ٧- وقصارى القول: أن الصحابة ؓ لم يرضاوا بمخالفة رسول الله ﷺ في قوله أو فعله، ولم يكن لهم التبدل ونسخ ما لم ينسخ من كتاب الله، وحاشاهم أن يقدموا على مثل هذا الفعل، رضي الله عنهم وأرضاهم. ^(١)

^(١) انظر صفحة ٢٥١-٢٦٠ للبحث المفصل المتعلّق بالأحرف السبعة.

بعض الشبهات الواردة على الموضوع والرد عليها

الشبهة الأولى:

يقولون: إن المراد بالأحرف السبعة هي القراءات السبع المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفيين عند القراء.

الرد عليهم: قولكم هذا باطل من وجوه:

١- إن قول الرسول ﷺ: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف" يكون عارياً من الفائدة على قولكم حتى يولد الأئمة السبعة، مع أن قولكم غير صحيح؛ لأن الرسول ﷺ قرأ بها وصحابته والتابعون قبل ميلاد القراء.

قال الحق ابن الجزري: "فلو كان الحديث منصراً إلى قراءات القراء السبعة المشهورين، أو سبعة غيرهم من القراء الذين ولدوا بعد التابعين لأدئ ذلك إلى أن يكون الخبر عارياً عن الفائدة إلى أن يولد هؤلاء السبعة، فتُؤخذ عنهم القراءة، وأدئ أيضاً إلى أنه لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء إذا ولدوا وتعلموا، اختاروا القراءة به، وهذا باطل؛ إذ طريقأخذ القراءة أن تُؤخذ عن إمام ثقة، لفظاً عن لفظ، إماماً عن إمام، إلى أن يتصل بالنبي ﷺ".

٢- إن الأحرف السبعة أعم من القراءات السبع عموماً مطلقاً؛ لأن الأحرف السبعة تشمل القراءات التي قرأها الرسول ﷺ، وتشمل أيضاً ما وصل إلى هؤلاء القراء السبعة، وما نسخ قبل أن يصل إليهم، وتنتظم جميع القراءات صحيحة، ومنكرها، وشاذها، فما دام أن الأحرف أعم من القراءات فلا تكون هي نفس القراءات.

٣- من الحال عقلاً أن يفرض الرسول ﷺ قراءة القرآن على صحابته بقراءة القراء الذين لم يخلقوا بعد، وهذا الرأي باطل.

الشبهة الثانية:

يقولون: إن أحاديث نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف ثبت الاختلاف مع أن القرآن نفسه ينفي الاختلاف بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢)، وذلك تناقض، ولا ندرى أيهما الصادق؟

الجواب: إن الاختلاف الذي ثبته الأحاديث غير الذي ينفيه القرآن، وعلى هذا كلامها صادق؛ إذ أن الاختلاف الذي ثبته الأحاديث فيما يتعلق بطرق الأداء والنطق بالفاظ القرآن في دائرة محدودة، لا تعدو سبعة أحرف، وبشرط التلقى فيها كلها عن النبي ﷺ.

فعلى هذا يكون الاختلاف في الأحاديث بمعنى التنويع، أما القرآن فينفي التناقض بين أحكامه ومعانيه وتعاليمه، مع ثبوت التنويع في التلفظ والأداء^(١).

والحاصل: قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وهذا المجموع في المصحف: هل هو جميع الأحرف السبعة التي أقيمت القراءة عليها؟ أو حرف واحد فيها؟ قال القاضي أبو بكر: إنه جميعها، وصرح أبو جعفر الطبرى والأكثرون من بعده بأنه حرف منها، ومال الشيخ الشاطئي إلى قول القاضي فيما جمعه أبو بكر رضي الله عنه، وإلى قول الطبرى فيما جمعه عثمان رضي الله عنه.

قال الزركشى في البرهان: قال بعض المتأخرین: القراءات السبع التي قرأها القراء السبعة كلها صحت عن رسول الله ﷺ، وهو الذي جمع عليه عثمان رضي الله عنه المصحف، وهذه القراءات السبع اختيارات أولئك القراء، فإن كل واحد منهم اختار فيما روی وعلم وجهة من القراءة ما هو الأحسن عنده، ولزم طريقة منها وروها وقرأ بها، واشتهرت عنه، ونسبت إليه فقيل: حرف نافع، وحرف ابن كثير، ولم يمنع واحد منهم حرف الآخر، ولا أنكره، بل سوغه وحسنه، إلى أن قال: وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عنهم، وكان الإنزال على

^(١) نقلًا عن "مناهل العرفان" ص: ١٧٩ بتصرف.

الأحرف السبعة توسيع من الله ورحمة للأمة؛ إذ لو كلف كل فريق منهم ترك لغته والعدول عن عادة نشوا عليها من الإملاء والهمز، والتلبين والمد، وغيره لشق عليهم.

القراءات المشهورة:

في نهاية البحث نرى لزاما علينا أن نتكلم على نبذة مختصرة عن القراءات وكيف نشأت؟ ومن هم القراء المشهورون؟

تعريف القراءات:

القراءات: جمع قراءة، مصدر قرأ يقرأ قراءة، واصطلاحاً: مذهب من مذاهب النطق في القرآن يذهب به إمامٌ من الأئمة القراء مذهباً يخالف غيره في النطق بالقرآن الكريم وهي ثابتة بأسانيدها إلى رسول الله ﷺ.

هل كان في عهد الصحابة قراء؟

نعم! يرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم في التلاوة إلى عهد الصحابة الكرام، فقد اشتهر بالإقراء منهم: أبي، وعلي، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو موسى الأشعري، وغيرهم رضي الله عنه.

وعن هؤلاء أخذ كثير من الصحابة والتابعين في الأمصار، وكلهم يسنده إلى رسول الله ﷺ إلى أن جاء عهد التابعين في المائة الأولى، فتجرد قوم، واعتبروا بضبط القراءة عناءة تامة حين دعت الحاجة إلى ذلك، وجعلوها علماً كما فعلوا بعلوم الشريعة الأخرى.

ونعود ونقول كيف نشأت القراءات؟

عرفنا آنفاً أن عهد القراء من عهد الصحابة إلى عهد التابعين، وأن المعول عليه في القرآن الكريم إنما هو التلقى والأخذ، ثقة عن ثقة، وإماماً عن إمام، إلى النبي ﷺ، وكانت المصاحف غير منقوطة ولا مشكولة، وأن صورة الكلمة فيها كانت محتملة لكل ما يمكن من وجوه القراءات

المختلفة، وإذا لم تختتمها كتبت الكلمة بأحد الوجوه في مصحف، ثم كتبت في مصحف آخر بوجه آخر، وهلم جرا. فلا غرو أن كان التعويل على الرواية والتلقي هو العمدة في باب القراءة والقرآن.

ثم إن الصحابة رضي الله عنه قد اختلفوا أخذهم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمنهم من قرأ بحرف، ومنهم من أخذه عنه بحروفين، ومنهم من زاد، ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذه الحال.

وكان عثمان رضي الله عنه حين بعث المصاحف إلى الأفاق، أرسل مع كل مصحف من يوافق قراءته في الأكثر غالب، وعند تفرق الصحابة في البلدان مع اختلافهم في القراءات نقل ذلك عنهم التابعون ومن تبعهم، واختلف بسبب ذلك أخذ التابعين حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القراء المشهورين، الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها، ويعنون بها، وينشرونها. هذا منشأ علم القراءات واحتلافها، وإن كان هذا الاختلاف يرجع في الواقع إلى أمور يسيرة بالنسبة لوضع الاتفاق الكثيرة كما هو معلوم، وهذا الاختلاف في حدود الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم كلها من عند الله.

ويحسن في هذا المقام أن ننقل ما كتبه الشيخ الرّرقاني في كتابه "مناهل العرفان"، وقد نقله من كتاب لنويري مخطوط بدار الكتب المصرية وضعه شرحا للطيبة في القراءات، قال:

"والاعتماد في نقل القرآن على الحفاظ، ولذلك أرسل - أي عثمان رضي الله عنه - كل مصحف مع من يوافق قراءته في الأكثر، وليس بلازم. وقرأ كل مصر بما في مصحفهم، وتلقوا ما فيه من الصحابة الذين تلقوه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم تجرد للأخذ عن هؤلاء قوم أسرروا ليتهم في ضبطها، وأتبعوا هارهم في نقلها، حتى صاروا في ذلك أئمة للاقتداء، وأنجما للاهتداء، وأجمع أهل بلدهم على قبول قراءهم، ولم يختلف عليهم أثنان في صحة روایتهم ودرایتهم، ولتصديّهم للقراءة نسبت إليهم، وكان المعول فيها عليهم.

"ثم إن القراء بعد هؤلاء كثروا، وفي البلاد انتشروا، وخلفهم أممٌ بعد أممٍ، وعرفت طبقاتهم،

واختلفت صفاتهم، فكان منهم المتقن للتلاوة المشهورة بالرواية والدرائية، ومنهم المحصل لوصف واحد، ومنهم المحصل لأكثر من واحد، فكثير بينهم لذلك الاختلاف، وقلّ منهم الاختلاف. فقام عند ذلك جهابذة الأئمة، وصناديد الأمة، فبالغوا في الاجتهاد بقدر الحاصل، وميزوا بين الصحيح والباطل، وجعوا الحروف والقراءات، وعززوا الأوجه والروايات، وبينوا الصحيح والشاذ، والكثير والفاذ بأصول أصولها وأركان فصلوها... إلخ^(١).

عدد القراءات وأنواعها:

ذكر صاحب كتاب "الإتقان" أن القراءات متواترة، ومشهورة، وآحاد، وشاذ، وموضوع، ومدرج. قال القاضي حلال الدين البليقيني: القراءة تنقسم إلى متواتر، وآحاد، وشاذ. فالمتواتر: القراءات السبع المشهورة^(٢).

والآحاد: قراءة الثلاثة التي هي تمام العشر، ويلحق بها قراءة الصحابة. والشاذ: قراءة التابعين، كالأعمش، ويحيى بن ثابت، وابن جبير، ونحوهم.

قال السيوطي: هذا الكلام فيه نظر، وأحسن من تكلم في هذا النوع إمام القراء في زمانه الشيخ أبو الحسن ابن الجوزي، قال في أول كتابه "النشر":

"كل قراءة وافتت العربية ولو بوجه، ووافت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردتها، ولا يحل إنكارها، بل هي السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة، أم عنمن هو أكبر منهم، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف".^(٣)

^(١) منهال العرفان: ٤٠٧/١.

^(٢) الإتقان: ٢٠٣/١.

^(٣) منهال العرفان: ٤٠٩/١، والإتقان: ٢٠٣/١.

قال صاحب الطيبة في ضابط قبول القراءات:

وكلُّ ما وافقَ وجَهَ النحوِ
وصحَّ إسناداً، هو القرآنُ
وحيثما يختلفُ ركنٌ أثبتَ
وكان للرَّسم احتمالاً يحوي
فهذه الثلاثة الأركان
شذوذَه لو أنه في السَّبعةِ

والقراءات: قيل: القراءات السبع، والقراءات العشر، والقراءات الأربع عشرة، وأحظى الجميع بالشهرة، وبناهه الشأن: القراءات السبع.

وتنسب هذه القراءات إلى الأئمة السبعة المعروفين، وهم: نافع، وعاصم، وحمزة، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعلي الكسائي رحمه الله.

والقراءات العشر، هذه السبعة وزيادة قراءة أبي جعفر، ويعقوب، وخلف.

والقراءات الأربع عشرة، بزيادة أربع على قراءات هؤلاء العشرة وهي قراءة الحسن البصري، وابن حميس، ويحيى اليزيدي، والشنبوذى.

أول من صنف في القراءات:

علم القراءات أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.

وأول من صنف في القراءات أمثال أبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي حاتم السجستاني، وأبي جعفر الطبرى، وإسماعيل القاضى.

متى اشتهرت قراءة السبعة؟

اشتهرت قراءة السبعة على رأس المائتين في الأمصار الإسلامية. فكان الناس في البصرة على قراءة أبي عمرو ويعقوب، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر، وبمكة على قراءة ابن كثير، وبالמדינה على قراءة نافع.

متى دونت القراءات؟

دونت في نهاية القرن الثالث ببغداد على يد الإمام ابن مجاهد أحمد بن موسى بن عباس، فجمع

قراءات هؤلاء السبعة، غير أنه أثبت اسم الكسائي، وحذف يعقوب.

طريقته:

كان آخذنا على نفسه ألا يروي إلا عنمن اشتهر بالضبط والأمانة، وطول العمر في ملازمة القراءة، واتفاق الآراء على الأخذ عنه والتلقى منه.

واقتصر ابن مجاهد على هؤلاء السبعة، ليس بحاصر للقراء فيهم، ولا ملزم أحداً أن يقف عند حدود قراءتهم.

القراء السبعة المشهورون:

القراءات المتواترة نقلت لنا عن القراء الحفظة، المشهورين بالحفظ والضبط والإتقان، وهم أئمة القراءات المشهورة، الذين نقلوا لنا قراءة الصحابة عن رسول الله ﷺ، وكان لهم فضل العلم والتعليم لكتاب الله العظيم، كما قال صلوات الله وسلامه عليه: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"، وقد جمع الشيخ أبو اليسر عابدين هؤلاء القراء في بيتين من الشعر فقال:

فนาفع، وابن كثير، عاصم وحمزة، ثم أبو عمرو هو
مع ابن عامر أتى الكسائي أئمة السبع بلا امتراء

القراء السبعة:

١ - ابن عامر:

اسمه عبد الله اليحصبي، قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك، ويكنى أبا عمران، وهو تابعي، وقد أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي، عن عثمان بن عفان، عن رسول الله ﷺ، توفي بدمشق سنة ثمانين عشر ومائة وقد اشتهر برواية قراءته هشام، وابن ذكوان.

قال فيهم صاحب الشاطبية:

وما دمشق الشام دار ابن عامر فتلk بعد الله طابت محلها
هشام وعبد الله وهو اتسابه لذكوان بالإسناد عنه نقا

٢ - ابن كثير:

هو أبو محمد عبد الله بن كثير الداري المكي، كان إمام الناس في القراءة بمكة، وهو تابعي، لقي من الصحابة عبد الله بن الزبير، وأبا أيوب الأنصاري، وأنس بن مالك، وتوفي بمكة سنة مائة وعشرين.

وراويات البزي (ت ٢٥٠ هـ) وقبل (ت ٢٩١ هـ).

قال فيهم صاحب الشاطبية:

ومكة عبد الله فيها مقامه هو ابن كثير كاثر القوم مُعتلا
روى أحمد البزي له محمد على سند وهو الملقب قبلا

٣ - عاصم الكوفي:

هو عاصم بن أبي النجود الأسدية، ويقال له: ابن بدلة، ويكنى أبو بكر، وهو تابعي، توفي بالكوفة سنة ١٢٧ أو ١٢٨، وروياته شعبة (ت ١٩٣ هـ) وحفص (ت ١٨٠ هـ).

يقول فيهم صاحب الشاطبية:

أذاعوا فقد ضاعت شذى وقرنفلا	وبالكوفة الغراء منهم ثلاثة
فسعية راويه الميز أفضلا	فاما أبو بكر وعاصم اسمه
وذاك ابن عياش أبو بكر الرضا	وذاك ابن عياش أبو بكر الرضا

٤ - أبو عمرو:

هو أبو عمرو زيان بن العلام بن عمار البصري، شيخ الرواة، وقيل: اسمه يحيى، وقيل: اسمه كيته، توفي بالكوفة سنة أربع وخمسين مائة، وروياته الدوري (ت ٢٤٦ هـ) والسوسي (ت ٢٦١ هـ).

قال صاحب الشاطبية:

أبو عمرو البصري فوالده العلا
فأصبح بالعذب الفرات معللا
شعيّب هو السوسي عنه نقلًا
وأما الإمام المازني صريحهم
أفاض على يحيى اليزيدي سبيه
أبو عمرو الدوري وصالحهم أبو

٥ - حمزة الكوفي:

هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات الفرضي التيمي، مولى عكرمة بن ربيع التيمي، ويُكَنِّي
أبا عمارة، توفي بحلوان في حلافة أبي جعفر المنصور سنة ١٥٦هـ، وراوياه خلف
(ت ٢٢٩هـ) وخلاق (ت ٢٠٢هـ) بواسطة سليم.

قال صاحب الشاطبية:

وحْمَزَةُ مَا أَرْكَاهُ مِنْ مَتَوْرَعٍ إِماماً صَبُوراً لِلْقُرْآنِ مُرْتَلَا
رُوِيَ خَلْفُّهُ عَنْهُ وَخَلَادُ الدِّيْ رُوَا سَلِيمٌ مُتَقْنًا وَمُحَصَّلًا

٦ - نافع:

هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم اللثي، أصله من أصفهان، وانتهت إليه رئاسة الإقراء
بالمدينة المنورة، وتوفي بها سنة ١٦٩هـ، وراوياه قالون^(١) (ت ٢٢٠هـ) وورش (ت ١٩٧هـ).

يقول صاحب الشاطبية:

فَأَمَّا الْكَرِيمُ السُّرُّ فِي الطَّيْبِ نَافِعٌ
وَقَالُونُ عِيسَىٰ، ثُمَّ عُثْمَانُ وَرَشْهُمْ
فَذَاكُ الَّذِي اخْتَارَ الْمَدِينَةَ مُنْزَلًا
بِصَحْبَةِ الْمَحْدُ الرَّفِيعِ تَائِلًا

٧ - الكسائي:

هو علي بن حمزة إمام النحاة الكوفيين، ويُكَنِّي أبا الحسن، وقيل له: الكسائي؛ لأنَّه كان في الإحرام

^(١) معناه: الجيد في أصل وضعها، ورش: لشدة بياضه.

لابساً كساء، توفي بـ "برنبوية" قرية من قرى الريّ، حين توجه إلى خراسان مع الرشيد سنة ١٨٩، وراوياه أبو الحارث (ت ٢٤٢ هـ) والدوري (ت ٢٤٦ هـ).

يقول صاحب الشاطبية:

وأما علي فالكسائي نعته لما كان في الإحرام فيه تسربلا
روى ليشهم عنه أبو الحارث الرضا وحفص هو الدوري وفي الذكر قد خلا

* * * *

الفصل الخامس:

النسخ في القرآن الكريم وحكمته التشريعية

جاءت الشريعة الإسلامية الغراء، محققة لمصالح الناس، متماشية مع تطور الزمن، صالحة لكل زمان ومكان، وكان من رحمة الله تبارك وتعالى بعياده أن سنّ لهم سنة "الدرج في الأحكام"؛ لتبقى النفوس على أتم الاستعداد؛ لتقابل تلك التكاليف الشرعية برضى وقناعة وطمأنينة، فلا تشعر بعمل أو ضجر، ولا تشعر بمشقة أو شدة، ولتظل الشريعة الغراء - كما أرادها المولى جل وعلا - شريعة سهلة، يسيرة، لا عسر فيها ولا تعقيد، ولا شطط فيها ولا إرهاق، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وقوله جل شأنه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةٌ أَبِيسْكُمْ إِبْرَاهِيمَ...﴾ (الحج: ٧٨) الآية.

ومن المعلوم أن الأحكام ما شرعت إلا لمصلحة العباد، وهذه المصلحة تختلف باختلاف الزمان والمكان، فإذا شرع حكم في وقت من الأوقات، وكانت الحاجة ملحة إليه، ثم زالت تلك الحاجة، فمن الحكمة نسخه وتبدلاته بحكم يوافق الوقت الآخر، فيكون هذا التبدل والتغيير محققاً للمصلحة، مؤدياً للغاية، نافعاً للعباد، وما مثل ذلك إلا كمثل الطيب، الذي يغير الأغذية والأدوية للمربيض باختلاف الأمزجة والقابلية والاستعداد.

والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، هم "أطباء القلوب"، ومصلحو النفوس؛ لذلك جاءت شرائعهم مختلفة، تبعاً لاختلاف الأزمنة والأمكنة، وجاءت سنة "الدرج في الأحكام"؛ لأنها بمثابة الأدوية والعقاقير^(١) للأبدان، مما يكون منها في وقت مصلحة، قد يصبح في وقت آخر مفسدة، وما يصلح لأمة لا يصلح لأخرى، وتلك هي حكمة العليم الحكيم، الذي شرع لكل زمان ما يصلح له.

^(١) العقاقير جمع عاقر: أصل الدواء.

كلمة لطيفة في النسخ للقاسمي:

وجاء في التفسير المسمى "محاسن التأويل" للشيخ جمال الدين القاسمي، كلمة بدعة نقلها هنا
لجماحتها، يقول الشيخ رحمه الله:

"إن الخالق تبارك وتعالى رَبِّ الأمة العربية في ثلاَث وعشرين سنة تربية تدريجية، لا تتمّ لغيرها
- بواسطة الفواعل الاجتماعية - إلا في قرون عديدة، لذلك كانت عليها الأحكام على حسب
قابليتها، وممّا ارتفقت قابليتها بـبَدَلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْحُكْمَ بِغَيْرِهِ، وهذه سنة الخالق في الأفراد والأمم على
حد سواء، فإنك لو نظرت في الكائنات الحية، لرأيت أن النسخ ناموس طبيعي محسوس في الأمور
المادية والأدبية معاً، فإن انتقال الخلية الإنسانية إلى جنين، ثم إلى طفل، فيافع، فشاب، فكهل،
فشيخ، وما يتبع كلّ دور من هذه الأدوار، يريك بأجلٍ دليلاً: أن التبدل في الكائنات ناموس
طبيعي محقق، وإذا كان هذا النسخ ليس بمستنصر في الكائنات، فكيف يستنصر نسخ حكم وإبداله
بحكم آخر في الأمة، وهي في حالة نمو ودرج من أدنى إلى أرقى؟"

هل يرى إنسان له مسكة من عقل أن من الحكمة تكليف العرب - وهم في مبدأ أمرهم -
بما يلزم أن يتصرفوا به، وهم في نهاية الرقي الإنساني، وغاية الكمال البشري؟ وإذا كان هذا
لا يقول به عاقل في الوجود، فكيف يجوز على الله - وهو أحكم الحاكمين - بأن يكلف
الأمة وهي في دور "طفوليتها" بما لا تتحمله إلا في دور "شموليتها" و"كهولتها"...؟
وأي الأمرين أفضل؟ أشرعنا الذي سنّ الله لنا حدوده بنفسه، ونسخ منه ما أراد بعلمه، وأتممه
بحيث لا يستطيع الإنس والجن أن ينقصوا حرفاً منه؛ لأنطباقه على كل زمان ومكان، وعدم
مجافاته لأية حالة من حالات الإنسان؟ أم شرائع دينية أخرى، حرّفها كُهانها، ونسخ الوجود
أحكامها - بحيث يستحيل العمل بها - ؟ لمنافاتها لمقتضيات الحياة البشرية من كل وجه...؟^(١)

^(١) انظر "محاسن التأويل" للشيخ جمال الدين القاسمي: ٢١٩/٢.

تعريف النسخ لغة واصطلاحاً:

النسخ لغة: يأتي بمعنى الإزالة، تقول العرب: نسخت الشمس الظل - أي: أزالته -، ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ (الحج: ٥٢) أي: يزيله ويبطله، ويأتي بمعنى النقل من موضع إلى موضع، ومنه قوله: نسخت الكتاب، أي: نقلت ما فيه إلى كتاب آخر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُتُبْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٢٩) ويأتي بمعنى التبديل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةً﴾ (النحل: ١٠١)، وبمعنى التحويل، ومنه تناصح المواريث من واحد إلى واحد، هذا من حيث اللغة.

وأما في الشرع: فهو انتهاء الحكم وتبديله بحكم آخر، وقد عرّفه الفقهاء والأصوليون بتعريفات كثيرة اختار منها أخصرها وأجمعها، وهو ما قاله ابن الحاجب حيث قال في تعريفه للنسخ: "النسخ هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر". قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٠٦).

أسباب النزول لآية النسخ:

روي أن اليهود قالوا لبعضهم البعض: ألا تعجبون من أمر محمد؟ يأمر أصحابه بأمر، ثم ينهiam عنده ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً، ويرجع عنه غداً، فما هذا القرآن إلا من كلام محمد، يقوله من تلقاء نفسه، ويناقض بعضه بعضاً؟ فنزلت الآية الكريمة رداً على سفههم وجهلهم، بقوله - تقدست أسماؤه - : ﴿مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾^(١). ومعنى ﴿نُنسِهَا﴾: هو ما قاله ترجمان القرآن ابن عباس: أي تركها فلا نبدلها، ولا ننسخها. وقيل: هو من النسيان بمعنى الترك، أي: تركها بدون تبديل.

^(١) انظر روح المعاني للألوسي: ٣٥٢/١. وتفسير الكشاف: ١٣١/١.

هل النسخ واقع في الشرائع السماوية؟

النسخ في الشريعة الإسلامية جائز عقلاً، حادث سمعاً، وهو واقع بإجماع المسلمين، خلافاً لليهود، فإنهم أنكروا وقوعه، وقالوا: لم يحدث نسخ في الشرائع؛ لأنَّه يدلُّ على الجهل، والله مُنْزَهٌ عن ذلك، ووافقتهم على هذا القول "أبو مسلم الأصفهاني"، فقال: إن النسخ في كتاب الله تعالى لم يحصل؛ لأنَّ الله تعالى قال عن القرآن العظيم: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ يَمِينِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢)، فلو جاز النسخ لكان قد أتاه الباطل.

واحتاج جمهور العلماء على جواز النسخ ووقوعه بأن الدلائل القطعية دلت على نبوة محمد ﷺ، ونبوته عليه السلام لا تصح إلا مع القول بنسخ شرع من قبله، وهذا دليل عقلي. وأما الواقع فقد قالوا: إن النسخ قد حصل في الشرائع السابقة، وفي نفس شريعة اليهود، فإنه جاء في التوراة أن آدم عليه السلام أمر بتزويع بناته من بنيه، ثم قد حرم ذلك باتفاق.^(١)

أدلة الجمهور:

استدل الجمهور على وقوع النسخ بحجج كثيرة، نوجزها فيما يلي:

الحججة الأولى: أن الله تعالى قد صرَّح به في الآية الكريمة، وهي قوله سبحانه: ﴿مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ (البقرة: ١٠٦)، قالوا: فهذه الآية صريحة في وقوع النسخ.

الحججة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةً وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدْسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ (التحريم: ١٠٢، ١٠١)، قالوا: إن هذه الآية واضحة كلَّ الوضوح في تبديل الآيات والأحكام، والتبدل: يشتمل على رفع حكم وإثبات آخر، والمرفوع إما التلاوة وإما الحكم، وكيفما كان الأمر، فإنه رفع ونسخ، وهو ما دلت عليه الآية الكريمة.

^(١) انظر "التفسير الكبير" للإمام الفخر الرازى: ٣/٢٢٧.

الحججة الثالثة: نسخ القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، وهو ظاهر لا يجادل فيه عاقل، فقد كان المسلمين يتوجهون في صلاهم في بدء الدعوة الإسلامية إلى بيت المقدس، ثم نسخ ذلك الحكم، وأمر النبي ﷺ المسلمين بالتوجه إلى البيت العتيق في مكة المكرمة بقوله تباركت أسماؤه: ﴿فَقَدْ نَرَى تَقْلِبَ وَجْهَكُمْ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْنَا قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلَّ وَجْهَكُمْ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُتُّمْ فَوَلُوا وَجْهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة: ١٤٤).

وأخبر تبارك وتعالى بما سيقوله المنافقون، وأهل الكتاب من الطعن في القرآن وفي النبي ﷺ بسبب تركهم التوجه إلى بيت المقدس وصلاهم نحو البيت الحرام، فقال جلت عظمته: ﴿سَيَقُولُ الْسُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَأْهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: ١٤٢).

الحججة الرابعة: أن الله تعالى أمر المتوف عنها زوجها بالاعتداد أربعة أشهر وعشرة أيام، بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصُنَّ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة: ٢٣٤) الآية.

وقد نسخت هذه الآية الحكم السابق وهو أن عدة المتوف عنها زوجها حول كامل بقوله سبحانه: ﴿وَصَيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ (البقرة: ٢٤٠)، وهذا أمر معلوم عند كل مسلم بأن حكم الاعتداد للوفاة بعام كامل قد نسخ إلى أربعة أشهر وعشرة أيام.

وهكذا يظهر دليل الجمهور واضحًا ساطعا كالشمس في رابعة النهار، بحصول النسخ في الشريعة الإسلامية الغراء، ولا عبرة بقول من أنكر النسخ لعارضته للنصوص الصحيحه الصريحة.

كلام الإمام القرطبي في جامع الأحكام:

قال العلامة القرطبي في تفسيره: "معرفة هذا الباب أكيدة، وفائدة عظيمة، لا يستغني عن معرفته العلماء، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء؛ لما يترتب عليه النوازل من الأحكام، ومعرفة الحال والحرام، وقد أنكرت طوائف من المتأخرین، المنتمن للإسلام جوازه، وهم محجوبون

يأجحاج السلف على وقوعه في الشريعة...، ثم قال ﷺ: لا خلاف بين العلماء أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية، وإنما كان يلزم البداء – أي ظهور الحكمة بعد خفائها – من لم يكن عالماً بحال الأمور، وأما العالم بذلك فإنما تتبدل خطاباته بحسب تبدل المصالح، كالطبيب المراعي أحوال العليل، فراعي ذلك في خلائقه بمشيته وإرادته، لا إله إلا هو، فخطابه يتبدل، وعلمه وإرادته لا تتغير، فإن ذلك محال في جهة الله تعالى".^(١)

أقسام النسخ في القرآن الكريم:

ينقسم النسخ إلى ثلاثة أقسام:

الأول: نسخ التلاوة والحكم معاً.

الثاني: نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

الثالث: نسخ الحكم مع بقاء التلاوة.

أما الأول: وهو: "نسخ التلاوة والحكم"، فلا يجوز قراءته ولا العمل به؛ لأنه قد نسخ بالكلية، كآية التحرير عشر رضعات، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما نزل من القرآن "عشر رضعات معلومات يحرّمن" ، فنسخن بخمس رضعات معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ، وهن فيما يقرأ من القرآن.^(٢)

قال الفخر: فالجزء الأول منسوخ الحكم والتلاوة، والجزء الثاني وهو الخامس منسوخ التلاوة، باقي الحكم عند الشافعية.

^(١) انظر "جامع الأحكام" للإمام القرطبي: ٥٧/٢، وللشيخ زكريا يوسف كتاب سماه: "الإيمان وآثاره"، ذكر فيه فصلاً طويلاً رد فيه على المحدثين الذين أنكروا النسخ في القرآن بغير دليل ولا برهان.

^(٢) الحديث أخرجه مسلم في الرضاع برقم: ١٤٥٢، وأبو داود، والترمذى، والنمسائى، ومعناه: أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله، حتى توفي رسول الله وبعض الناس يقرؤه؛ لأنه لم يبلغه النسخ لقرب عهده.

وأما الثاني: وهو نسخ التلاوة وبقاء الحكم، فهو كما قال الزركشي في "البرهان في علوم القرآن": يعمل به إذا تلقته الأمة بالقبول، كما روي في سورة النور "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البينة نكالا من الله، والله عزيز حكيم"، قال عمر رضي الله عنه: "ولولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي".^(١)

وأنخر ابن حبان في صحيحه عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قال: "كانت سورة الأحزاب توازي سورة النور - يعني في الطول -، ثم نسخت آيات منها".

وهذا النوعان "نسخ الحكم والتلاوة" و"نسخ التلاوة مع بقاء الحكم" قليل جدا في القرآن الكريم، ونادر أن نجد فيه مثل هذا النوع؛ لأن الله سبحانه أنزل كتابه المجيد؛ ليتعبد الناس بتلاوته وبنطبيق أحكماته.

وأما الثالث: وهو "نسخ الحكم مع بقاء التلاوة"، فهو كثير في القرآن الكريم، وهو كما قال الزركشي: في ثلات وستين سورة، ومن أمثلة هذا النوع آية الوصية للوالدين نسخت بأية المواريث، وآية العدة بحول كامل نسخت بأية العدة بأربعة أشهر وعشرة أيام، وآية الفدية في الصوم للقادر نسخت بأية وجوب الصوم، وتقدم الصدقة عند مناجاة الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه، والكف عن قتال المشركين، كل ذلك نسخ بأيات في القرآن الكريم واضحات الدلالة والحكم.

وقد ألف الشيخ هبة الله بن سلامة رسالة في "الناسخ والمنسوخ" جاء فيها ما نصه: "اعلم أن أول النسخ في الشريعة: أمر الصلاة، ثم أمر القبلة، ثم الصيام ليوم عاشوراء، ثم الإعراض عن المشركين، ثم الأمر بجهادهم، ثم أمره بقتل المشركين، ثم أمره بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، ثم ما كان أهل العقود عليه من المواريث، ثم هدم منار الجاهلية؛ إلا يخالفوا المسلمين في حجتهم..." إلى آخر ذلك.

^(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه.

الحكمة من نسخ الحكم مع بقاء التلاوة؟

أما الحكمة من ذلك، فقد بيّنها العلامة الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن"، فقال: "وهنا سؤال، وهو أن يسأل: ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟ والجواب من وجهين: أحدهما: أن القرآن كما يتلى؛ ليعرف الحكم منه، والعمل به، فإنه كذلك يتلى؛ لكونه كلام الله عزوجل، فيثاب على تلاوته، فترك التلاوة لهذه الحكمة. وثانيها: أن النسخ غالباً يكون للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكيراً بالنعمـة، ورفع المشقة، حتى يتذكر المسلم نعمة الله عليه بتيسير الدين".^(١)

هل ينسخ القرآن بالسنة النبوية المطهرة؟

اتفق العلماء على أن القرآن ينسخ بالقرآن، وأن السنة النبوية تنسخ بالسنة، والخبر المتواتر ينسخ بمثله، ولكنهم اختلفوا في مسألة، وهي هل ينسخ القرآن بالسنة؟ والخبر المتواتر بغير المتواتر؟ فذهب الشافعي حَدَّثَنَا إِنَّ النَّاسَخَ لِلْقُرْآنِ، لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ قُرْآنًا مِثْلَهُ، فَلَا يُحَجِّزُ عَنْهُ نَسْخَ الْقُرْآنِ بِالسَّنَةِ النَّبُوَيَّةِ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتِ فِي دَرْجَةِ الْقُرْآنِ. إلى أن الناسخ للقرآن، لا بد أن يكون قرآناً مثلك، فلا يجوز عنده نسخ القرآن بالسنة النبوية؛ لأنها ليست في درجة القرآن.

وذهب الجمهور إلى جواز نسخ القرآن بالقرآن، وبالسنة المطهرة أيضاً؛ لأن الكل حكم الله تعالى ومن عنده، والكل بوحي من الله عزوجل: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهُوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ مُّوحَى﴾ (النجم: ٤٣)، وحجة الجمهور ما ورد من نسخ آية الوصية بحديث: "إِنَّ اللَّهَ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقًّا، أَلَا لَا وَصِيَةَ لَوَارِثٍ".

ونسخ جلد الرانى الحصن في الآية الكريمة: ﴿الْزَّانِيُّ وَالْزَّانِي فَاجْلِدُوْا كُلَّهُ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢) حيث نسخ الجلد بالرجم، فقد رجم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماعزاً والغامدية، ولم يجعل واحداً منهمما، فدل على أن الحكم وهو الجلد نسخ بالسنة المطهرة، وهذا القول هو الأشهر والأظاهر،^(٢) والله أعلم.

^(١) انظر كتاب "البرهان في علوم القرآن" للإمام الزركشي.

^(٢) انظر أدلة الفريقيـن مفصلة في كتابنا "روائع البيان" في تفسير آيات الأحكـام من القرآن ١٠٦/١.

هل يقع النسخ في الأخبار؟

جمهور العلماء على أن النسخ مختص بالأحكام، بالأوامر والنواهي، والخبر لا يدخله النسخ؛ لاستحالة الكذب في خبر الله تبارك وتعالى.

وقيل: إن الخبر إذا تضمن حكما شرعاً جاز نسخه، كقوله تعالى: **﴿وَمِنْ تَمَرَاتِ التَّنْجِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَخَذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾** (الحل: ٦٧)، فهذا خبر عن الخمر الذي يخرج من التمر والعنب، وقد نسخه الله عز وجل بأية تحريم الخمر: **﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** (المائد: ٩٠).

يقول شيخ المفسرين ابن جرير الطبّري رحمه الله في تفسيره "جامع البيان" ما نصه: **﴿مَا نَسْخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾** (البقرة: ١٠٦)، أي: ما نقل من حكم آية إلى غيره، فبدلها ونغيره، وذلك أن يحول الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والماح محظوراً، والمحظور مباحاً... ثم قال: ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي، والتحظر والإطلاق، والمنع والإباحة، فاما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ".^(١)

هذه لمحة خاطفة عن النسخ في الشريعة الإسلامية، وفي القرآن والسنة النبوية، ينبغي أن يلم بها طالب العلم، وأن يعرف حكمة الله عز وجل في تشريع الأحكام، وإنزال الآيات على هذا الوجه الدقيق، الذي حقق مصالح العباد، وساير تطور الزمن بواسطة الناسخ والمنسوخ، أو جزئاه في هذه العجالة **﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾** (الأحزاب: ٤).

* * *

^(١) انظر تفسير "جامع البيان" للطبرى: ٤٠٧/١

الفصل السادس:

جمع القرآن الكريم

جمع القرآن في عهد النبوة:

جمع القرآن الكريم في عهدين: عهد النبوة، وعهد الخلفاء الراشدين، وقد كان لكل جمع خصائصه ومزاياه. وكلمة "جمع" تطلق أحياناً ويراد منها الحفظ والاستظهار في صدور الرجال، وتطلق تارة ويراد منها الكتابة والتسجيل في الصحف والأوراق.

وقد كان بجمع القرآن في عصر النبوة الأمران معاً:

أولاً: الجمع في الصدور عن طريق الحفظ والاستظهار.

ثانياً: الجمع في السطور عن طريق الكتابة والنقش.

وستتحدث عن كلا الجمدين بشيء من التفصيل؛ ليتبين لنا العناية الفائقة بالقرآن العظيم وكتابته وتدوينه، مما لم يسبق لكتاب سماوي أن نال من الرعاية والعناية والاهتمام كما ناله القرآن الكريم، كتاب الله المجيد، ومعجزة محمد الخالدة.

جمع القرآن في الصدور:

نزل القرآن الكريم على النبي الأمي، فكانت همته منصرفه إلى حفظه واستظهاره؛ ليحفظه كما نزل عليه، ثم يقرأه على الناس على مكث؛ ليحفظوه ويستظهروه ضرورة أنه نبي أمي، بعثه الله إلى العرب الأميين^(١): *هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ* (ال الجمعة: ٢) الآية.

ومن شأن الأمي - في العادة - أن يعتمد على حافظته وذاكرته؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب، ولقد كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن، تتمتع بخصائص العروبة الكاملة التي فيها قوة الذاكرة،

^(١) انظر "مناهل العرفان" للزرقاني.

وسرعة الحفظ، وسائل الأذهان. وكان العربي يحفظ مئات الآلاف من الأشعار، ويعرف الأحساب والأنساب، فيستظهرها عن ظهر قلب، ويعرف التواريχ، وقل أن تجد منهم من لا يعد لك الحسب والنسب، أو من لا يحفظ "المعلقات العشر" على كثرة أشعارها، وصعوبة حفظها. ثم جاءهم القرآن الكريم، فبهرهم بقوّة بيانه، وروعة أحكامه، وجلال سلطانه، فأخذ عليهم مشاعرهم، واستحوذ على عقولهم وأفكارهم، حتى صرف همهم إلى الكتاب المجيد، فيما وجوههم نحوه، يحفظونه ويستظهرون آياته وسوره، وتركوا الشعر؛ لأنهم وجدوا في القرآن روح الحياة.

أما النبي ﷺ فقد بلغ من حرصه الشديد على حفظ القرآن: أن يحيي الليل بتلاوة آيات القرآن في الصلاة، عبادةً وتلاوةً وتدبراً لمعانيه، حتى تفطرت قدماء الشريفتان من كثرة القيام امتثالاً لأمر الله العلي الكبير: **﴿هُنَّا أَيَّهَا الْمُزَمِّلُونَ, قُمُّ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا, إِنْصُفْهُ أَوْ انْقُصْهُ مِنْهُ قَلِيلًا, أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَكِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾** (المرمل: ٤-١) لذلك فلا عجب أن يكون ﷺ سيد الحفاظ، وأن يجمع القرآن في قلبه الشريف، ويكون مرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن العظيم.

وأما الصحابة رضي الله عنه فقد كانوا يتسابقون إلى تلاوة القرآن ومدارسته، وينذلون قصارى جهدهم لاستظهاره وحفظه، ويعلمونه أزواجهم وأولادهم في البيوت، حتى لقد كان الذي يمر بيبيوت الصحابة في غسق الدّجى، يسمع فيها دويّاً كدوبي النحل بالقرآن، حتى كان صلوات الله عليه يمر على بعض دور الأنصار، فيقف على بعضهم يستمع القرآن في ظلام الليل.

أخرج البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال له: "لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك، لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود". وزاد في رواية لمسلم: فقلت: "لو علمت والله يا رسول الله! أنك تستمع لقراءتي لحبرتَه لك تحيراً".^(١)

وورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون

^(١) حبّر أي زينه (المعجم الوسيط: ١٥١).

بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالليل بالقرآن، وإن كنت لم أر منازلهم بالنهار" (رواية الشيخان). وقد اشتهر كثير من الصحابة بحفظ القرآن الكريم، وكان الرسول ﷺ يذكي فيهم روح العناية بحفظ القرآن، ويعث إلى المدن والقرى من يعلمهم ويقرئهم، كما بعث قبل الهجرة مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة، يعلماهم الإسلام، ويقرئاهم القرآن، وكما بعث معاذ بن جبل إلى مكة للتحفيظ والتعليم بعد هجرته ﷺ.

قال عبادة بن الصامت: "كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل من يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ صحة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله أن يخضوا أصواتهم؛ لئلا يتغالطوا".

ومن هنا كان حفاظ القرآن في حياة الرسول ﷺ لا يحصون، ويكتفى أن نعلم أن عدد الذين استشهدوا في "معركة اليمامة" يزيد عددهم على سبعين من كبار الحفاظ، كما قُتل مثل هذا العدد في عهد الرسول ببشر معونة. قال القرطي: قتل يوم اليمامة سبعون من القراء، وقتل في عهد رسول الله ببشر معونة مثل هذا العدد. أي أن عدد الذين استشهدوا من الحفظة ١٤٠.

ولقد كانت أشرف خصوصية لهذه الأمة المحمدية أن يكون هذا الكتاب المقدس محفوظاً في صدورها، وأن تعتمد في نقله على حفظ القلوب والصدور، لا على كتابته في المصاحف والسطور فحسب، بخلاف أهل الكتاب الذين لا يجد منهم من يحفظ التوراة أو الإنجيل، وإنما يعتمدون في حفظهما على الكتب المسطرة، ولا يقرؤونه إلا نظراً، لا عن ظهر قلب، ولهذا دخل إليهما التحرير والتبديل.

أما القرآن الكريم فقد حفظه الله تعالى بعنايته الإلهية، فيسره للحفظ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهُنَّ مِنْ مُذَكَّرِي﴾ (القمر: ١٧)، وصانه من التحرير والتبديل بطريق حفظه في السطور، وحفظه في الصدور مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، وهذا بلا شك عنابة من الله خاصة بهذا القرآن المجيد، وشرف عظيم احتضن الله به هذه الأمة المحمدية حيث

جعل أناجيلها في صدورها، وأنزل عليها كتابا لا يغسله الماء، والله در القائل:

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلاً
طلع الصباح فأطافاً القنديلاً لا تذكر الكتب السوالفُ عنده

جمع القرآن في السطور:

وأما المزية الثانية لهذا القرآن العظيم، فهو جمعه وكتابته في الصحف، فقد كان لرسول الله ﷺ كتاب للوحى، كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته، مبالغة في تسجيله وتقييده، وزيادة في التوثق والضبط، والاحتياط الشديد في كتاب الله عز وجل حتى تظاهر الكتابة الحفظ، ويعاضد التسجيل المسطور ما أودعه الله في الصدور.

وكان هؤلاء الكتاب من خيرة الصحابة، اختارهم رسول الله ﷺ من المجيدين المتقيين؛ ليتولوا هذه المهمة العظيمة، وقد اشتهر منهم "زيد بن ثابت، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، ومعاوية ابن أبي سفيان، والخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم".

روى الشیخان عن أنس رضي الله عنه أنه قال: "جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن ثابت، وأبو زيد رضي الله عنه، قيل لأنس: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومي".

وهو لاء هم مشاهير كتاب الوحي، وإن فهناك من الصحابة الجماع الكبير الذين كانوا يكتبون القرآن، وكثير منهم كان له مصحف خاص كتب فيه ما سمعه أو حفظه من رسول الله ﷺ، كمصحف ابن مسعود، ومصحف علي، ومصحف عائشة، وغيرهم.

طريقة الكتابة:

وأما طريقة الكتابة: فقد كانوا يكتبون القرآن على العسب واللخاف والرقاع،^(١) وعظام

^(١) العسب: جمع عسيب، وهو جريد النخل، كانوا يكشفون المخross، ويكتبون في الطرف العريض. اللخاف: جمع لخفة، بفتح اللام وسكون الخاء، وهي الحجارة الرقيقة. الرقاع: جمع رقعة، وهي قد تكون من جلد أو ورق، أو غيرها من أدوات الكتابة.

الأكتاف وغيرها. ذلك؛ لأن صنع الورق لم يكن مشتهرًا عند العرب، وقد كان عند بعض الأمم الآخرين كالفرس والروم، ولكنه كذلك كان نادراً، فلم يكن منتشرًا، فكان العرب يكتبون على ما يقع تحت أيديهم مما يصلح للكتابة.

روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: "كنا عند رسول الله صلوات الله عليه وسلم نوَلِفُ القرآن من الرقاع"، أي نجتمعه، وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي صلوات الله عليه وسلم وبأمر من الله تبارك وتعالى، ولهذا اتفق العلماء على أن جمع القرآن "توقيفي"، يعني: أن ترتيبه بهذه الطريقة التي نراها عليها اليوم في المصاحف إنما هو بأمر ووحي من الله، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان ينزل الآية أو الآيات على النبي، فيقول له: يا محمد! إن الله يأمرك أن تضعها على رأس كذا، من سورة كذا، وكذلك كان الرسول يقول للصحابة: ضعوها في موضع كذا.

جمع القرآن في عهد أبي بكر

انتقل رسول الله صلوات الله عليه وسلم إلى جوار الله بعد أن أدى الرسالة، وبلغ الأمانة، ونصح الأمة، وهدى الناس إلى دين الله القويم، وتولى الخلافة بعده "أبو بكر الصديق" رضي الله عنه وأرضاه، وقد واجهته - في خلافته - خطوب حسيمة، وشائد عظيمة، ومشاكل صعب، منها حروب الردة التي وقعت بين المسلمين وبين أتباع مسلمة الكذاب، وكانت معركة "اليماماة" معركة حامية الوطيس، وقد استشهد فيها كثير من قراء الصحابة ومن حفظة القرآن، يزيد عددهم على سبعين من كبار الحفاظ. وقد هال ذلك المسلمين، وعزّ الأمر على عمر رضي الله عنه، فدخل على أبي بكر، فوجده في حزن وألم، فأشار عليه أن يجمع القرآن خشية الضياع. بموت الحفاظ، فتردد أبو بكر أول الأمر، ثم رأى أن يأخذ بإشارة عمر بعد أن تبين له وجه المصلحة، وشرح الله صدره لذلك العمل الجليل، فأرسل إلى زيد بن ثابت، وعرض عليه الأمر، وطلب منه أن يقوم بجمع القرآن في مصحف واحد، ولكن زيداً تردد في بدئ الأمر، ثم شرح الله صدره للذى شرح له صدر أبي بكر وعمر،

وقد روى البخاري في صحيحه قصة هذا الجمع نقلها بنصها لأهميتها:

رواية البخاري:

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: "أُرسِلَ إِلَيْيَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه مُقْتَلُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ - أَيْ عَقْبَ اسْتِشْهَادِ الْحَفَاظِ السَّبْعِينِ فِي مَعرَكَةِ الْيَمَامَةِ - فَإِذَا عَمِرَ جَالِسٌ عَنْهُ، قَالَ أَبِي بَكْرٍ: إِنَّ عَمِرَ جَاعِنِي، فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحْرَرَ - أَيْ كَثُرَ وَاشْتَدَّ - يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَمِرَ الْقَتْلُ بِالْقِرَاءَةِ فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ، فَيَذَهِبُ مِنَ الْقُرْآنِ كَثِيرٌ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ، فَقَلَتْ: وَكَيْفَ أَفْعُلُ مَا لَمْ يَفْعُلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ? فَقَالَ عَمِرُ رضي الله عنه: هُوَ وَاللَّهُ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزِلْ يَرْاجِعُنِي فِي ذَلِكَ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ تَعَالَى صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ عَمِرٍ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَيْ.

قال زيد: فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، لا تفهمك، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتتبع القرآن واجمعه، قال زيد: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أشق عليّ مما أمرني به، فقلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ? فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتبعت القرآن أجمعه من اللخاف، والعسب، وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع "أبي خزيمة الأنصاري" لم أجدها عند أحد غيره هُلْقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ يُهْدِي إِلَيْهِ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (التوبة: ١٢٨، ١٢٩) أي إلى آخر السورة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله تعالى، ثم عند عمر حتى توفاه الله تعالى، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها (رواية البخاري). بهذه الرواية دلت على سبب جمع القرآن.

تساؤلات حول جمع القرآن؟

وهنا أسئلة ينبغي الإجابة عليها بشيء من التفصيل، ونخن نوجزها فيما يلي:

أولاً: لماذا تردد أبو بكر عن جمع القرآن مع أنه شيء حسن، وأمر يوجه الإسلام؟ والجواب عن ذلك: أن أبو بكر رضي الله عنه خشي أن يتسلل الناس في استظهار القرآن وحفظه غيّاً، ويعتمدو على وجوده في المصاحف، فتضعف نفوسهم عن الحفظ، وتتصبّع رغبتهم ضعيفة في حفظه واستظهاره اعتماداً على أنه مسطّر موجود في مصاحف مكتوبة يمكنهم قراءة القرآن بها. أما قبل أن توجد المصاحف، فقد كان الجميع يسعون جهدهم لحفظ القرآن، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى: فإن أبا بكر الصديق كان رجلاً وقافاً عند حدود الشرع، مقتفياً لآثار الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه، فقد خشي أن يكون بعمله هذا مبتداعاً شيئاً لا يحبه رسول الله، ولهذا قال لعمر: "كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟" ولعله كان يخاف أن يسوقه الإناء والاحتراز إلى الوقوع في المخالفه والابتداع، ولكنه لما رأى الأمر خطيراً، وال فكرة - في حد ذاتها - وسيلة من أعظم الوسائل لحفظ الكتاب الشريف، والمحافظة عليه من الضياع والتحريف، وأيقن أنها ليست من الأمور الخارجيه، ولا من البدع المستحدثة، عزم على جمع القرآن، وظل يقنع زيداً بتلك حتى شرح الله صدره، فقام بتنفيذ ذلك الأمر الخطير، والله أعلم.

ثانياً: لماذا اختار أبو بكر زيد بن ثابت من بين الصحابة الكرام لهذا العمل الجليل؟ والجواب عن ذلك: أن زيداً رضي الله عنه قد اجتمع فيه من الموهب العظيمة التي تؤهله لجمع القرآن ما لم يجتمع في غيره من الرجال؛ إذ كان من حفاظ القرآن، ومن كتاب الوحي لرسول الله، وشهد "العرضة الأخيرة" للقرآن في ختام حياته صلوات الله عليه وآله وسلامه، وكان فوق ذلك معروفاً بشدة ورعيه، وعظيم أمانته، وكمال خلقه، واستقامة دينه، وكان معروفاً بالنيغ والذكاء، وهذا ما أشار إليه كلام أبي بكر في رواية البخاري حين استدعاه، وقال له: "إنك رجل شاب عاقل لا تفهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله".

فللهذه الخصائص والمزايا الحميدة، اختاره أبو بكر الصديق لجمع القرآن، وما يدل على شدة ورع زيد ابن ثابت أنه قال: "فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىٰ مما أمرني به". الحديث

ثالثاً: ما هو المقصود من قول زيد رضي الله عنه في رواية البخاري: "حتى وجدت آخر سورة التوبه مع أبي خزيمة رضي الله عنه لم أجدها عند غيره؟"

والجواب عن ذلك: أن زيداً رضي الله عنه لم يجد هذه الآيات مكتوبة عند أحد من الصحابة، إلا عند أبي خزيمة الأنصاري، وليس المراد أنها لم تكن محفوظة؛ إذ أن زيداً نفسه كان يحفظها، وكان كثير من الصحابة يحفظونها، ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة، كما سنبيه إن شاء الله زيادة في التوثق، ومبالغة في الاحتياط، وعلى ذلك النهج الرشيد تم جمع القرآن.

الخطة الرشيدة في جمع القرآن:

وقد انته杰 زيد بن ثابت رضي الله عنه في جمع القرآن خطوة رشيدة في غاية الدقة والإحكام، فيها ضمان لحياطة هذا الكتاب المجيد بما يليق به من ثبت بالغ، وحذر دقيق، فلم يكتف بما حفظ في قلبه ولا بما كتب بيده، ولا بما سمع بأذنه، بل جعل يتبع ويستقصي آخذاً نفسه أن يعتمد في جمع القرآن على مصدرين اثنين:

- أ- ما كان محفوظاً في صدور الرجال.
- ب- ما كتب بين يدي رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه.

فلا بد أن يتضافر الأمران "الحفظ، والكتابة"، وبلغ من شدة حرصه واحتياطه أنه كان لا يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدي رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه يدل عليه الحديث الذي رواه أبو داود في سنته قال: "قدم عمر، فقال: من كان تلقى من رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه شيئاً من القرآن، فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان".

ويدل عليه كذلك ما رواه أبو داود أيضاً أن أباً بكر رضي الله عنه قال لعمر ولزيد: "اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكمَا بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتبهما".

قال ابن حجر: المراد بالشاهدين: الحفظ، والكتابة. وقال السخاوي: المراد أهلهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، وذلك غاية في التثبت والدقة والإحكام من الصديق ﷺ، رسمه منهجاً لزيد بن ثابت ﷺ.

مزايا مصحف أبي بكر الصديق ﷺ:

امتازت الصحف التي جمعت في عهد أبي بكر الصديق في "مصحف واحد" بعدة مزايا، أهمها:
أولاً: التحرّي الدقيق التام، والتثبت الكامل.

ثانياً: لم يسجل في المصحف إلا ما ثبت عدم نسخ تلاوته.

ثالثاً: إجماع الأمة عليه، وتواتر ما سُجّل فيه من الآيات القرآنية.

رابعاً: شمول المصحف للقراءات يلهمون بالثناء العاطر على أبي بكر الصديق حيث حفظ القرآن الكريم من الضياع، وذلك بتوفيق من الله عزوجل، ومدد من عنده.

وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: "أعظم الناس في المصاحف أحرأ أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله".

ولقد أصبح جمع القرآن منقبة خالدة، لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل والثناء العاطر لأبي بكر في التوجيه والإشراف، ولزيد بن ثابت في التنفيذ والعمل ﷺ.

وجمع القرآن في مصحف واحد في عهد أبي بكر لا يعني أن الصحابة ﷺ لم يكن لديهم مصاحف كتبوا فيها القرآن من قبل، فإن ذلك لاينافي أن يكون بعض الصحابة مصحفاً خاصاً، ولكن هذه المصاحف لم تظفر بما ظفر به مصحف أبي بكر من دقة البحث والتحري، والاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته، ومن بلوغه حد التواتر، ومن إجماع الأمة عليه، ومن شموله للأحرف السبعة "القراءات السبع" كما تقدم.

فهذا على ﷺ كان له مصحف خاص كتبه في بدء خلافة أبي بكر، وعزم ألا يخرج إلا للصلة

حتى ينتهي من كتابته. روى السيوطي عن محمد بن سيرين عن عكرمة أنه قال: لما كان بداء خلافة أبي بكر، قعد علي بن أبي طالب في بيته، فقيل لأبي بكر: قد كره بيعتك، فأرسل إليه فقال: أكرهت بيعتي؟ فقال:رأيت كتاب الله يزداد فيه، فحدثت نفسي ألا ألبس ردائي إلا لصلة حتى أجمعه. قال له أبو بكر: فإنك نعم ما رأيت،^(١) فقد كان له مصحف، ولكنه كما يروى عن ابن سيرين كان فيه الناسخ والمنسوخ، فلم يكن مثل مصحف أبي بكر.

لماذا لم يجمع القرآن في مصحف واحد:

ونتساءل هنا:

لماذا لم يجمع القرآن الكريم في مصحف واحد في زمان النبي ﷺ؟

والجواب عن ذلك:

أولاً: إن القرآن لم ينزل مرة واحدة، وإنما نزل مفرقاً، ولا يمكن جمعه قبل أن يتکامل التزول.

ثانياً: إن بعض الآيات كانت تنسخ، وإذا كان القرآن عرضة للنسخ، فكيف يمكن أن تجمع في مصحف واحد؟

ثالثاً: إن ترتيب الآيات والسور لم يكن على حسب التزول، فقد تنزل بعض الآيات في أواخر الوحي، بينما يكون ترتيبها في أوائل السور الكريمة، وهذا يقتضي تغيير المكتوب.

رابعاً: كانت المدة بين نزول آخر ما نزل، وبين وفاته ﷺ قصيرة جداً، وقد تقدم في الفصل الأول أن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٨١) وقد انتقل رسول الله إلى جوار ربه بعد نزولها بتسعة ليال، فالمرة إذا قصيرة، ولا يمكن جمعه قبل تکامل التزول.

خامساً: لم يوجد من دواعي الجمع في مصحف واحد، مثل ما وجد في عهد أبي بكر رضي الله عنه، فقد كان المسلمون بخير، والقراء كثيرون، والفتنة مأمونة، بخلاف ما حصل في عهد أبي بكر رضي الله عنه.

^(١) انظر كتاب "الإنقان" للسيوطى.

من مقتل الحفاظ، حتى خاف على ضياع القرآن.

والخلاصة: إن القرآن لو جمع في مصحف واحد، والحال على ما ذكرنا لكان القرآن عرضة للتغيير والتبديل كلما وقع نسخ، أو حدث سبب مع أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة، والظروف لا تساعد على ترك المصحف القديم، والاعتماد على المصحف الجديد؛ لأنه لا يمكن أن يكون في كل شهر أو يوم مصحف يجمع كل ما نزل من القرآن، ولكن لما استقر الأمر بختام التنزيل، ووفاة الرسول، وأمين النسخ، وُعرف الترتيب أمكن جمعه في مصحف واحد، وهذا ما فعله الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وجراه عن القرآن المسلمين خير الجزاء.

جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه:

أما جمع القرآن في عهد عثمان، فقد كان له سبب آخر غير السبب الذي حدث في عهد أبي بكر، فقد اتسعت الفتوحات الإسلامية في عهد عثمان، وتفرق المسلمون في الأقطار والأماصار، وانتشر في كل بلد من البلاد الإسلامية قراءة الصحابي الذي علّمهم القرآن، فأهل الشام كانوا يقرؤون بقراءة "أبي بن كعب رضي الله عنه"، وأهل الكوفة كانوا يقرؤون بقراءة "عبد الله بن مسعود رضي الله عنه"، وغيرهم كان يقرأ بقراءة "أبي موسى الأشعري رضي الله عنه". فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء، ووجوه القراءات، حتى كان الأمر يصل إلى النزاع والشقاق بينهم، وكاد بعضهم يكفر ببعضًا بسبب اختلاف القراءة.

روي عن أبي قلابة أنه قال: "لما كانت خلافة عثمان، جعل المعلم - المقرئ - يعلم قراءة الرجل، والمعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يتلقون فيختلفون، حتى ارتفع إلى المعلمين، حتى كفر بعضهم ببعض، فبلغ ذلك عثمان، فخطب فقال: "أنتم عندي تختلفون، فمن نأى - أى بعد - عني من الأمصار فهم أشد اختلافاً".

هذه الأسباب والأحداث رأى عثمان بثاقب رأيه، وصادق نظره، أن يتدارك الخرق قبل أن

يتسع على الراقي، وأن يستأصل الداء قبل أن يصعب الدواء، فجمع أعلام الصحابة، ورجال الرأي والبصر فيهم، واستشارهم في علاج تلك الفتنة، وعلاج ذلك الاختلاف، فأجمعوا أمرهم على أن يستنسخ أمير المؤمنين مصاحف عديدة، ويبعث إلى كل بلد أو مصر بمصحف منها، وأن يأمر الناس بإحرق كل ما عداها، حتى لا يبقى ثمة طريق للنزاع والاختلاف فيها، وأن يأمر القراءة، فشرع - ضئلاً - بتنفيذ هذا القرار الحكيم، فعهد إلى أربعة من خيرة الصحابة، وثقات الحفاظ وهم: "زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن هشام"، وقد كانوا جميعاً من قريش المهاجرين إلا "زيد بن ثابت"، فقد كان من الأنصار، وكان هذا العمل الجليل سنة "٣٤" هجرية، وقال مؤلِّه: إذا اختلفتم في شيء من وجوه القراءة، فاكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم.

وطلب عثمان من حفصة بنت عمر أن تعطيه المصحف الذي كان عندها، والذي جمعه أبو بكر؛ لينسخ منه عدة نسخ ثم يعيده إليها، ففعلت.

سبب جمع عثمان للقرآن الكريم:

روى البخاري عن أنس بن مالك أنه قال:

"إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذريجان مع أهل العراق، فأفرغ حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين! أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف نسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أتكم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا المصحف

في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق"^(١).

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان لثيئها:

ونستطيع مما سبق أن نعرف الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان، وهو أن الجمع في عهد أبي بكر إنما كان عبارة عن نقل القرآن وكتابته في مصحف واحد مرتب الآيات، جمعه في اللخاف والعسب والرقاء، وكان سبب الجماع موت الحفاظ، وأما جمع عثمان فقد كان عبارة عن نسخ عدة نسخ من المصحف الذي جمع في عهد أبي بكر؛ لترسل إلى الآفاق الإسلامية، وكان سبب الجماع إنما هو اختلاف القراء في قراءة القرآن، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآلـه وصحبه وسلم.

* * * *

^(١) انظر صحيح البخاري في جمع القرآن.

الفصل السابع:

التفسير والمفسرون

أنزل الله كتابه العظيم؛ ليكون دستوراً للمسلمين، ومنهاجاً يسيرون عليه في حياتهم، فيستضيئون بضيائه، ويهتدون بهديه، ويقتبسون من تعاليمه الرشيدة، ونظمه الحكيمة ما يجعلهم في أوج السعادة والعزّة، ويرفع بهم إلى ذرى الجد والكمال، ويوهّلهم إلى قيادة ركب الإنسانية، و يجعلهم السادة والقادة في هذه الحياة، يسيرون بالأمم إلى حياة العزة والكرامة، ويوصلوهم إلى شاطئ الأمان والاستقرار والسلام.

ولاريب أن البشرية تختبط اليوم في ظلمات الشقاوة والجاهلية، وتغرق في بحار التحلل وعبادة المال، وليس لها من منفذ إلا الإسلام عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيم، التي روّعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشري على ما أحاط به علم الخالق الحكيم.

ومن البدهي أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره، والوقوف على ما حوى من نصح وإرشاد، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان؛ لما تدل عليه آيات القرآن، وهو ما نسبه بـ "علم التفسير" خصوصاً في هذه العصور الأخيرة التي فسّدت فيها ملكة البيان العربي، وضاعت فيها خصائص العروبة حتى من سلاطيل العرب أنفسهم.

فالتفسيـر هو المناخ لهذه الكنوز والذخائر التي احتواها هذا الكتاب المجيد، وبدونه لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر، واللالـء والجواهر، مهما بلغ الناس في تردـيد ألفاظ القرآن، وقرؤـوا آياته في كل صباح ومساء.

وإنـه لـمن المؤسف أن يكتـفي المسلمين من القرآن بألفاظ يرددونـها، وأنـغام يلحـّونـها في المآتم والمقابر، وعند الاحـتفـالـات الرسمـية، ثم لا يكون للقرآن نصيبـ منهم إلا الـطربـ بالسماعـ أو التـبرـكـ بالـتـلاـوةـ، وهذا ما عـنـاهـ أـعـلـىـ لـرسـولـ ﷺـ بـقولـهـ: "يـتـحـذـونـ الـقـرـآنـ مـزـامـيرـ".

وقد نسي المسلمون أو تناسوا أن بركة القرآن العظمى إنما هي في تدبره وتفهمه، وفي الاهتداء بهديه، والاستفادة من تعاليمه وتوجيهاته، ثم الوقوف عند أوامرها ومراضيه، والبعد عن مساقطه ونواهيه، والله تعالى يقول: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ بَارَكٌ لِيَدْبَرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩)، ويقول سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤)، ويقول جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ يَسَرَنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِّرٍ﴾ (القمر: ١٧).

فما أشبه المسلمين اليوم بالرجل العطشان يموت من الظماء والماء بين يديه! أو بالحيوان يهلك من الجوع والعطش والزاد والماء على ظهره.

وما أجمل قول القائل:

كالعيش في البيداء يقتلها الظُّمَاء
والماء فوق ظُهورها محمول

ولقد صدق رسول الله ﷺ حين قال: "لقد تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما
بعدي أبداً، كتاب الله ، وسنني." ^(١)

لماذا نفسر القرآن:

أسئلة تخطر ببال كل إنسان، وتجول في كل فكر: لماذا نفسر القرآن؟ أُنْجِيدَ قراءته ونتقنَ تلاوته؟ أم لـزْرِيلَ السِّتار عن غامض معانيه؟ أم لنحْلِلَ أسراره، وننيرَ محسنه؟

لا... لا... ليس لهذا، ولا لذاك فقط! بل لتحرر من عبادة العباد، وتبعية البشر إلى عبادة رب العباد جل وعلا، وربط الفرد والجماعة بخالق العالم، ومدبر الكون، رب السموات العُلَى، ورب العرش العظيم. فالقرآن الكريم دستور الأمة، وهداية الخالق، وشريعة الله لأهل الأرض، وهو النور الرباني، والهدى السماوي، والشرع العام الخالد، الذي تكفل بكل ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم.

^(١) الحديث: رواه أصحاب السنن.

ولا عجب! فهو كتاب كامل، ونظام شامل، يشمل جوانب الحياة بأجمعها، في العقائد، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات، وفي السياسة والحكم، وفي السلم والحرب، وفي الشؤون الاقتصادية والعلاقات الدولية.

فهو كتاب جامع أنزله الله تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، وهو في ذلك كله حكيم كل الحكمة، لا يعتريه خلل ولا اختلاف، فلا عجب إن كانت السعادة لاتناول إلا بمحديه، والتزام ما جاء به، فهو شفاء لما في الصدور، وعلاج لما حل أو يحل بالمجتمع من شرور: ﴿وَنَزَّلْتُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الطَّالِبُونَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢).

الفرق بين التفسير والتأويل:

التفسير في اللغة: هو الإيضاح والتبيين، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثِيلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَخْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٣).

فقولنا: فَسَرْ: يعني بَيْنَ وَضْعَ، وكلام مفسَرْ: أي واضح ظاهر.

وأما التفسير في الاصطلاح: فهو علم يعرف به فهم كتاب الله المتنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه،^(١) وعرفه غيره بأنه "علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية".^(٢)

معنى التأويل:

وأما التأويل، فهو لغة من الأول بمعنى الرجوع، فكان المفسر أرجع الآية إلى ما يحتمله من المعنى. ويرى بعض العلماء أن التأويل مرادف للتفسير حتى قال صاحب القاموس: أول الكلام تأويلاً وتأوّله بمعنى دبره وقدره وفسرّه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَبْتِغَاءُ الْفِتْنَةِ وَأَبْتِغَاءُ تَأْوِيلِهِ﴾ (آل عمران: ٧).

^(١) التعريف للزركشي من "كتاب البرهان" ص: ١٣.

^(٢) منهاج العرفان للزرقاوي.

أما في الاصطلاح: فهو عند المقدمين بمعنى التفسير، فيقال: تفسير القرآن، ويقال: تأويل القرآن، بمعنى واحد.

قال ابن حرير الطبرى في تفسيره: "القول في تأويل قوله تعالى كذا...، وانختلف أهل التأويل في هذه الآية"، يريد بذلك أهل التفسير.

وقال مجاهد: إن العلماء يعلمون تأويله – يعني القرآن – ويريد تفسير معناه.

وذهب فريق من العلماء إلى أن بين التفسير والتأويل فرقاً جلياً، وقد اشتهر هذا عند المتأخرین. التفسير: هو المعنى الظاهر من الآية الكريمة.

وأما التأويل: فهو ترجيح بعض المعاني المحتملة من الآية الكريمة التي تحتمل عدة معانٍ.

وقد أفضى العلامة السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" في هذا البحث، ونقل نقولاً كثيرة عن العلماء، نكتفي بأجمعها، وأقربها إلى الصواب، وهو أن نقول "بأن التفسير هو كشف معانٍ القرآن الظاهرة، والتأويل ما استبطه العلماء العارفون من المعانٍ الخفية والأسرار الربانية اللطيفة التي تحتملها الآية الكريمة".

هذا الذي اخترناه هو الذي ذهب إليه الألوسي رحمه الله حيث قال: قد تعرف عن المؤلفين من غير نكير أن للتأويل معانٍ قدسية، ومعارف ربانية، تنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين، والتفسير غير ذلك.

والخلاصة: أن التفسير هو المعنى الظاهر من القرآن الكريم التي هي واضحة الدلالة على المعنى المراد للله عزوجل.

والتأويل: هو المعنى الخفية التي تستنبط من الآيات الكريمة، والتي تحتاج إلى تأمل وتفكير واستنباط، والتي تحتمل عدة معانٍ، فيرجح المفسر منها ما كان أقوى عن طريق النظر والاستدلال، وليس هذا الترجيح بقطعي، بل هو ترجيح للأظهر والأقوى؛ إذ الحكم بأنه المراد القطعي تحكم في كتاب الله، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٧)، والله أعلم.

أقسام التفسير:

يقسم التفسير حسب الاصطلاح العلمي الدقيق إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: التفسير بالرواية، وهذا الذي يسمى التفسير بالنقل، أو التفسير بالتأثير.

ثانياً: التفسير بالدراءة، وهذا الذي يسمى التفسير بالرأي.

ثالثاً: التفسير بالإشارة، وهو الذي يسميه العلماء: التفسير الإشاري.

وستتحدث عن كل قسمٍ من هذه الأقسام بالتفصيل – إن شاء الله تعالى – ونوضح السليم من السقيم.

* * * *

القسم الأول

التفسير بالرواية "المأثور":

هو ما جاء في القرآن، أو السنة، أو كلام الصحابة بياناً لمراد الله تعالى، فالتفسير المأثور إما أن يكون تفسير القرآن بالقرآن، أو تفسير القرآن بالسنة النبوية، أو تفسير القرآن بالمأثور عن الصحابة.

١- مثال ما جاء تفسيره في القرآن الكريم

قوله تعالى: ﴿أَحِلَتْ لَكُمْ بِهِمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتَلَى عَلَيْكُمْ﴾ (المائدة: ١)، فقد جاء تفسير قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتَلَى عَلَيْكُمْ﴾ في آية كريمة أخرى، هي قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (المائدة: ٣).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءُ وَالظَّارِقُ﴾ (الطارق: ١)، جاء تفسير الطارق في نفس السورة: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (الطارق: ٣)، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدُمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ٣٧)، جاء تفسير الكلمات التي تلقاها آدم في موطن آخر من القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿فَقَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣).

ومن الأمثلة أيضاً على تفسير القرآن بالقرآن، قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾ (الدخان: ٣)، جاء تفسير الليلة المباركة بأنها "ليلة القدر" في قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر: ١) إلى آخر ما هنالك.

٢- مثال ما جاء في السنة المطهرة تفسيراً وشرعاً للقرآن:

إنه عليه السلام فسر الظلم بالشرك في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ٨٢)، وأيدَ تفسيره هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣). وفسر عليه السلام الحساب اليسير بـ"العرض"، أي: عرض الأعمال على المؤمن وتذكيره بها فقط،

وذلك حين قال: "من نوتش الحساب عذب"، فقالت السيدة عائشة له: يا رسول الله! أوليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَعْمِلُهُ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (الإنشقاق: ٩-٧).

فقال ﷺ: "ذلك العرض - بيانا للحساب اليسير - وأما من نوتش الحساب عذب"، وكتفسيره ﷺ الصلاة الوسطى في قوله تعالى: ﴿خَافِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةُ الْوُسْطَى﴾ (البقرة: ٢٣٨) بأنها صلاة العصر، وتفسير ﴿الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالُّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) في سورة الفاتحة باليهود، والنصارى.

ومن الأمثلة أيضا على تفسير النبي ﷺ لآيات الكريمة، تفسيره الزيادة في قوله تعالى: ﴿إِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةً﴾ (يونس: ٢٦). وقد فسرها بأنها النظر إلى وجه الله الكريم، وكتفسيره ﷺ القوة، بالرمي في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعُتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (الأفال: ٦٠)، فقد قال ﷺ: "ألا! إن القوة الرمي، ألا! إن القوة الرمي".

وكتفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدَّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (الزلزال: ٤)، قال ﷺ: "أتدرؤون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أن تشهد على كل عبد أو أمّة بما عمل على ظهرها، تقول: عملت يوم كذا، كذا وكذا".

وأمثال هذه التفاسير كثيرة، وقد جمع السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" طائفة كبيرة من التفاسير النبوية، فليراجع إليه.

وكلا هذين القسمين "تفسير القرآن بالقرآن"، و"تفسير القرآن بالسنة" لا شك في أنه أعلى أنواع التفسير، ولاشك في قوله، أما الأول فلأن الله تعالى أعلم بمداد نفسه من غيره، وكتاب الله تعالى أصدق الحديث؛ لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأما الثاني فلأن الرسول ﷺ قد بين الله مهمته في القرآن، وذكر أنها مهمة التوضيح والبيان: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (الحل: ٤)، مما جاء عن رسول الله ﷺ من شرح أو بيان بسند

صحيح ثابت، فإنه مما لا شك في أنه حق يجب اعتماده.

٣- بقي القسم الثالث من أقسام التفسير المأثور، ألا وهو "تفسير الصحابة"، فإنه أيضاً من التفسير المعتمد المقبول؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم قد اجتمعوا بالرسول صلوات الله عليه، وخلوا من معينه الصافي، وشاهدوا الوحي والتتريل، وعرفوا أسباب النزول، وهم من صفاء نفوسهم، وسلامة فطرتهم، وعلوًّا متزلتهم في الفصاحة والبيان، ما يرهلهم من الفهم الصحيح السليم لكلام الله، وما يجعلهم يدركون أسرار هذا القرآن أكثر من أي إنسان.

قال الحاكم: "إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتتريل له حكم المرفوع"، ومعنى هذا أن تفسير الصحابي له حكم الحديث النبوي الذي رفع إلى النبي صلوات الله عليه، فهو إذاً من المأثور. وأما التابعي: فقد اختلف في تفسيره، فذهب بعض العلماء إلى أنه من المأثور؛ لأنه تلقاه من الصحابة غالباً، ومنهم من قال: إنه من التفسير بالرأي، أي: له حكم بقية المفسرين، الذين فسروا حسب قواعد اللغة العربية دون التزام للمأثور.

ملاحظة: التفسير بالمأثور من أجود أنواع التفسير إذا صح سنته إلى الرسول صلوات الله عليه، أو إلى الصحابة رضي الله عنهم، وينبغي التثبت من الرواية عند ذكر التفسير بالمأثور، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: إن أكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرواية من زنادقة اليهود والفرس، ومسلمة أهل الكتاب، وجعل ذلك في قصص الرسل مع أقوامهم، وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم، وفي تاريخ غيرهم ك أصحاب الكهف... إلخ، فينبغي إذاً التثبت من الرواية.

أسباب ضعف الرواية بالمأثور:

ذكرنا فيما تقدم أن تفسير بعض القرآن بعض، وتفسير القرآن بالسنة الصحيحة المرفوعة إلى النبي صلوات الله عليه لا شك في قبوله، ولا خلاف في أنه من أعلى مراتب التفسير، وأما تفسير القرآن بالمأثور بالمأثور عن الصحابة والتابعين، فإنه يتطرق إليه الضعف من وجوه:

أولاً: اختلاط الصحيح بغير الصحيح، ونقل كثير من الأقوال المنسوبة إلى الصحابة أو التابعين من غير إسناد ولا تثبت مما أدى إلى التباس الحق بالباطل.

ثانياً: أن تلك الروايات مليئة "بالإسرائليات"، ومنها كثير من الخرافات التي تصادم العقيدة الإسلامية، والتي قام الدليل على بطلانها، وهي مما دخل على المسلمين من أهل الكتاب.

ثالثاً: أن بعض أصحاب المذاهب المتطرفة لفُقُوا أقوالاً، وصنعوا أباطيل نسبوها إلى بعض الصحابة مثل الشيعة شيعة علي المنطّرفيّن، نسبوا إليه ما هو منه بريء، ومثل أولئك المترافقين للعباسيين، نسبوا إلى ابن عباس ما لم يصحّ نسبته إليه، تملقاً للحكام.

رابعاً: أن بعض الزنادقة من أعداء الإسلام دسوا على الصحابة والتابعين كما دسوا على رسول الله ﷺ في الأحاديث النبوية، وذلك بغرض هدم الدين عن طريق الدس والوضع، فمن هذه الناحية ينبغي الاحتياط والشّبه والخذر من الأقوال التي تنسب إلى الصحابة الكرام أو التابعين.^(١)

رأي الزرقاني في مناهل العرفان:

وقد ذكر الأستاذ الزرقاني في كتابه "مناهل العرفان" كلاماً حسناً حول التفسير بالتأثر، بعد أن ذكر نقولاً عن الإمام أحمد رحمه الله، وعن ابن تيمية رحمه الله، فقال:

وكلمة الإنصاف في هذا الموضوع: أن التفسير بالتأثر نوعان:

أحدهما: ما توافت الأدلة على صحته وقبوله، وهذا لا يليق بأحدٍ رده، ولا يجوز إهماله وإغفاله، ولا يجمل أن نعتبره من الصور الفاسدة عن هدي القرآن، بل هو على العكس عامل من أقوى العوامل على الاهتداء بالقرآن.

ثانيهما: ما لم يصح لسبب من الأسباب الآتية أو غيرها، وهذا يجب ردّه، ولا يجوز قبوله ولا الاستغال به، ولا يزال كثير من أيقاظ المفسرين كابن كثير يتحرّون الصحة فيما ينقولون، ويزفّون ما هو باطل أو ضعيف.

^(١) انظر كتاب "مناهل العرفان" للزرقاني.

أشهر المفسرين من الصحابة:

قال السيوطي في "الإتقان"^(١) : اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربع، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنه. أما الخلفاء فأكثر من روي عنه، فهم "عليّ بن أبي طالب" كرم الله وجهه، والرواية عن الثلاثة قليلة جداً، وكأن السبب في ذلك تقدم وفائهم.

وأما السبب في قلة الرواية عن الثلاثة "أبي بكر، وعمر، وعثمان"، فإنما يرجع كما نبه إليه السيوطي إلى قصر مدة خلافتهم، وتقدم وفائهم، ومن ناحية أخرى فإنهم قد عاشوا في وسط أغلب أهلهم كانوا علماء بكتاب الله؛ لأنهم صاحبوا الرسول صلوات الله عليه، فكانوا واقفين على أسرار التنزيل، عارفين بمعانيه وأحكامه، أما علي رضي الله عنه، فقد عاش بعد الخلفاء الثلاثة في وقت اتسعت فيه رقعة الإسلام، ودخل كثير من العجم في الدين الجديد، ونشأ جيل من أبناء الصحابة كانوا بحاجة إلى دراسة القرآن، وتفهم أسراره وحكمه، ولذلك اشتهرت الرواية عنه أكثر من بقية الخلفاء الراشدين، وستتكلّم بشيء من التفصيل عن بعض هؤلاء الصحابة الذين اشتهروا بتفسير القرآن.

عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حبر هذه الأمة، وهو ابن عم رسول الله صلوات الله عليه الذي دعا له الرسول الكريم بقوله: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"، وهو المسمى بـ"ترجمان القرآن"، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس". كان أعلم الصحابة بتفسير القرآن الكريم، وقد شهد له بالفضل - وهو شاب في عنفوان الصبا - كبار الصحابة، حتى كان ينافسهم، وينتزع إعجابهم مع حداثة سنه، وكان عمر رضي الله عنه يدخله إلى مجلس الشورى مع كبار الصحابة الأجلاء يستشيرهم، وربما عرض الأمر عليه، وكان تقدير عمر لابن عباس مثار جدل عند بعض الصحابة، حتى قال بعضهم: لِمَ يدخل هذا الشاب معنا، وعندنا من الأولاد

^(١) انظر "الإتقان": ٢/٣٧٢.

من هو أكبر منه سنًا؟ وله قصة رواها البخاري في صحيحه تدل على غزاره علمه، وعلو شأنه في الغوص على دقائق أسرار القرآن:

رواية البخاري:

روى البخاري من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقالوا: لِمَ يدخل هذا معنا، وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من علمتم - يعني: إنه من عرفتم ذكاءه وعلمه - فدعاهم ذات يوم، فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريمهم، فقال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر: ١)؟

قال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم، فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ قلت: لا. فقال: ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلوات الله عليه وسلم أعلم له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ إِنَّهُ كَانَ تَوَاباً﴾ (النصر: ٣)، فقال عمر: والله! لا أعلم منها إلا ما تقول"^(١). لا يدرى لها إلا الراسخون في العلم، ولا عجب أن ينال ابن عباس تلك الرتبة الرفيعة في فهم أسرار القرآن، فقد دعا له الرسول صلوات الله عليه وسلم بالفهم والفقه في الدين، كما روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "ضمني رسول الله إلى صدره، وقال: "اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل". وفي رواية: "اللهم علّمه الحكمة".

وكان ابن عباس يسمى البحر؛ لكثرة علمه.

روي أن رجلاً أتى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، يسأله عن السموات والأرض ﴿كَانَتَا رَتْقاً فَقَنَّاهُمَا﴾ (الأنسية: ٣٠)، فقال: اذهب إلى ابن عباس فاسأله، ثم تعال، فأحبرني، فذهب، فسألته، فقال: كانت

^(١) أخرجه البخاري رحمه الله في باب فضائل الصحابة.

السموات رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات.
فرجع إلى ابن عمر، فأخبره، فقال: قد كنتُ أقول: ما يعجبني جرعة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أُوتى علمًا.

وروي أن عمر بن الخطاب قال يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوْدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَحِيلٍ وَأَعْتَابٍ...﴾ (البقرة: ٢٦٦) قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال:
قولوا: نعلم، أو لا نعلم.

قال ابن عباس: في نفسي منها شيء، فقال: يا ابن أخي! قل، ولا تحرِّر نفسك، قال ابن عباس:
ضربت مثلاً لعمل، فقال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله". (رواه البخاري) فوافقه عمر على هذا الفهم.

كل هذا وأمثاله كثير، يدل على مبلغ علم ابن عباس وفهمه الثاقب منذ حداثة سنّه، وهذا أصبح في مصاف كبار شيوخ الصحابة، وأصبح يُدعى حِبر الأمة بشهادة الصحابة أنفسهم.

شيوخ ابن عباس:

ومن شيوخ ابن عباس الذين استقى منهم علومه بعد رسول الله ﷺ، وكان لهم أبرز الأثر في توجيهه وثقافته "عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت" (رضي الله عنه)، وهؤلاء الخمسة هم أهم شيوخه الذين أخذ عنهم أكثر علمه، وتلقى منهم معظم ثقافته، وكان لهم أثر في توجيهه تلك الوجهة العلمية الدقيقة.

تلامذة ابن عباس:

تلقي العلم عن ابن عباس عدد كبير من التابعين، كان من أشهرهم تلامذته المشهورون، الذين نقلوا تفسيره وعلمه الغزير، وهم "سعید بن جبیر، ومجاہد بن جبیر الخزرمی، وطاوس ابن کيسان اليماني، وعکرمة مولی ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح"، وهؤلاء هم أظهر تلامذته

الذين نقلوا مدرسة ابن عباس في التفسير إلينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عبد الله بن مسعود:

ومن أعلام الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير، ونقلوا لنا آثار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقواله "عبد الله بن مسعود" صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان من السابقين إلى الإسلام، وكان سادس ستة، ما على وجه الأرض مسلم سواهم، وكان خادم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يلبسه نعليه، ويمشي معه وأمامه، فكان له من هذه الصلة النبوية خير مثقف ومؤدب، لذلك عدوه من أعلم الصحابة بكتاب الله، ومعرفة حكمه ومتناهيه، وحلاله وحرامه.

قال السيوطي: قد روي عن ابن مسعود في التفسير أكثر مما روي عن علي كرم الله وجهه. روى الشیخان عنه أنه قال: والذی لا إله غیره، ما نزلت سورة من كتاب الله، إلا وأنا أعلم أین أنزلت؟ ولا أنزلت آیة من كتاب الله تعالى، إلا وأنا أعلم فیم أنزلت؟ ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إلیه"، روى عنه كثير من التابعين.

* * * *

القسم الثاني

التفسير بالدراءة أو بالرأي:

بعد أن تحدثنا عن التفسير بالرواية، ننتقل الآن إلى الحديث عن التفسير بالدراءة، وهذا النوع يسمى عند علماء التفسير: التفسير بالرأي، أو التفسير بالمعقول؛ لأن المفسر لكتاب الله تعالى يعتمد فيه على اجتهاده، لا على المؤثر المنقول عن الصحابة أو التابعين، بل يكون فيه الاعتماد على اللغة العربية، وفهم أسلوبها على طريقة العرب، ومعرفة طريقة التخاطب عندهم، وإدراك العلوم الضرورية التي ينبغي أن يكون ملما بها كل من أراد تفسير القرآن، كالنحو، والصرف، وعلوم البلاغة، وأصول الفقه، ومعرفة أسباب النزول إلى غير ما هنالك من العلوم التي يحتاج إليها المفسر، كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

معنى التفسير بالرأي؟

المراد بالرأي هنا "الاجتهد" المبني على أصول صحيحة، وقواعد سليمة متّعة، يجب أن يأخذ بها من أراد الخوض في تفسير الكتاب، أو التصدّي لبيان معانيه، وليس المراد به مجرد "الرأي"، أو مجرد "الهوى"، أو تفسير القرآن بحسب ما يخطر للإنسان من خواطر، أو بحسب ما يشاء. فقد قال القرطبي: من قال في القرآن بما سمح في وهمه، أو خطط على باله من غير استدلال عليه بالأصول، فهو مخطئ مذموم، وعليه يحمل الحديث الشريف: "من كذب على متعمداً فليتبواً مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبواً مقعده من النار".^(١) وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ".^(٢)

^(١) الحديث: رواه البخاري، ومسلم عن علي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعنى يتبوأ: أي ينزل ويحل.

^(٢) الحديث: من رواية أبي داود، عن جندب.

قال القرطبي رحمه الله في مقدمة تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" ما نصه:

فسر الحديث ابن عباس رضي الله عنهما "ومن قال في القرآن برأيه فليتبواً مقعده من النار" تفسيرين: أحدهما: من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الصحابة والتابعين، فهو متعرض لسخط الله.

ثانيهما: من قال في القرآن قوله لا يعلم أن الحق غيره، فليتبواً مقعده من النار.

وقد رجح القرطبي القول الثاني فقال: وهو أثبت القولين، وأصحهما معنى، ثم قال: وأما حديث "جندب" فقد حمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأي معنى به "الموى" والمراد: من قال في القرآن قوله لا يوافق هواه، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب، فقد أخطأ حكمه على القرآن بما لا يعرف أصله، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه.

وقال ابن عطية: "ومعنى هذا أن يسأل الرجل على معنى في كتاب الله عزوجل، فيتسوّر عليه أي يهجم عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء، واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول، وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته، والنحويون نحوه، والفقهاء معانيه وأحكامه، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلاً ب مجرد رأيه." ^(١)

أنواع التفسير بالرأي:

وعلى هذا، يمكن تقسيم التفسير بالرأي إلى قسمين:

١ - تفسير محمود.

٢ - تفسير مذموم.

فالتفسير المحمود: ما كان موافقاً لغرض الشارع، بعيداً عن الجهالة والضلال، متماشياً مع

^(١) تفسير القرطبي: ٣٢/١

قواعد اللغة العربية، معتمدا على أساليبها في فهم النصوص القرآنية الكريمة، فمن فسر القرآن برأيه - أي باجتهاده - ملتزما الوقوف عند هذه الشروط، معتمدا عليها فيما يرى من معانٍ الكتاب العزيز، كان تفسيره جائزًا سائغاً، جديراً بأن يسمى التفسير المحمود، أو التفسير المشروع.

وأما التفسير المذموم: فهو أن يفسر القرآن بدون علم، أو يفسره حسب الهوى مع الجهالة بقوانين اللغة أو الشريعة، أو يحمل كلام الله على مذهب الفاسد، وبدعنته الضالة، أو يخوض فيما استأثر الله به علمه، ويجزم بأن المراد من كلام الله هو كذا وكذا، فهذا النوع من التفسير هو التفسير المذموم، أو التفسير الباطل.

وباختصار: فإن التفسير المحمود ما كان صاحبه عارفاً بقوانين اللغة، خبيراً بأساليبها، بصيراً بقانون الشريعة.

والتفسير الباطل المذموم ما كان منبعثاً عن الهوى، قائماً على الجهالة والضلال، مثاله: ما ورد عن بعض الجهلة من أدعياء العلم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ (الإسراء: ٧١): أن المراد بها أن الله تعالى ينادي الناس يوم القيمة بأسماء أمهاهم ستراً عليهم، فقد فسر هذا الجاهل "الإمام" بالأمهات، وظن أن الإمام جمع أم مع أن اللغة العربية تأبى هذا؛ لأن جمع الأم أمهاهات قال تعالى: ﴿وَأَمَّهَا تُكُمُ الْلَّاتِي أَرْضَعْنَاهُنَّ﴾ (النساء: ٤٣)، ولا يكون جمع الأم إماماً، فإن ذلك فاسد لغة وشرعًا، والمراد بالإمام هنا "النبي" الذي اتبعه أمته، أو كتاب الأعمال بدليل تتمة الآية: ﴿فَمَنْ أُوتَيَ كِتَابَهُ بِيمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (الإسراء: ٧١).

فإذا لم يفهم الإنسان قواعد اللغة، ولا أصول العربية، خبط خبط عشواء، وكان على الرأي سقim الفهم، وكذلك من لم يفهم غرض الشرع وقع في الجهالة والضلال، كمن يأخذ بظاهر الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٢)،

فيحكم على كل أعمى بالشقاوة والخسران ودخول جهنم مع أن المراد بالعمى ليس عمى البصر، وإنما هو "عمى القلب" بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).

وربما كان عمى البصر سبباً لسعادة الإنسان كما جاء في الحديث القدسي: "من ابتليته بمحببته - يعني: عينيه - فصبر، عوّضته الجنة".

و سنذكر بعض النماذج عن التفسير الباطل المذموم عند الكلام على غرائب التفسير، فارجع إليه هناك. ^(١)

أمهات التفسير:

والأمور التي ينبغي استناد الرأي إليها في التفسير، أمهاتها أربعة كما ذكرها الرركشي في كتابه "البرهان"، ونقلها السيوطي عنه في كتابه "الإتقان"، ونحن نلخصها بإيجاز:
الأول: النقل عن الرسول ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع.

الثاني: الأخذ بقول الصحابي في التفسير، فإنه في حكم المرفوع.

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة، فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين، مع ترك ما لا تتحمله لغة العرب.

الرابع: الأخذ بما يوافق الكلام العربي، ويدل عليه قانون الشرع، وهذا هو الذي دعا به النبي عليه الصلاة والسلام لابن عباس رضي الله عنهما في قوله: "اللهُمَّ فَقِهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ". ^(٢)

العلوم التي يحتاجها المفسر:

يحتاج المفسر لكتاب الله تعالى إلى أنواع من العلوم والمعارف، يجب أن تتوفر فيه حتى يكون أهلاً للتفسير، وإلا كان داخلاً في الوعيد السابق: "من قال في القرآن برأيه فليتبواً مقعده من النار".

^(١) في صفحة: ١٢٦.

^(٢) انظر "الإتقان" ١٧٩/٢.

وقد ذكر العلماء أنواع العلوم التي يجب توفرها في المفسر، وأوصلها السيوطي في كتابه "الإتقان" إلى خمسة عشر علماً^(١) ونخن نوجزها فيما يلي:

- ١ - معرفة اللغة العربية وقواعدها "علم النحو، والصرف، وعلم الاشتقاد".
- ٢ - معرفة علوم البلاغة "علم المعاني، والبيان، والبديع".
- ٣ - معرفة أصول الفقه من "خاص، وعام، وبحمل، ومفصل... الخ".
- ٤ - معرفة أسباب التزول.
- ٥ - معرفة الناسخ والمنسوخ.
- ٦ - معرفة علم القراءات.
- ٧ - علم الموهبة.

أما الأول: وهو اللغة وما يتعلق بها من نحو وصرف واشتقاق، فإنه ضروري للمفسر؛ إذ كيف يمكن فهم الآية بدون معرفة المفردات والتراكيب؟ وهل باستطاعة أحد أن يفسر قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرْبُصُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَأْتُوا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٢٢٦) بدون أن يعرف المعنى اللغوي للإيلاء والترbus والفي؟

قال الإمام مالك: لا أُوتِي بِرَجُلٍ غَيْرِ عَالِمٍ بِلِغَةِ الْعَرَبِ يَفْسُرُ كِتَابَ اللَّهِ، إِلَّا جَعَلْتُهُ نَكَالًا. وقال مجاهد: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب.

فإذا لم يتفق اللفظ مع المعنى اللغوي كان باطلاً، كتفسير بعض الروافض قوله تعالى: ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (الرحمن: ١٩) أهتما علي وفاطمة عليهما السلام، وقوله: ﴿يُخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن: ٢٢)

^(١) عد السيوطي العلوم خمسة عشر، وسردها على النحو التالي: أحدها: اللغة، الثاني: النحو، الثالث: التصريف، الرابع: الاشتقاد، الخامس: البيان، السادس: المعاني، السابع: البديع، الثامن: علم القراءات، التاسع: أصول الدين، العاشر: أصول الفقه، الحادي عشر: أسباب التزول، الثاني عشر: علم الناسخ والمنسوخ، الثالث عشر: علم الفقه، الرابع عشر: الأحاديث المبنية للمحمل والمبهم، الخامس عشر: علم الموهبة. (الإتقان يابنجاز).

يعني الحسن والحسين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكتفسير "فرعون" بالقلب في قوله تعالى: ﴿فَإِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (النازعات: ١٧)، ويريد به قلب الإنسان القاسي.

قال القرطبي: وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة؛ تحسينا للكلام، وترغيباً للمستمع، وهو من نوع؛ لأنَّه قياس في اللغة، وذلك غير جائز، وهو أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي.^(١)

وعلم النحو ضروري للمفسر؛ لأنَّ المعنى يتغير بتغيير الحركات تغيراً كبيراً، فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨) بنصب هاء الجملة، ورفع همزة العلماء، والمعنى صحيح؛ لأنَّ معنى الآية: الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم، فمن ازداد علماً بالله ازداد منه خوفاً، ولو عكس فضم هاء الجملة، ونصب همزة العلماء لفسد المعنى.

قصة لطيفة:

ذكر القرطبي في "تفسيره" هذه القصة في عدم اللحن في القرآن، قال:

قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة المنورة فقال: من يقرئني مما أنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ? قال: فأقرأه رجل سورة "براءة"، فقرأ عليه الآية الكريمة: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (النور: ٣) بالجر أي بحر اللام في "رسوله" بدل الضم، فقال الأعرابي: أوقف بريء الله من رسوله؟ فإن يكن الله بريء من رسوله فأنا أيضاً أبراً من رسوله، فاستعظم الناس الأمر، وبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه، فقال: يا أعرابي! أتبرأ من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قال: يا أمير المؤمنين! إني قدمت المدينة، ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني؟ فأقرأني هذا الرجل سورة "براءة"، فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾، فقلت: أوقف بريء الله من

^(١) تفسير القرطبي: ٣٣/١

رسوله؟ إن يكن الله برع من رسوله فأنا أبرا منه. فقال عمر: ما هكذا الآية، يا أعرابي! قال: فكيف هي؟ يا أمير المؤمنين! قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ هُوَ هُنَّا وَاللَّهُ أَبْرَأُ مَا بَرِيءَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ...﴾ فأمر عمر بن الخطاب عليه السلام ألا يقرئ الناس إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود، فوضع النحو.^(١)

ومعرفة علم الصرف والاشتقاق ضرورية أيضاً للمفسر، حتى لا يخبط الإنسان خبط عشواء، قال الرمخشي: من بدع التفاسير قول من قال: إن "الإمام" في قوله تعالى: ﴿هُوَ يَوْمَ نَدْعُوكُلَّ أَنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ﴾ (الاسراء: ٧١) جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيمة بأمهاتهم دون آبائهم، قال: وهذا غلط فاحش أوجبه جهل القائل بالتصريف، فإن "أما" لا تجمع على إمام.

وأما علوم المعاني، والبيان، والبديع: فضرورية لمن أراد تفسير الكتاب العزيز؛ لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وذلك لا يدرك إلا بهذه العلوم، فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ (البقرة: ٩٣) أي أشربوا حب العجل، فهو على حذف مضاف، ومثله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢) المراد أهل القرية. وقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧) ليس على الحقيقة، وإنما هو استعارة، فكما يستر اللباس العورة، ويزين الإنسان ويحمله، كذلك الرجل والمرأة كل منهما كاللباس لصاحبها يزيّنه ويحمله، وهو من روائع النظم، وبدائع الكلام. وإذا حمل الإنسان المعنى على ظاهره فسد المعنى، كما يذكر أن "الفرنسيين" أرادوا ترجمة القرآن إلى لغتهم، فلما وصلوا إلى هذه الآية الكريمة: ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ ترجموها بالظاهر، ولم يدركو السر الدقيق فيها، فكانت الترجمة كالتالي "هن بنطلونات لكم، وأنتم بنطلونات هن"؛ لأن اللباس عندهم يسمى: "البنطلون"، وهكذا ساء فهمهم، ولم يدركو روعة تعبير القرآن.

^(١) تفسير القرطبي: ٢٤/١

ووَكُلُوا وَاشْرُبُوا حَتَّى يَتَسَاءَلَنَّكُمْ
الْخَيْطُ الْأَيْضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ
(البقرة: ١٨٧): أخذ عقالين: أبيض وأسود، وجعل يأكل
وينظر إليهما حتى كادت الشمس أن تطلع، فجاء إلى النبي ﷺ، فأخبره بذلك، فقال له: إنك
لعریض القفا^(١)، إنما ذلك بياض النهار وسود الليل.

وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة على الاستعارة والكتابية والمحاز، ولابد في فهمهما من معرفة علم البيان والبديع، مثل قوله تعالى عن سفينة نوح **﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾** (القمر: ١٤) أي بحفظنا ورعايتنا، وقوله: **﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾** (يونس: ٢)، و**﴿لِسانَ صِدْقٍ﴾** (الشعراء: ٨٤)، و**﴿جَنَاحَ الذُّل﴾** (الإسراء: ٢٤). كل ذلك وأشباهه يحتاج إلى فهم علوم البلاغة وأسرار البيان.

وهكذا بقية العلوم من "أصول الفقه، وأسباب النزول، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، وعلم القراءات"، كل ذلك مما يحتاج إليه المفسر لكتاب الله تعالى حتى لا يخطيء في الفهم، ولا تزل قدمه بسبب الجهل بهذه الأمور الضرورية.

وأما علم الموهبة: فيقصد منه العلم اللدني الرباني: **﴿وَعَلَمَنَا مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾** (الكهف: ٦٥) الذي يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، ويفتح قلبه لفهم أسراره، قال تعالى: **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمُ اللَّهُ﴾** (البقرة: ٢٨٢) فهو ثمرة التقوى والإخلاص، ولا ينال هذا العلم من كان في قلبه بدعة، أو كبر، أو حب للدنيا، أو ميل إلى المعاصي، قال الله تعالى: **﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾** (الأعراف: ١٤٦) وما أجمل قول الشافعي رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظني فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نورٌ ونورُ الله لا يُهدى ل العاصي

قال السيوطي: ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول: "هذا شيء وليس في قدرة الإنسان"،
وليس كما ظنت من الإشكال.

^(١) عريض القفا: كتابة عن البلاهة، وسوء الفهم.

والطريق في تحصيله ارتكان الأسباب الموجبة له من العمل والزهد، ثم قال: علوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له. فهذه العلوم التي ذكرناها هي كالآلة للمفسر، ولا يكون مفسراً إلا بتحصيلها، فمن فسرَ بدوها كان مفسراً بالرأي المنهي عنه".^(١)

وهذه الشروط التي ذكرها العلماء، إنما هي لتحصيل أعلى مراتب التفسير، وهناك معانٍ عامة يفهمها الإنسان عند سماع اللفظ الكريم، فقد سهلَ اللهُ القرآن ويسّره، وأمر بالتدبّر والتذكرة لكتابه الحميد: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ (حمد: ٢٤)، وذلك أدنى مراتب التفسير، والله الموفق.

مِرَاتِبُ التَّفْسِيرِ:

وقد قسم المرحوم الشيخ محمد عبده التفسير إلى مرتبتين:

- ١ - مرتبة عليا.
- ٢ - مرتبة دنيا.

أما المرتبة الأولى "العليا" فهي لاتتم إلا بأمره:
أحددها: فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعت في القرآن عن طريق استعمالات أهل اللغة.
ثانيها: معرفة الأساليب الرفيعة، وذلك يحصل بمارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنكته ومحاسنه.

ثالثها: علم أحوال البشر، ومعرفة السنن الإلهية الكونية في تطور الأمم واختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعزٌّ وذلٌّ، وإيمان وكفر.

رابعها: العلم بوجه هداية القرآن للبشرية، وما كان عليه العرب في الجاهلية من شفاء وضلال، فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: "لا يعرف فضل الإسلام من لم يقرأ حياة الجاهلية".
خامسها: العلم بسيرة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه وأصحابه، وما كانوا عليه من علم وعمل في الشؤون الدينية والدنيوية.

^(١) الإتقان: ١٨١/٢

المরتبة الدنيا:

وأما أدنى مراتب التفسير: فهو أن يتبيّن بالإجمال ما يشرب قلبه عظمة الله وتنزيهه، ويصرف النفس عن الشر، ويجذبها إلى الخير، وهذه ميسّرة لكل أحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَرْنَا الْقُرْآنَ لِلَّذِكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكَّرٍ﴾ (القمر: ١٧).

أوجه التفسير:

روى السيوطي نقاًلا عن ابن حجرير من طرق متعددة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: التفسير أربعة أوجه:

- ١ - وجه تعرّفه العرب من كلامها.
- ٢ - وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته.
- ٣ - وتفسير يعرفه العلماء.
- ٤ - وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى.

أقوال العلماء في جواز التفسير بالرأي:

بعد أن عرفنا معنى "التفسير بالرأي" وشروطه، نذكر الآن أقوال العلماء فيه، وأدلة كل من المحيزين والمانعين له، حتى يظهر الحق أبلغ ساطعا، مثل الشمس في رابعة النهار، فنقول - ومن الله نستمد العون - :

المراد بالرأي هنا الاجتهاد، وعليه فالتفسير بالرأي معناه: تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب وأسلوبهم في الخطاب، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها، وقد اختلف العلماء في جواز التفسير بالرأي على مذهبين:

المذهب الأول: عدم جواز التفسير بالرأي؛ لأن التفسير موقوف على السمع، وهو قول طائفة من العلماء.

المذهب الثاني: جواز التفسير بالرأي بالشروط المتقدمة، وهو مذهب جمهور العلماء.

أدلة المانعين:

استدل المانعون للتفسير بالرأي بعدة أدلة نوجزها فيما يلي:

أولاً: إن التفسير بالرأي قولٌ على الله بغير علم، وهو منهيٌ عنه بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٦٩).

ثانياً: ما ورد في الحديث الشريف من الوعيد الشديد لمن فسّر القرآن الكريم برأيه، وهو قوله ﷺ: "اتقوا الحديث عليًّا إلا ما علمتم، فمن كذب عليًّا متعمداً فليتبواً مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبواً مقعده من النار".^(١)

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤)، فقد أضاف البيان إلى الرسول ﷺ، فعلم أنه ليس لغيره شيء من البيان لمعاني القرآن.

رابعاً: تحرّج الصحابة والتابعين من القول في القرآن بآرائهم، حتى روي عن الصديق أنه قال: أي سماء تظلّني؟ وأي أرض تقلى؟ إذا قلتُ في القرآن برأيي، أو قلتُ فيه بما لا أعلم.

أدلة المجيزين للتفسير بالرأي:

وقد استدل المجيزون للتفسير بالرأي، وهم "الجمهور" بعدة أدلة نوجزها فيما يلي:

أولاً: لقد حثنا الله على التدبر، وتعبدنا في القرآن، فقال عز من قائل: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَبْلَابِ﴾ (ص: ٢٩).

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْعَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤).

والتدبر والتذكرة لا يكون إلا بالغوص عن أسرار القرآن، والاجتهاد في فهم معانيه، فهل يعقل أن يكون تأويل ما لم يستأثر الله بعلمه محظوراً على العلماء مع أنه طريق العلم، وسبيل المعرفة؟

^(١) رواه الترمذى: .

ثانياً: إن الله تعالى قسم الناس قسمين: عامة وعلماء، وأمر بالرجوع إلى أهل العلم الذين يستنبطون الأحكام، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَئِكَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣).

والاستنباط هو استخراج المعاني الدقيقة بثاقب الذهن، وهو إنما يكون بالاجتهاد والغوص في أسرار القرآن، كما يغوص السباح في أعماق البحر لاستخراج الجواهر واللآلبي.

ثالثاً: قالوا: لو كان التفسير بالاجتهاد غير جائز، لما كان الاجتهاد جائزًا، ولتعطل كثير من الأحكام، وهذا باطل؛ فإن المجتهد في حكم الشرع مأجور، سواء أصاب أو أخطأ مادام أنه قد استفرغ جهده، وبذل ما في وسعه بغية الوصول إلى الحق والصواب.

رابعاً: إن الصحابة قرؤوا القرآن، واحتلقو في تفسيره على وجوه، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه في تفسير القرآن من النبي ﷺ؛ إذ أنه لم يبين لهم كل شيء، بل بين لهم الضروري منه، وترك البعض الآخر الذي توصلوا إلى معرفته بعقوتهم واجتهادهم، ولو بين لهم كل معانيه لما وقع بينهم اختلاف في التفسير.

خامساً: إن النبي ﷺ دعا لابن عباس رضي الله عنهما، فقال: "اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل"، فلو كان "التأويل" مقصوراً على السمع والنقل كالتنزيل، لما كان هناك فائدة في تخصيص ابن عباس بهذا الدعاء، فدل على أن التأويل هو التفسير بالرأي والاجتهاد.

الرد على أدلة المانعين:

وقد ردوا على أدلة المانعين بحجج دامجة، وبراهين قاطعة تثبت خطأهم، فقالوا في الرد على الدليل الأول: إن التفسير بالاجتهاد ليس قوله على الله بغير علم، بل هو قول بعلم مأذون به من الشارع، فقد بين عليه الصلاة والسلام أن المجتهد إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر واحد، فكيف يكون مأجوراً إذا لم يكن مسموحاً له بالاجتهاد؟

ثانياً: أما الدليل الثاني وهو حديث: "من قال في القرآن بغير علم فليتبواً مقعده من النار"، فقد رد السيوطي بخمسة أدلة عليه، فقال: جملة ما تحصل في معنى التفسير بالرأي خمسة أقوال:

أحدها: التفسير من غير حصول على العلوم التي يجوز معها التفسير.

الثاني: تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

الثالث: التفسير المقرر للمذهب الفاسد، فيجعل المذهب أصلاً، والتفسير تابعاً.

الرابع: الحكم بأن مراد الله كذا على وجه القطع من غير دليل.

الخامس: التفسير بالاستحسان والهوى.^(١)

ثالثاً: وفي الرد على الدليل الثالث قالوا: نعم! إن النبي ﷺ مأمور بالبيان، ولكنه انتقل إلى حوار الله، ولم يبين لهم كل شيء، فما ورد بيانه عنه ﷺ، فيه الكفاية، وما لم يرد عنه بيانه فلا بد فيه من الاجتهاد وإعمال الفكر، وختام الآية يشهد ذلك: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٦)، فلا بد إذا من الفكر والاجتهاد.

رابعاً: وفي الرد على الدليل الرابع قالوا: إن إحجام الصحابة إنما كان منهم ورعاً واحتياطاً خشية لا يصيروا عين اليقين، وكانوا يرون أن التفسير شهادة على الله بأنه أراد باللفظ كذا، فأمسكوا عنه خشية لا يكون الصواب جانبهم، وأما إذا ترجح لهم وجه الصواب، فإنهم لا يمتنعون، وهذا أبو بكر الصديق يفتني في الكلالة برأيه في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ (النساء: ١٧٦)، فيقول ﷺ: أقول فيها برأي، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان. "الْكَلَالَةِ": ما خلا الوالد والولد.

من هذه النظرة العابرة يتبيّن لنا خطأ وجهة الذين منعوا تفسير القرآن بالاجتهاد، وقصروه على المنقول والمأثور، وقد علمت أدلة الجمهور القوية، وتفنيدهم لأدلة المانعين. ونزيد هنا كلمة للإمام الغزالى، وأخرى للراغب الأصفهانى، وثالثة للقرطبي حول جواز تفسير القرآن بالاجتهاد.

كلمة الإمام الغزالى:

قال الغزالى في الإحياء: إن في فهم معانى القرآن مجالاً رحباً، ومتسعاً بالغاً، وإن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه، فبطل أن يشترط السماع في التأويل، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحدّ عقله.^(١)

كلمة الراغب الأصفهانى:

وقال الراغب الأصفهانى في مقدمة التفسير، بعد أن ذكر المذهبين وأدلتهم، قال: وذكر بعض الحقيقين أن المذهبين هما الغلو والتقصير، فمن اقتصر على المنقول، فقد ترك كثيراً مما يحتاج إليه، ومن أجاز لكل أحده الخوض فيه، فقد عرّضه للتخلط، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى: ﴿لَيَدْبِرُوا آيَاتِهِ وَلَيَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَاب﴾ (ص: ٢٩).^(٢)

كلمة الإمام القرطبي:

وقال العلامة القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" ما نصه: وقال بعض العلماء: إن التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرْدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾ (النساء: ٥٩)، وهذا فاسد؛ لأن النهي عن تفسير القرآن لا يخلو إما يكون المراد به الاقتصر على النقل والسماع وترك الاستبatement، أو المراد به أمر آخر، وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه، فإن الصحابة رضي الله عنهم قد قرؤوا القرآن، واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي صلوات الله عليه وسلم، فإن النبي صلوات الله عليه وسلم دعا لابن عباس، فقال: "اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل"، فإن كان التأويل مسماً مذموماً كالتنزيل، فما فائدة تخصيصه بذلك؟^(٣)

^(١) الإحياء: ٣٦-٣٧. ^(٢) مقدمة التفسير للراغب، ص: ٤٢٣.

^(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١/٣٣.

أحد هما: أن يكون له في الشيء رأي، وإليه ميل من الطبع والهوى، فيتأنى القرآن على وفق رأيه وهوه.

الثاني: أن يتسرع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الحذف والإضمار، والتقطيم والتأخير. تأمل قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ (الإسراء: ٥٩)، فإن معناه: آتينا ثمود الناقة معجزة واضحة آية ظاهرة، فظلموا أنفسهم بقتلها.

والناظر إلى ظاهر العربية يظن أن الناقة كانت مبصرة، ولا يدرى لماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم، فهذا من الحذف والإضمار، وأمثال هذا في القرآن كثير، وما عدا هذين الوجهين فلا يشمله النهي.^(١)

* * *

^(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣٤/١

القسم الثالث

التفسير الإشاري وغرائب التفسير:

النوع الثالث من التفسير هو "التفسير الإشاري"، وستعرض في هذا البحث إلى معنى التفسير الإشاري، إلى شروطه، وإلى آراء العلماء فيه، ثم نعقب ذلك ببيان نماذج عن التفسير الإشاري، وأهم الكتب التي نحت هذا المنحى، وما فيها من حسنات وسيئات.

معنى التفسير الإشاري:

التفسير الإشاري: هو تأويل القرآن على خلاف ظاهره؛ لإشارات خفية تظهر لبعض أولي العلم، أو تظهر للعارفين بالله من أرباب السلوك والمحايدة للنفس من نور الله بصائرهم، فأدركتوا أسرار القرآن العظيم، أو انقدحت في أذهانهم بعض المعاني الدقيقة بواسطة الإلهام الإلهي، أو الفتح الرباني مع إمكان الجمع بينها وبين الظاهر المراد من الآيات الكريمة.

فالتفسير الإشاري هو أن يرى المفسر معنى آخر غير معنى الظاهر تتحمله الآية الكريمة، ولكنه لا يظهر لكل إنسان، وإنما يظهر لمن فتح الله قلبه، وأنوار بصيرته، وسلكه في ضمن عباده الصالحين الذين منحهم الله الفهم والإدراك، كما قال تعالى في قصة الخضر مع موسى عليه السلام: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَنَا عِلْمًا﴾ (الكهف: ٦٥).

وهذا النوع من العلم ليس من العلم الكسيبي الذي ينال بالبحث والمذاكرة، وإنما هو من العلم اللدني أي الوهبي الذي هو أثر التقى والاستقامة والصلاح، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

آراء العلماء في التفسير الإشاري:

اختلاف العلماء في التفسير الإشاري، وتبينت فيه آراؤهم، فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه، ومنهم من عده من كمال الإيمان ومحض العرفان، ومنهم من اعتبره زيفاً وضلالاً، والحرافياً عن دين الله تبارك وتعالى.

والواقع أن الموضوع دقيق، يحتاج إلى بصيرة ورويّة، وغوص إلى أعماق الحقيقة؛ ليظهر ما إذا كان الغرض من هذا النوع من التفسير هو اتباع الهوى، والتلاعب في آيات الله كما فعل "الباطنية"، فيكون ذلك زندقة وإلحاداً، أو الغرض منه الإشارة إلى أنَّ كلام الله تعالى لا يحيط به بشر؛ لأنَّه كلام خالق القوى والقدر، وأنَّ لكلامه تعالى مفاهيم وأسراراً، ونكتاً ودقائق، وعجائب لا تنقضي، فيكون ذلك من محض العرفان وكمال الإيمان، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: "إنَّ القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون، لا تنقضي عجائبه، ولا تبلغ غايتها، فمن أوغل فيه برفق نجا، ومن أوغل فيه بعنف هوى، أخبار وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظاهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، وجاذبوا به السفهاء"(^١) .

أدلة الجizzرين:

وقد استدل القائلون بجواز التفسير الإشاري بما رواه البخاري رحمه الله في صحيحه في باب التفسير عند تفسير سورة "النصر"، ونص الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنَّ بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه من علمتم؟ فدعاني ذات يوم، فأدخلني معهم، قال: فما رأيت أنه دعاني إلا ليريهما، فقال عمر: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرًا اللَّهُ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر: ١) فقال بعضهم: أمرنا بأن نحمد الله ونستغفر له، إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم، فلم يقل شيئاً

(^١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك، انظر "الإنقان": ٢/١٨٥.

فقال لي: أكذا تقول يا ابن عباس؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلم، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فذلك علامه أجلك: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا﴾ (النصر: ٣) فقال عمر رضي الله عنه: ما أعلم منها إلا ما تقول".^(١)

فهذا الفهم من ابن عباس لم يفهمه بقية الصحابة، وإنما فهمه عمر رضي الله عنه، وفهمه ابن عباس رضي الله عنهما، وهو من "التفسير الإشاري" الذي يلهمه الله من شاء من خلقه، ويطلع عليه بعض عباده.

فالسورة الكريمة فيها "نعي" للنبي عليه الصلاة والسلام، وإشارة إلى دنو أجله. ومثل هذا ما ورد في الحديث الشريف: أن النبي ﷺ خطب الناس يوماً، فقال في جملة خطبته: "إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده"، فبكى أبو بكر، وفي رواية فقال: فديناك يا رسول الله بأباينا وأمهاتنا، فعجبنا له يبكي، فلما قُبض رسول الله ﷺ علمنا أنه كان هو المخier، وكان أبو بكر أعلمنا.^(٢)

فأبو بكر الصديق رضي الله عنه فهم "بطريق الإشارة" ما لم يفهمه عامة الصحابة رضي الله عنه، وكان الأمر كما قال.

طائفة من أقوال العلماء:

وأنا أنقل هنا طائفة من أقوال العلماء في التفسير الإشاري بإيجاز، سائلاً المولى أن يلهمنا السداد والرشاد، وأن يجنينا الخطأ والضلal، ثم أعقبها بكلمة لحججة الإسلام الإمام الغزالى رحمه الله، فهي مسلك الختام، فاقرئ - ومن الله أستمد العون - :

كلمة الزركشي في البرهان:

قال الزركشي في البرهان: كلام الصوفية في تفسير القرآن، قيل: إنه ليس بتفسير، وإنما هو معان ومواجيد يجدونها عند التسلاوة، كقول بعضهم في قوله تعالى: ﴿فَاقْتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ

^(١) نقلًا عن "جمع الفوائد، وأعذب الموارد" ٢٥٨/٢.

^(٢) الحديث رواه البخاري، والترمذى.

الْكُفَّارُ (التوبه: ١٢٣) إن المراد "النفس"، يريدون أن علة الأمر بقتال من يلينا هي القرب، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه.

كلمة النسفي والتفتازاني:

وقال النسفي في العقائد: الصوص على ظواهرها، والعدول عنها إلى معانٍ يدعىها أهل الباطل إلحاد.

وقال التفتازاني في شرحه على العقائد: سميت الملاحدة باطنية؛ لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها، بل لها معان لا يعرفها إلا المعلم، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية، قال: وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها، ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تكشف لأرباب السلوك، يمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان.^(١)

فأنت ترى أن النسفي أشار إلى "الباطنية"، وبين أن طريقهم إلحاد في دين الله، والتفتازاني فصل البحث، ووضح الموضوع، فردد على "الباطنية" ضلالهم، وأقرّ لبعض أرباب السلوك طريقهم في استنباط الدقائق، والإشارات الخفية، وجعلها من كمال المعرفة والإيمان.

ومن هنا يظهر لنا الفرق جلياً بين "التفسير الإشاري" الذي هو تفسير بعض العارفين بالله، وبين "التفسير الباطني" الذي هو تفسير الباطنية الملاحدة الذين يحرفون معان الكتاب العزيز. فال الأولون لا يمنعون إرادة الظاهر، بل يقولون: إنه هو الأصل والأساس، ويحضرون عليه ويقولون: لابد من معرفة الظاهر أولاً؛ إذ من ادعى فهم أسرار القرآن، ولم يحكم الظاهر، يكون كمن ادعى بلوغ سطح البيت قبل أن يلجه الباب.

وأما الباطنية، فإنهم يقولون: إن الظاهر غير مراد أصلاً، وإنما المراد الباطن، وقصدهم من وراء هذا

^(١) شرح العقائد النسفية للتفتازاني.

الکلام نفی الشریعة و إبطال الأحكام، وهذا بلاشك إلحاد في الدين، وقد قال الله تبارک وتعالی: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (فصلت: ٤٠).

کلام السیوطی في الإتقان:

والعلامة السیوطی ذکر في کتابه "الإتقان" عن ابن عطاء النص الآتي: اعلم أن التفسیر من هذه الطائفة - يعني التفسیر الإشاري - لکلام الله وکلام رسوله ﷺ بالمعانی العربية، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له، ودللت عليه في عرف اللسان، ولهم أفهم باطننة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه.

فلا يصدقك عن تلقي هذه المعانی منهم أن يقول لك ذوجدل ومعارضه: هذا إحالة لکلام الله وکلام رسوله ﷺ، فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهو لم يقولوا ذلك، بل يقررون الظواهر على ظواهرها؛ مرادا بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله ما أهملهم^(١). أقول: هذا کلام الإنصال، فقد وضع الشيخ الحق في نصابه، وجمع بين النصوص الظاهرة، والمعانی الخفیة الواردة التي تشرق على قلب المؤمن العارف بالله، كما كان الحال مع الصديق وعمر ثابتما، ولا عجب فالله تعالى يعطي الحکمة من يشاء، ويضع الفهم فيمن أراد، وهذا هو القرآن الكريم يخبرنا عن "داود وسليمان عليهم السلام" في أمر عرض عليهمما، فحكم كل واحد منهمما بحكم يخالف الآخر فيقول: ﴿فَفَهَمَنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلَّاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٩).

معنى الحديث الوارد في التفسیر الإشاري:

ويجدر بنا هنا أن نبين معنى الحديث الوارد في التفسیر الإشاري في بيان معنى ظهر الآية وبطنهما، وحدّ الحرف، ومطلع الحد... إلخ؛ لثلا يتخدذه الملاحدة الباطنية حجة لهم في دعواهم الباطلة

^(١) الإتقان: ٢/١٨٥.

في تفسير كلام الله تعالى على طريقتهم الباطنية، وتلاعبهم في النصوص الكريمة حسب الأهواء. روى الفريابي بسنده عن الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: "لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع".

وروى الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً: "إن هذا القرآن ليس منه حرف إلا له حد، ولكل حد مطلع".

وقد ذكر العلامة السيوطي رحمه الله بعض الوجوه في تأويل الحديث الشريف في معنى "الظاهر والبطن"، ونحن نذكر أقرب هذه الأوجه إلى الصواب: الوجه الأول: أن المراد بالظاهر لفظها، وبالباطن تأويلها.

الوجه الثاني: أن المراد بالظاهر، ما ظهر من معانٍ لها لأهل العلم بالظاهر، وبطنه ما تضمنته من الأسرار التي اطلع الله عليها أرباب الحقائق.

الوجه الثالث: أن القصص التي قصّها الله تعالى عن الأمم الماضية، وما عاقبهم به، ظاهرها الإخبار بحالات الأولين، وباطنها وعظ الآخرين، وتحذيرهم أن يفعلوا ك فعلهم، فيحل لهم مثل ما حلّ بهم. وأما المراد "بالحد": فهو أحکام الحلال والحرام، والمراد "المطلع": الوعد والوعيد، ويويده حديث ابن عباس السابق: "إن القرآن ذو شجون وفنون" ... الحديث، وقد مر معك ذكره.

شروط قبول التفسير الإشاري:

والتفسير الإشاري لا يكون مقبولاً إلا إذا توفرت فيه الشروط الآتية، قال السيوطي: وهذا الوجه أشبهها بالصواب.^(١)

أولاً: عدم التناقض مع المعنى الظاهر في النظم الكريم.

ثانياً: عدم ادعاء أنه المراد وحده دون الظاهر.

^(١) عن الإنفاق: ٢/١٨٤ بتصرف.

ثالثاً: ألا يكون التأويل بعيداً سعيفاً لا يحتمله اللفظ، كتفسير الباطنية قوله تعالى: ﴿وَرَثَ سُلَيْمَانُ دَأْوَدَ﴾ (النمل: ١٦) أي أن الإمام علياً ورث النبي في علمه.

رابعاً: ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.

خامساً: ألا يكون فيه تشويش على أفهم الناس.

وبدون هذه الشرائط لا يقبل التفسير الإشاري، ويكون عند ذلك من قبيل التفسير بالهوى والرأي المنهي عنه، والله الموفق والهادي إلى سوء السبيل.

كلمة قيمة للشيخ الزّرقاني:

ونسوق هنا كلمة قيمة للشيخ محمد عبد العظيم الزّرقاني حول التفسير الإشاري، فيها حكمة بالغة، ونصيحة صادقة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، قال عليه السلام:

"ولعلك تلاحظ معي أن بعض الناس قد فتنوا بالإقبال على دراسة تلك الإشارات والخواطر، فدخل في روعهم أن الكتاب والسنة؛ بل والإسلام كله ما هي إلا سوانح وواردات على هذا النحو من التأويلات والتوجيهات، وزعموا أن الأمر ما هو إلا تخيلات، وأن المطلوب منهم هو الشطح مع الخيال أينما شطح، فلم يتقيدوا بتکاليف الشريعة، ولم يحترموا قوانين اللغة العربية في فهم أبلغ النصوص العربية، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ".

والأدھى من ذلك أنهم يتخيّلُون ويُخيّلُون للناس أنهم هم أهل الحقيقة الذين أدركوا الغاية، واتصلوا بالله اتصالاً أسقط عنهم التكليف، وسما بهم عن حضيض الأخذ بالأسباب، ماداموا في زعمهم مع رب الأرباب، وهذا - لعمر الله - هو المصاب العظيم الذي عمل له الباطنية كي ما يهدمو التشرع من أصوله، ويأتوا ببنيانه من قواعده.

فواجب النصح لأخواننا المسلمين: يقتضينا أن نحذرهم الوقوع في هذه الشباك، ونشرير عليهم أن ينفضوا أيديهم من أمثال تلك التفاسير الإشارية الملتوية؛ لأنها كلها أذواق ومواجيد خارجة

عن حدود الضبط والتقييد، وكثيراً ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة، والحق بالباطل، فالآخرى بالفطىن العاقل أن ينأى بنفسه عن هذه المزالق، وأن يفر بدینه من هذه الشبهات، وأمامه في الكتاب والسنة، وشروحهما على قوانين الشريعة واللغة رياض وجنات: ﴿أَتَسْبِدُلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقرة: ٦١)؟^(١)

كلمة حجة الإسلام الغزالى:

ويقول حجة الإسلام الغزالى رحمه الله في كتابه "إحياء علوم الدين" في فصل الذكر والتذكير، ما نصه: "وأما الشطح فمعنى به صنفين من الكلام أحدهما بعض الصوفية:

أحدهما: الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى يتنهى قوم إلى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤبة، والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا وقلنا كذا، ويتشبهون فيه بالحسين "الحلّاج" الذي صلب لأجل إطلاقه كلماتٍ من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: "أنا الحق"، وهذا فنٌ من الكلام عظيم ضرره على العوام، حتى من نطق بشيء منه فقتلته أفضل في دين الله من إحياء عشرة.

الثاني: كلمات غير مفهومة، لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائل، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوّش القلوب ويدهش العقول، ويحير الأذهان، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما حدث أحد قوماً بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنةً عليهم.^(٢)

وقال علي كرم الله وجهه: كلّموا الناس بما يعرفون، أتریدون أن يكذب الله ورسوله صلوات الله عليه.^(٣)

أمثلة على التأویل الإشاري الفاسد:

ثم قال - طيب الله ثراه - : وأما الطاعات فيدخلها ما ذكرناه من الشطح، وأمر آخر يخصها وهو

^(١) مناهل العرفان: ١/٥٥٨.

^(٢) روى في مقدمة صحيح مسلم موقفاً على ابن مسعود رضي الله عنه.

^(٣) رواه البخاري رحمه الله موقفاً على علي رضي الله عنه. ^(٤) متفق عليه.

صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنية لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة، فهذا أيضا حرام، وضرره عظيم. ومن أمثلة تأويل أهل الطامات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى: ﴿إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (النازعات: ١٧) إنه إشارة إلى قلبه، وقال: هو المراد بفرعون، وهو الطاغي على كل إنسان، وفي قوله تعالى: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ (الأعراف: ١١٧) أي كل ما يتوكأ عليه، ويعتمده مما سوى الله عز وجل، فينبغي أن يلقيه.

وفي قوله ﷺ: "تسحرـوا فـإن في السـحـور بـرـكـة" فـسـرـوا السـحـور بـأنـه الاستـغـفار في الأـسـحـارـ، وأـمـثال ذلك حتى ليـحـرـفـوا القرـآن من أولـه إلى آخرـه عن ظـاهـرهـ، وعن تـفـسـيرـهـ المنـقولـ عنـ ابنـ عـباسـ وـسـائـرـ الـعـلـمـاءـ، وبـعـضـ هـذـهـ التـأـوـيـلـاتـ يـعـلـمـ بـطـلـانـهـ قـطـعاـ، كـتـنـزـيلـ فـرـعـونـ عـلـىـ الـقـلـبـ، فـإـنـ فـرـعـونـ شـخـصـ مـحـسـوسـ تـوـاتـرـ إـلـيـناـ النـقـلـ بـوـجـودـهـ، وـبـعـضـهـاـ يـعـلـمـ بـطـلـانـهـ بـغالـبـ الـظـنـ، وـكـلـ ذـلـكـ حـرـامـ وـضـلـالـةـ، وـإـفـسـادـ لـلـدـينـ عـلـىـ الـخـلـقـ.

ومن يستحيـزـ منـ أـهـلـ الطـامـاتـ مـثـلـ هـذـهـ التـأـوـيـلـاتـ معـ عـلـمـهـ بـأـنـهـ غـيرـ مـرـادـةـ بـالـأـلـفـاظـ، يـضـاهـيـ منـ يـسـتـحـيـزـ الـاخـتـرـاعـ وـالـوـضـعـ "الـكـذـبـ" عـلـىـ رـسـولـ اللـهـ ﷺـ كـمـ يـضـعـ فيـ كـلـ مـسـأـلةـ يـرـاهـاـ حـدـيـثـاـ عـنـ النـبـيـ ﷺـ، فـذـلـكـ ظـلـمـ وـضـلـالـ، وـدـخـولـ فيـ الـوعـيدـ: "مـنـ كـذـبـ عـلـىـ مـتـعـمـداـ فـلـيـتـبـوـأـ مـقـعـدـهـ مـنـ النـارـ"، بـلـ الشـرـ فيـ تـأـوـيـلـ هـذـهـ الـأـلـفـاظـ أـطـمـ وـأـعـظـمـ؛ لأنـهـ مـبـطـلـ لـلـثـقـةـ بـالـأـلـفـاظـ، وـقـاطـعـ طـرـيقـ الـاسـتـفـادـةـ وـالـفـهـمـ مـنـ الـقـرـآنـ بـالـكـلـيـةـ".^(١) اـنـتـهـيـ كـلـامـ الغـزـالـيـ ﷺـ.

خـلاـصـة الـبـحـثـ:

ومـا تـقـدـمـ يـتـبـيـنـ لـنـاـ أـنـ التـفـسـيرـ الإـشارـيـ لـهـ مـاـ يـؤـيـدـهـ مـنـ الشـرـعـ، وـلـكـنـهـ قدـ دـخـلتـ عـلـيـهـ بـعـضـ التـأـوـيـلـاتـ الـفـاسـدـةـ، وـسـلـكـ فـيـهـ بـعـضـ النـاسـ مـسـلـكـ الـبـاطـنـيـةـ، وـلـمـ يـرـاعـواـ الشـرـوـطـ الـتيـ وـضـعـهـاـ الـعـلـمـاءـ، وـأـنـذـوـاـ يـخـبـطـونـ فـيـهـ خـبـطـ عـشـوـاءـ، بـلـ أـصـبـحـ كـلـ مـنـ هـبـ وـدبـ: يـتـطاـولـ عـلـىـ كـتـابـ اللـهـ تـعـالـىـ،

^(١) الـإـحـيـاءـ لـلـغـزـالـيـ ﷺـ بـاـخـتـصـارـ.

فيتأوله حسب ما يميله عليه الهوى، أو يووسوس له به الشيطان، ويزعم أنه من التفسير الإشاري مع أنه سفاهة وضلاله وجهالة؛ لأنَّه تعريف لكتاب الله، وسلوك مسلك الباطنية الملاحدة، وهو وإن لم يكن تحريفاً لألفاظ، فإنه تحريف لمعانيه، ولقد سمعت من يستشهد بالآية الكريمة: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام: ٩١) على ضرورة ملازمته المريد للذكر الله تعالى بلفظ "الله"، فجعل هذه اللفظة مقول القول أي "قل: الله"، وما درى بهذا الجاهل الغبي أن هذه جملة حذف منها الخبر، والتقدير: "الله أنزله" بدليل سياق الآية الكريمة: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ...﴾ إلى قوله ﴿قُلِ اللَّهُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام: ٩١). وأمثال هذا التخلط كثير، فلا ينبغي لعلماء المسلمين أن يسمحوا لأمثال هؤلاء الجهلة بالتطاول على كتاب الله، وبتفسيره بما يخالف الظاهر، ويجافي الحق والصواب زعماً منهم أنه من نوع "التفسير الإشاري"، فالتفسر له حدود وشروط، وليس لكل إنسان أن يقول فيه برأيه، أو يبعث في نصوصه بفهمه العليل، ولقد صدق شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال: "نصف طبيب يفسد الأبدان، ونصف عالم يفسد الأديان"، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

غرائب التفسير:

ذكر العلامة السيوطي في كتابه "الإتقان" نقاً عن الكرماني أنه ألف كتاباً في مجلدين سماه "العجائب والغرائب"، ضمنه أقوالاً منكرة في التفسير، لا يجوز قولها ولا الاعتماد عليها؛ لأنَّها من أقوال أهل الضلال، وإنما ذكرها للتتحذير منها، وقال: إنما أردت بذكرها أن يعلم الناس أنَّه من يدّعى العلم حمقى، ونحن ننقل طرفاً منها، وننقل بعض أقوال أخرى عن الباطنية حتى يحذر المسلمون من أمثال هذه الأباطيل التي دخلت على الأمة الإسلامية بسبب التعصب الأعمى واتباع الأهواء.

أمثلة على هذه الغرائب:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿حَمْ عَسْق﴾ (الشورى: ٢١) قالوا: الحاء حرب علىٰ ومعاوية، والميم ولاية بني مروان، والعين ولاية العباسين، والسين ولاية السفيانيين، والكاف القدوة بالمهدي... إلى غير ما هنالك من الضلال.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولَئِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٧٩) قالوا: القصاص المراد به قصاص القرآن، وهو باطل لغة وشرعًا، وقول لا يقول به إلا الجهلاء.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَلَكُنْ لَيَطْمَئِنَ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠) قالوا: إن إبراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه، وفسروه بمعنى "ولكن ليسكن صديقي"، وهذا بعيد جداً.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٦) قالوا: إنه الحبُّ والعشق، ففسّروا ما لا طاقة للإنسان به بهذا التفسير الباطل، وهذا حكاية الكواشي في تفسيره.

خامساً: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ (الفلق: ٣) قالوا: إنه الذُّكر إذا انتصب، وهذا - بلاشك - جرأة غريبة، ووقاحة شيعية لا تصدر إلا من سفيه أحمق.

سادساً: قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس: ٨٠) قالوا: المراد بالشجر الأخضر "إبراهيم"، وناراً أي نور محمد ﷺ، فإذا أنتم منه توقدون أي تقبسون الدين. ^(١)

وهذا التفسير من الغرائب لا تدل عليه اللغة، وهو تأويل باطل لنصوص القرآن، وإن كان سبكه جميلاً وعباراته لطيفة.

نماذج عن تفسير الشيعة:

الشيعة هم فرق عديدة، أسرفوا في حبِّ الإمام عليٰ كرم الله وجهه، فمنهم من أغرق في نفس

^(١) الإتقان: ١٨٦/٢ بتصريف.

التشيّع حتّى كفر، وعلى رأس هؤلاء ابن سبأ اليهودي الخبيث الذي ما اعتنق الإسلام إلا بقصد الكيد له، والدسّ فيه، ومنهم من يعتقد بأن الأمين جبريل قد أتاه وأخطأ في النزول، وأنه كان سينزل بالرسالة على عليٍّ عليه السلام، فأخذوا نزل على محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه، وهؤلاء كانوا دائماً في حرب وخصومة مع المسلمين، حتّى ورد أن علياً نفسه شنَّ الغارة عليهم، وحاربهم، وطاردهم على كفرهم وضلالهم.

ومنهم أناس معتدلون، لم يسقطوا في هاوية الكفر، وإنما خالفوا أهل السنة والجماعة، واعتقدوا بأفضلية عليٍّ عليه السلام على جميع الصحابة رضي الله عنهم، وأنه أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وباحتىته بالخلافة؛ لأنّه من أهل البيت، واعتقدوا بأنّ الخلفاء الثلاثة قد سلّبوا علياً عليه السلام حقّه في توليهم الخلافة، ومنهم من يفضل علياً عليه السلام فقط، ومنهم من لا يكتفي بذلك، بل يشتم الشیخین أباً بكر وعمر رضي الله عنهم، ويعتقد فيهم الضلال - والعياذ بالله - مع أن الله تعالى أثني علیهما في آيات عديدة، وجعلهم من خاصة أصحاب نبیه الکریم علیه الکریم الصلاة والسلام، وسنعرض إلى نماذج من تأویلات "الاثنا عشرية"، والشیعة "السبیة" في كتاب الله الکریم.

من تفسيرات الشیعة "الاثنا عشرية":

- ١- ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا أَنفُثُمْ﴾ (الحج: ٢٩) فسّروه بلقاء الإمام علي عليه السلام.
- ٢- ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتَبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ (النازعات: ٧، ٦) الراجفة: الحسين، والرادفة: أبوه علي كرم الله وجهه رضي الله عنهما.
- ٣- ﴿إِنَّمَا وَلِكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (المائدة: ٥٥) يعني بالذين آمنوا: الأئمة الاثنى عشرية.
- ٤- ﴿لَا تَتَحِذُّوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (التحل: ٥١) أي لا تخذلوا إمامين، إنما هو إمام واحد.
- ٥- ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (الزمر: ٦٩) أي أشرقت بنور الإمام عليه السلام.
- ٦- ﴿مَثُلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَمَا دِيْشَنَتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ (ابراهيم: ١٨) الآية، فسّروها

بأن من لم يقر بولاية علي عليهما السلام بطل عمله، وأصبح كالرماد الذي تحمله الريح فتدروه.

٧- ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (الباب: ٤٠) أي من شيعة أبي تراب وهي كنية على ضمته.

من تفسيرات السبيئة:

١- السبيئة من الشيعة، وهو يزعمون أن علياً كرم الله وجهه في السحاب، ويفسرون الرعد بأنه صوت علي ضمته، والبرق لمعان سوطه، أو تسممه، وإذا سمع أحدهم صوت الرعد يقول: عليك السلام يا أمير المؤمنين!

٢- ومن مزاعمهم أنهم يعتقدون بأن محمدًا ﷺ سيرجع إلى الحياة الدنيا، ويستدللون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهِيْذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُكَ إِلَى مَعَادِ﴾ (القصص: ٨٥) أي سيرجعلك إلى الدنيا.

٣- وفي آية الأمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ... وَحَمَلَهَا الْأَنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢) يزعمون أن الظلوم الجهول هو أبو بكر ضمته.

٤- وفي قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرْ﴾ (الحشر: ١٦) يفسرون الشيطان بأنه عمر ضمته.^(١)

ومن تفاسير الشيعة كتاب يسمى "مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار" وهو مطبوع، مؤلفه يدعى المولى "الكازاراني" من النجف، وهذا التفسير مشتمل على تأويلات تأويلات الباطنية، فالأرض يفسرها بالدين، وبالائمة عليهم السلام، وبالشيعة، وبالقلوب التي هي محل العلم وقراره، وبأخبار الأمم الماضية... إلخ.

فيقول في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ (النساء: ٩٧) المراد دين الله وكتاب الله. ويقول في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (غافر: ٨٢) المراد أو لم ينظروا في القرآن... إلخ.

^(١) انظر كتاب "الوشيعة في نقد عقائد الشيعة" ص: ٦٥. و"الفرق بين الفرق" للبغدادي، ص: ٢٣٠.

فأنت ترى أنه قد حمل اللفظ الذي لا يجهله أحد على معان غريبة من غير دليل، وما حمله على ذلك إلا مركب الهوى، والتعصب الأعمى لمذهبة، وذلك لا شك ضلال لا يقل عن ضلال الباطنية ولا البهائية: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادِ﴾ (غافر: ٣٣).^(١)

تفسيرات الباطنية:

الباطنية قوم لا يقبلون الأخذ بظاهر القرآن، وإنما يقولون: إن القرآن له "ظاهر وباطن"، ويعتقدون بأن المراد منه "الباطن" دون الظاهر، ويستدللون بقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ سُورٌ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد: ١٣).

وهم فرق متعددة نذكر أهمها:

- ١ - الإسماعيلية: نسبة إلى "إسماعيل" أكبر أولاد جعفر الصادق، وكانوا يعتقدون فيه الإمامة.
- ٢ - القرامطة: نسبة إلى "قرمط" إحدى قرى واسط، وقد تزعمهم رجل منها اسمه: "حمدان".
- ٣ - السبعية: نسبة إلى "السبعة"؛ لأنهم يعتقدون أن في كل سبعة منهم إماماً يقتدي به.
- ٤ - الحرمية: نسبة إلى "الحرمة"، وذلك؛ لأن هؤلاء يستحببون المحرمات والفواحش.^(٢)

نماذج عن تفسير الباطنية:

- ١ - قوله تعالى: ﴿هَتَرَ كَبَنَ طَبَقاً عَنْ طَبِيقٍ﴾ (الانشقاق: ١٩) قالوا: إنه إشارة إلى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء عليهم السلام، أي لتسلكن سبيل من قبلكم بالغدر في الأئمة بعد الأنبياء.
- ٢ - قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتْبِقُهُمْ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدْلُهُ﴾ (يونس: ١٥) يفسرونـه: ﴿أَوْ بَدْلُهُ﴾ أي بـدـلـلـ عـلـيـاـ، وـمـعـلـومـ أـنـ عـلـيـاـ لـمـ يـسـبـقـ لـهـ ذـكـرـ.

^(١) انظر كتاب "الوشيعة في نقد عقائد الشيعة" ص: ٦٥. و"الفرق بين الفرق" للبغدادي، ص: ٢٣٠.

^(٢) انظر كتاب "الفرق بين الفرق" للبغدادي.

- ٣ - قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آزَدُوا كُفُرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيغُفرُ لَهُمْ وَلَا يَغْفِرُ لَهُمْ سَبِيلًا﴾ (السباء: ١٣٧) قالوا: إن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنه، آمنوا بالنبي أولاً، ثم كفروا حيث عرضت عليهم ولادة علي رضي الله عنه، ثم آمنوا بالبيعة لعلي رضي الله عنه، ثم كفروا بعد موت النبي صلوات الله عليه، ثم ازدادوا كفراً بأخذ البيعة من كل الأمة. ^(١)
- ٤ - قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ (البقرة: ٦٧) قالوا: المراد بالبقرة "عائشة" رضي الله عنها. والمراد ﴿اَضْرِبُوهُ بِعَصْبِهَا﴾ (البقرة: ٧٣) : طلحة والزبير رضي الله عنهما.
- ٥ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ (المائدة: ٩٠) قالوا: المراد بهما: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.
- قاتلهم الله أني يؤفكون - .

وباختصار، فمذهب الباطنية وباءُ وضلال، وانتقل إليهم من المحسوس، وهو يتوّلون "الجنابة" بإفشاء السر، ويتوّلون "الغسل" بتجديد العهد، و"التيسم" بالأخذ عن المأذون، و"الصوم" بالإمساك عن كشف السر إلى آخر ما لديهم من ضلالات ونجاسات.

وهذه التأويلات الفاسدة من أشد وأنكى ما يصاب به الإسلام والمسلمون؛ لأنها تؤدي إلى نقض بنian الشرعية حجراً حجراً، وتجعل القرآن ألغوية بين أيدي هؤلاء الأئم، ومن فضل الله أن كتبهم لم تظهر إلى الوجود، وأفهم يخفون هذا في نفوسهم، وينفثون به بين كل حين وآخر، وهم إلى الزوال والفناء إن شاء الله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١).

* * * *

^(١) الوشيعة في نقد عقائد الشيعة، ص: ٦٥.

أشهر كتب التفسير بالرواية والدرائية والإشارة

مع تعريف موجز عن أصحابها

أشهر كتب التفسير بالتأثير:

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ	الشهرة	الوفاة
١	جامع البيان في تفسير القرآن	محمد بن حمیر الطبری	٢٣١٠ هـ	تفسير الطبری	
٢	بحر العلوم	نصر بن محمد السمرقندی	٢٣٧٣ هـ	تفسير السمرقندی	
٣	الكشف والبيان	أحمد بن إبراهيم الشعبي النيسابوري	٤٢٧ هـ	تفسير الشعبي	
٤	معالم التنزيل	الحسين بن مسعود البغوي	٥١٥ هـ	تفسير البغوي	
٥	المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز	عبد الحق بن غالب الأندلسي	٥٤٦ هـ	تفسير ابن عطية	
٦	تفسير القرآن العظيم	إسماعيل بن عمر الدمشقي	٧٧٤ هـ	تفسير ابن كثير	
٧	الجواهر الحسان في تفسير القرآن	عبد الرحمن بن محمد الشعالي	٨٧٦ هـ	تفسير الجواهر	
٨	الدر المنشور في التفسير بالتأثير	جلال الدين السيوطي	٩١١ هـ	تفسير السيوطي	

التعريف بكتب التفسير بالتأثر

١ - تفسير ابن جرير:

مؤلفه: هو ابن جرير الطبرى، وكتنيته "أبو جعفر" ولد سنة ٢٤٢ هـ، وتوفي سنة ٥٣١ هـ، وكتابه من أجل التفاسير بالتأثر، وأصحها وأجمعها لأقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهما، ويعتبر المرجع الأول للمفسرين، قال النووي رحمه الله:

"كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله."

مزايا هذا التفسير:

- ١ - اعتماده على المؤثر من أقوال النبي صلوات الله عليه وسلم والصحابة والتابعين رضي الله عنهم.
- ٢ - عرضه للأسانيد وللأقوال المروية، وترجيحه للروايات.
- ٣ - إحاطته بالناسخ والمنسوخ من الآيات، ومعرفته لطرق الرواية: صحيحة وسقيمة.
- ٤ - ذكره لوجوه الإعراب، واستنباط الأحكام الشرعية من الآيات الكريمة.

وأخيراً فهو كتاب عظيم جليل، حافل بالروائع إلا أنه يذكر أحياناً أخباراً بأسانيد غير صحيحة، ثم لا يتبّه على عدم صحتها، كما أنه يسوق بعض أخبار هي من "الروايات الإسرائيلية"، وتفسيره مطبوع منتشر في الأقطار، وهو عدمة لأكثر المفسرين.

٢ - تفسير السمرقندى:

مؤلفه: نصر بن محمد السمرقندى، وكتنيته "أبو الليث" توفي سنة ٣٧٣ هـ، وكتابه يسمى: "بحر العلوم"، وهو تفسير بالتأثر، يذكر فيه كثيراً من أقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، غير أنه لا يذكر الأسانيد، وهو مخطوط في مجلدين، وتوجد نسخة منه في مكتبة الأزهر.

٣ - تفسير الشعبي:

مؤلف هذا التفسير: هو أحمد بن إبراهيم الشعبي النيسابوري، المقرئ المفسّر، كنيته "أبو إسحاق" وقد توفي سنة ٤٢٧ هـ، أما ولادته فليست معروفة على وجه الضبط، وكتابه يسمى "الكشف والبيان عن تفسير القرآن".

يفسر القرآن بما ورد عن السلف مع اختصاره للأسانيد اكتفاء بذكرها في مقدمة الكتاب، ويتوسع في الأبحاث النحوية والفقهية، وهو مولع بالقصص والأخبار، ولهذا فإننا نجد في تفسيره "قصصاً إسرائيلية" نهاية في الغرابة، بل منها ما هو باطل قطعاً.

يقول ابن تيمية عنه: "الشعبي في نفسه فيه خير ودين، ولكنه حاطب ليل".^(١)

وتفسيره مخطوط غير كامل ينتهي إلى آخر سورة الفرقان، وهو موجود بمكتبة الأزهر، وبافي الكتاب مفقود.

٤ - تفسير البغوي:

مؤلف هذا التفسير: هو الحسين بن مسعود الفراء البغوي، الفقيه، المفسّر الحدث الملقب بـ "محبي السنة"، كنيته "أبو محمد" توفي سنة ٥١٠ هـ بعد أن جاوز الثمانين من العمر، وكان إماماً جليلًا، ورعاً زاهداً، جامعاً بين العلم والعمل، وقد عده السبكي من أعلام علماء الشافعية.

وقال ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير: "والبغوي في تفسيره مختصر من الشعبي، ولكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة، والآراء المبدعة".^(٢)

وقد طبع هذا التفسير مع تفسير ابن كثير. كما طبع مع تفسير الخازن، وتفسيره هذا فيه بعض "القصص الإسرائيلية"، ولكنه في جملته أحسن وأسلم من كثير من كتب التفسير بالتأثر.

^(١) أصول التفسير لابن تيمية ص: ١٩٩.

^(٢) المرجع السابق ص: ١٩٩.

٥ - تفسير ابن عطية:

مؤلف هذا التفسير: هو عبد الحق بن غالب بن عطية، الأندلسي، المغربي، الغرناطي، وكتبه "أبو محمد"، ولد سنة ٤٨١ هـ، وتوفي سنة ٥٤٦ هـ.

كان نحوياً لغويًا، أديباً شاعراً على غاية من الذكاء والدهاء، وقد تولى القضاء بالأندلس في العصور الذهبية للإسلام، وتفسيره يسمى "الحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، وقد جمع فيه مؤلفه الأقوال التي ذكرها علماء التفسير بالتأثر، وتحري ما هو أقرب إلى الصحة منها.

وابن تيمية في فتاواه يعقد مقارنة بين تفسير ابن عطية، وتفسير الزمخشري، فيقول: "وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري، وأصح نقلًا وبحثًا وأبعد عن البدع، وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير".^(١)

وهذا الكتاب على شهرته الواسعة، ومزاياه الفريدة، لا يزال مخطوطاً إلى اليوم، وهو يقع في عشر مجلدات كبار، ولعل الله يوفق من يخرج لنا هذا الكنز الثمين، ويطبعه ليعم به نفعه.

٦ - تفسير ابن كثير:

مؤلف هذا التفسير هو الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمرو بن كثير، القرشي الدمشقي، كنيته "أبو الفداء"، ولد سنة ٧٠٠ هـ، وتوفي سنة ٧٧٤ هـ.

كان ابن كثير حفظة جبلاً شامخاً، وبحراً ذاخراً في جميع العلوم، وخاصة في التاريخ والحديث والتفسير، وكان إماماً جليلًا، متفنّناً في أسلوب الكتابة والتأليف، قال الذهبي عنه:

"الإمام الفتى، المحدث الرابع، فقيه متفنّن، محدث متقن، مفسّر نقال، وله تصانيف مفيدة". وتفسيره هذا يسمى "تفسير القرآن العظيم" وهو من أشهر ما دون في التفسير بالتأثر، ويعتبر الكتاب الثاني بعد كتاب الطبرى، اعتبر في مؤلفه بالرواية عن مفسّرى السلف، فروى

^(١) فتاوى ابن تيمية: ١٤٢ / ٢.

الأحاديث والآثار مسندة إلى أصحابها، وتكلم عن بعضها بالجرح والتعديل، ورد ما كان منها منكراً، أو غير صحيح، وهكذا يعتبر تفسيره من أحسن ما كتب في التفسير بالتأثر. وطريقته في التفسير أنه يذكر الآية، ثم يفسرها بعبارة سهلة موجزة، ويأتي لها بشواهد من آيات أخرى، ويقارن بين هذه الآيات حتى يتبيّن المعنى ويظهر المراد، وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير، الذي يسمونه "تفسير القرآن بالقرآن".

وأنا أنقل طرفاً مما جاء في مقدمة تفسيره، يقول - طَيْبُ اللَّهِ ثَرَاه - :

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أن أصح الطريق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك، فعليك بالستنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام الشافعي رض: كل ما حكم به رسول الله صل فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَكَ اللَّهُ﴾ (النساء: ٥٠).

وقال صل: "ألا وإن أوتيت القرآن ومثله معه".^(١)

وما يمتاز به "ابن كثير" أنه ينبه إلى ما في التفسير بالتأثر من منكرات الإسرائييليات ويهذّر منها، وعلى الجملة: فعلم ابن كثير يتحلى بوضوح لمن يقرأ تفسيره وتاريخه، وهو من خير ما ألف، ومن أفضل ما كتب، وتفسيره هذا من أصح التفاسير بالتأثر، وإن لم يكن أصحها جميماً.

٧ - تفسير الجوادر:

مؤلف هذا التفسير: هو الإمام الجليل عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الشعالي، الجزائري المغربي، المتوفى سنة ٨٧٦هـ، وتفسيره هذا من التفسير بالتأثر، نقل فيه أقوال السلف الصالح، وميز بين الصحيح والضعيف، وتفسيره هذا مطبوع.

^(١) تفسير ابن كثير" .٣/١

٨- تفسير السيوطي:

مؤلف هذا التفسير: الإمام الحجة الثقة جلال الدين السيوطي، صاحب المؤلفات الشهيرة، المولود سنة ٨٤٩هـ، المتوفى سنة ٩١١هـ، وتفسيره هو المسمى "الدر المثور في التفسير بالتأثر" قال في مقدمته: إنه لخَصَّه من كتاب ترجمان القرآن، وهو التفسير المسند إلى رسول الله ﷺ، وهو مطبوع بمصر، وقد ذكر في كتابه الإتقان: أنه شرع في تفسير جامع لما يحتاج إليه من التفاسير المنقوله، والأقوال المعقولة، والاستنباط، والإشارات، والأعاريب، واللغات، ونكت البلاغة، ومحاسن البديع، وسماه "جمع البحرين، ومطلع البدرين"، وهو غير هذا التفسير المسمى بالدر، وقد أحصيَت مؤلفاته، فبلغت قريباً من خمس مائة، رحمة الله تعالى على ما قدم في سبيل خدمة العلم والدين.

* * *

مشاهير كتب التفسير بالدراءة

أشهر كتب التفسير بالدراءة "بالرأي"

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ الوفاة	الشهرة
١	مفاتيح الغيب	محمد بن عمر بن الحسين الرازى	٦٠٦ هـ	تفسير الرازى
٢	أنوار التنزيل وأسرار التأويل	عبد الله بن عمر البيضاوى	٦٨٥ هـ	تفسير البيضاوى
٣	باب التأويل في معاني التنزيل	عبد الله بن محمدالمعروف بالخازن	٧٤١ هـ	تفسير الخازن
٤	مدارك التنزيل وحقائق التأويل	عبد الله بن أحمد النسفي	٧٠١ هـ	تفسير النسفي
٥	غرائب القرآن ورغائب الفرقان	نظام الدين الحسن محمد النيسابوري	٧٢٨ هـ	تفسير النيسابوري
٦	إرشاد العقل السليم	محمد بن محمد بن مصطفى الطحاوي	٩٥٢ هـ	تفسير أبي السعود
٧	البحر الحيط	محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي	٧٤٥ هـ	تفسير أبي حيان
٨	روح المعانى	شهاب الدين محمد الآلوسي البغدادي	١٢٧٠ هـ	تفسير الآلوسي
٩	السراج المنير	محمد الشربى الخطيب	٩٧٧ هـ	تفسير الخطيب
١٠	تفسير الجلالين	أ- جلال الدين المحلبي	٨٦٤ هـ	تفسير الجلالين
	ب- جلال الدين السيوطي		٩١١ هـ	

التعريف بكتب التفسير بالرأي

١ - تفسير الفخر الرازي:

مؤلف هذا التفسير: هو العلامة الشيخ محمد بن عمر الرازي، المتوفى سنة ٦٠٦هـ، وتفسيره يسمى "مفاتيح الغيب"، وقد سلك في تفسيره مسلك الحكماء الإلهيين، فصاغ أداته في مباحث الإلهيات، ورد على المعتزلة والفرق الضالة بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، وتعرض لشبهات المنكرين والجادلين بالنقض والتفنيد، وتفسيره من أوسع التفاسير في موضوع علم الكلام، كما أنه في العلوم الطبيعية والكونية إمام جليل، فقد تكلم عن الأفلاك والأبراج، وعن السماء والأرض، والحيوان والنبات، وفي أجزاء الإنسان بشكل واسع، وغرضه نصرة الحق، وإقامة البراهين على وجود الله عزّ وعلا، والرد على أهل الزيف والضلال.

٢ - تفسير البيضاوي:

مؤلف هذا التفسير: هو العالم الجليل الشيخ عبد الله البيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥هـ، وتفسيره يسمى "أنوار التنزيل"، وهو كتاب جليل دقيق، جامع بين الرواية والدرية، وهو يقرر الأدلة على مذهب أهل السنة، وهو حجة ثبت، وقد التزم أن يختتم كل سورة بما روي في فضلها من الأحاديث غير أنه لم يتحرر الصحيح، وله حواش عديدة أشهرها حاشية الشهاب الخفاجي، وحاشية سعدي آفندي.

٣ - تفسير الخازن:

مؤلف هذا التفسير: الإمام عبد الله بن محمد، المشهور بالخازن، المتوفى سنة ٧٤١هـ، وتفسيره يسمى "لباب التأویل في معانی التنزيل"، وهو تفسير مشهور - يعني بالمؤلف - بيد أنه لا يذكر السنده، وعبارته سهلة لا تعقيد فيها ولا غموض، وله ولوع بالتوسيع في الروايات والقصص،

وقد يذكر في تفسيره بعض الروايات الإسرائيلية؛ لينبه على ما فيها من باطل، فيسوق القصة الطويلة، ثم يحكم عليها بالضعف أو الكذب، ولكنه في بعض الأحيان يسكت عنها، حتى يظن القارئ أن هذه الرواية صحيحة، وبالجملة فتفسيره حسن رائع، لو لا كثرة ما فيه من قصص وروايات لا يحسن ذكرها؛ لكونها ضعيفة أو مكذوبة.

٤ - تفسير النسفي:

مؤلف هذا التفسير هو الشيخ العالم الزاهد عبد الله بن أحمد النسفي، المتوفى سنة ٧٠١ هـ، وتفسيره يسمى "مدارك التنزيل وحقائق التأويل"، وهو تفسير حليل، متداول مشهور، سهل ودقيق، يعتبر بالنسبة لبقية التفاسير بالرأي أو جزء تفسير وأوسطه، قال فيه صاحب كشف الظنون: "هو كتاب وسط في التأويلاط، جامع لوجه الإعراب والقراءات، متضمن لدقائق علم البدع والإشارات، مرشح لأقاويل أهل السنة والجماعة، خالٍ من أباطيل أهل البدع والضلال، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل".

٥ - تفسير النيسابوري:

مؤلف هذا التفسير: هو الشيخ نظام الدين الحسن محمد النيسابوري، المتوفى ٧٢٨ هـ، وتفسيره يسمى "غرائب القرآن ورغائب الفرقان"، ويتميز هذا التفسير بسهولة عبارته وبتحقيق ألفاظه مع خلوه من الحشو والتعقيد، وقد عُني بأمررين يلتزمانهما: الكلام على القراءات، والكلام على التفسير الإشاري، وهو مطبوع طبعة شهيرة على هامش تفسير ابن جرير، وهو مختصر لتفسير الفخر الرازي مع تهذيب كبير.

٦ - تفسير أبي السعود:

مؤلف هذا التفسير العالم اللغوي، الحجة الضليع، القاضي محمد بن محمد بن مصطفى الطحاوي، المشهور بأبي السعود، المتوفى سنة ٩٥٢ هـ، وتفسيره هذا يعتبر من أحسن التفاسير وأجمعها؛

لأنه غاية في حسن الصوغ، وجمال التعبير، كشف فيه عن أسرار البلاغة القرآنية، والحكم الربانية، يستهويك حسن تعبيره، ويروّلك سلامـة تفكيره، ويروعك ما أخذ نفسه به من تحلية بلاغة القرآن، والعناية في بيان إعجازه مع سلامـة في النونق، ومحافظة على عقائد أهل السنة، وبعد عن الحشو والتطويل، وتفسيره دقيق يحتاج لفهمه الخاصة من أهل العلم.

٧ - تفسير أبي حيان:

مؤلف هذا التفسير هو الشيخ محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، المتوفى سنة ٧٤٥ هـ، وتفسيره يسمى "البحر المحيط"، وهو في ثمانين مجلدات ضخمة، وقد جمع المؤلف فيه فنون العلوم من نحو، وصرف، وبلاغة، وأحكام فقهية إلى غير ما هنالك، ويعتبر هذا التفسير مرجعاً هاماً من مراجع التفسير، وعبارة سهلة، ليس فيها تعقيد أو غموض، وسماه "البحر المحيط"؛ لكثرة ما فيه من علوم متنوعة تتعلق بمادة التفسير.

٨ - تفسير الآلوسي:

مؤلف هذا التفسير هو الإمام العالم الجهيد شهاب الدين السيد محمود الآلوسي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ مفتى بغداد، حجة الأدباء، وقدوة العلماء، ومرجع أهل الفضل والعرفان، كان رحمة الله على جانب عظيم من الفهم والعلم وسعة الاطلاع، وكتابه المسمى "روح المعاني" جامع لأراء السلف روایة ودرایة، مشتمل على أقوال أهل العلم، جامع لخلاصة ما سبقه من التفاسير، وهو شديد النقد للروايات الإسرائيلية، يعني بالتفسير الإشاري، وبوجوه البلاغة والبيان، ويعتبر تفسيره من خير المراجع في علم التفسير بالرواية والدرایة والإشارة.

أشهر تفاسير آيات الأحكام

الرقم	اسم الكتاب والمذهب	اسم المؤلف	تاريخ الوفاة	الشهرة
١	أحكام القرآن (حنفي)	أحمد بن علي الرازي الجصاص	١٣٧٠ هـ	تفسير الجصاص
٢	أحكام القرآن (شافعى)	علي بن محمد الطبرى الكيا المهراوى	٥٠٤ هـ	تفسير الكيا المهراوى
٣	الإكيليل في استباط التزيل (شافعى)	جلال الدين السيوطي	٩١١ هـ	تفسير السيوطي
٤	أحكام القرآن (مالكى)	محمد بن عبد الله الأندلسى	٤٣٥ هـ	تفسير ابن العربي
٥	الجامع لأحكام القرآن (مالكى)	محمد بن أحمد بن فرح القرطى	٦٧١ هـ	تفسير القرطى
٦	كتزان العرفان (شيعي)	مقداد بن عبد الله السعورى	التاسع الحجرى	تفسير السعورى
٧	الثمرات اليانعة (زيدى)	يوسف بن أحمد الثلاثى	٨٣٢ هـ	تفسير الزيدى

أشهر كتب التفسير الإشاري

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الشهرة
١	تفسير القرآن الكريم	سهل بن عبد الله التستري	تفسير التستري
٢	حقائق التفسير	أبو عبد الرحمن السلمى	تفسير السلمى
٣	الكشف والبيان	أحمد بن إبراهيم النيسابورى	تفسير النيسابورى
٤	تفسير ابن عربى	محبى الدين بن عربى	تفسير ابن عربى
٥	روح المعانى	شهاب الدين محمد الآلوسى	تفسير الآلوسى

أشهر تفاسير المعزلة والشيعة

الرقم	اسم الكتاب والمذهب	اسم المؤلف	تاريخ الوفاة الشهارة
١	تذريه القرآن عن المطاعن (معتلبي)	عبد الجبار بن أحمد الهمداني	٤١٥ هـ
٢	أمالی الشريف المرتضی (معتلبي)	علي بن أحمد الحسين	٤٣٦ هـ
٣	الکشاف (معتلبي)	محمد بن عمر الزمخشري	٥٣٨ هـ
٤	مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار	عبد اللطيف الكازاراني	غير معروف
			(شيعي)
٥	تفسير العسكري (شيعي)	الحسن بن علي الهادي	٢٦٠ هـ
٦	جمع البيان (شيعي)	الفضل بن الحسن الطبرسي	٥٣٨ هـ
٧	الصافي في تفسير القرآن (شيعي)	محمد بن الشاه مرتضى الكاشي	١٠٩٠ هـ
٨	تفسير القرآن (شيعي)	عبد الله بن محمد العلوي	١٢٤٢ هـ
٩	بيان السعادة (شيعي)	سلطان محمد بن حيدر الخراساني	١٣١٥ هـ

أشهر كتب التفسير في العصر الحديث

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الشهرة
١	تفسير القرآن الكريم	محمد رشيد رضا	تفسير المنار
٢	تفسير المراغي	أحمد مصطفى المراغي	تفسير المراغي
٣	محاسن التأويل	جمال الدين القاسمي	تفسير القاسمي
٤	في ظلال القرآن	الشهيد سيد قطب	تفسير الظلال
٥	التفسير الواضح	محمد محمود الحجازي	التفسير الواضح
٦	تفسير الجوهر	طنطاوي جوهري	تفسير الجوهر
٧	تيسير التفسير	الشيخ عبد الجليل عيسى	تفسير عيسى
٨	المصحف المفسر	محمد فريد وجدي	تفسير وجدي
٩	الهداية والعرفان	أبو زيد الدمنهوري	تفسير الدمنهوري
١٠	صفوة البيان	حسنين مخلوف	تفسير مخلوف
١١	فتح البيان	صديق حسن خان	تفسير حسن خان

وهناك تفاسير أخرى غير هذه التفاسير السابقة، لم نذكرها خشية التطويل، والله الموفق، والهادي إلى سواء السبيل.

الفصل الثامن:

المفسرون من التابعين

إذا ذكر المفسرون من التابعين، فإنهم يعتبرون كثرة كثيرة، ويعدون في العدد أكثر من الصحابة، ذلك؛ لأن الذين اشتهروا بالتفسير من الصحابة لا يزيدون على عشرة – كما ذكر ذلك السيوطي في كتابه الإتقان –، وقد تقدم معنا أسماؤهم، وذكرنا نبذة عن ترجمة مشاهيرهم.

أما التابعون فقد كثر فيهم المفسرون، واشتهروا شهرة واسعة، وبلغ فيهم رجال أفذاذ، اعتنوا عنابة كبيرة بتفسير كتاب الله تعالى، وعنهم نقل المفسرون معظم الآراء، وقد انقسموا إلى طبقات ثلاث:

١ - طبقة أهل مكة.

٢ - طبقة أهل المدينة.

٣ - طبقة أهل العراق.

١ - أما الطبقة الأولى:

وهي طبقة أهل مكة، فقد أخذوا علومهم من شيخ المفسرين وترجمان القرآن سيدنا عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما، وقد نقل السيوطي عن ابن تيمية رحمه الله أنه قال: "أعلم الناس بالتفسير أهل مكة؛ لأنهم أصحاب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما".

وقد اشتهر منهم عدد كبير، وظهر فيهم رجال أفذاذ، على رأسهم: "مجاحد، وعطاء، وعكرمة، وطاوس، وسعيد بن جبير"، وسنعرض بترجمة موجزة لحياة هؤلاء العلماء الأعلام:

مجاحد بن جبر:

أما مجاهد: فقد ولد سنة ٢١، وتوفي سنة ١٠٣ هجرية، وهو: مجاهد بن جبر، وكنيته أبو الحجاج

ال McKay ، كان من أشهر العلماء في التفسير، قال عنه الذهبي: "شيخ القراء والمفسرين بلا مراء، أخذ التفسير عن ابن عباس".^(١)

وكان من أخص تلامذته، ومن أوثق من روى عنه، ولهذا يعتمد البخاري كثيراً على تفسيره، كما يعتمد كثير من المفسرين على روایته، تنقلَ في الأسفار، واستقر في الكوفة، وكان لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب، فنظر إليها.

تلقي مجاهد تفسير كتاب الله عن شيخه الجليل ابن عباس، وقرأه عليه قراءة تفهم وتلدير ووقف عند كل آية من آيات القرآن، يسأله عن معناها، ويستفسره عن أسرارها، روى الفضيل بن ميمون عن مجاهد أنه قال:

"عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عروضات، أقف عند كل آية منه أسأله عنها: فيم أنزلت؟ وكيف أنزلت؟".

وهذا العرض من مجاهد عليه شيخه الجليل، إنما كان طلباً لتفسيره، ومعرفة أسراره و دقائقه، وتفهم حكمه وأحكامه، ولهذا قال الإمام النووي عليه السلام:

"إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به" أي يكفي هذا التفسير، ويغنى عن غيره من التفاسير إذا كان راويه الإمام مجاهد.

عطاء بن أبي رباح:

وأما عطاء بن أبي رباح: فقد ولد سنة ٢٧ هجرية، وتوفي سنة ١١٤ هجرية، نشأ بمكة، وكان مفتى أهلها ومحديثها، وهو تابعي من أحياء الفقهاء، وكان ثبتاً ثقة في الرواية عن ابن عباس.^(٢) قال عنه الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان: "ما لقيت أحداً أفضل من عطاء بن أبي رباح". وقال قتادة: أعلم التابعين أربعة عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وسعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير... إلخ.

^(١) انظر الأعلام: ٦١/٦.

^(٢) الأعلام للزركلي: ٥/٢٩.

توفي صلوات الله عليه، ودفن فيها عن سبع وثمانين (٨٧) سنة.

عكرمة مولى ابن عباس:

وأما عكرمة: فقد ولد سنة ٢٥ هجرية، وتوفي سنة ١٠٥ هجرية.

قال عنه الإمام الشافعي صلوات الله عليه: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة، وهو مولى ابن عباس صلوات الله عليهما، تلقى علمه على ابن عباس، وأخذ عنه القرآن والسنة، وكان صلوات الله عليه يقول: لقد فسرت ما بين اللوحين،^(١) وكل شيء أحدثكم في القرآن، فهو عن ابن عباس.

جاء في تعريفه في كتاب "الأعلام" ما يلي:

"عكرمة بن عبد الله البريري المديني أبو عبد الله، مولى عبد الله بن عباس، تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي، طاف البلدان، وروى عنه زهاء ثلاثة رجال، منهم أكثر من سبعين تابعياً، وخرج إلى بلاد المغرب، فأخذ عن أهلها، ثم عاد إلى المدينة المنورة، فطلبته أميرها، فتغيب عنه حتى مات، وكانت وفاته بالمدينة هو، والشاعر المشهور "كثير عزة" في يوم واحد فقيل: مات أعلم الناس، وأشعر الناس".^(٢)

طاوس بن كيسان اليماني:

وأما طاوس: فقد ولد سنة ٣٣ هجرية، وتوفي سنة ١٠٦ هجرية، وهو "طاوس بن كيسان اليماني" اشتهر بتفسير كتاب الله تعالى، وكان آية في الحفظ والنبوغ والذكاء، وآية في الورع والتقوّف والصلاح، أدرك من الصحابة نحو خمسين صحابياً، وتلقى العلم عنه خلق كثير، وقد كان عابداً زاهداً، ورد أنه حج بيت الله الحرام أربعين مرة، وكان مستحاجب الدعوة، قال فيه ابن عباس صلوات الله عليهما: إني لأظن طاووساً من أهل الجنة.

^(١) يزيد باللوحين: ما بين دفتير المصحف.

^(٢) الأعلام للزركلي: ٤٣/٥.

جاء في تعريفه في كتاب "الأعلام" ما يلي:

"طاوس بن كيسان الخولاني الهمداني أبو عبد الرحمن، من أكابر التابعين تفقها في الدين، وروايةً للحديث، وتقشفا في العيش، وجرأةً على وعظ الخلفاء والملوك، أصله من الفرس، وموالده ومنشئه باليمن، توفي حاجا بالمردففة، وكان "هشام بن عبد الملك" حاجا تلك السنة، فصلى عليه، وكان يأبى القرب من الملوك والأمراء، قال ابن عيينة: متجمبو السلطان ثلاثة: أبوذر، وطاوس، والثوري".^(١)

سعيد بن جبير:

وأما سعيد بن جبير: فقد ولد سنة ٤٥ هجرية، وتوفي سنة ٩٤ هجرية، وهو من أكابر التابعين علمًا وورعا، وقد اشتهر بتفسير كتاب الله عز وجل، وكان طودا شامخا، وعلمًا لاما، تناقل علمه الرجال، وسرت بذكره الركبان.

وقد قال سفيان الثوري: خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك. وقال قتادة: كان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير.^(٢)

كان آية في الحفظ، يحفظ ما يسمع، وقد شهد له ابن عباس بالحفظ حتى قال له: "انظر كيف تحدث عني، فإنك قد حفظت عني حديثا كثيرا". وكان ابن عباس بعد أن فقد بصره إذا أتااه أهل الكوفة يسألونه قال: تسألوني، وفيكم ابن أم دهماء، يعني - سعيد بن جبير - رحمة الله. وقد كان عابدا زاهدا، يختم القرآن في كل ليلتين، وقدقرأ ذات مرة القرآن كله في ركعة واحدة في الكعبة.

وجاء في ترجمته في "الأعلام" ما يلي: "سعيد بن جبير، الأسدى الكوفى، أبو عبد الله، تابعى، كان أعلمهم على الإطلاق، وهو حبشي الأصل، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر^{رضي الله عنهما}،

^(١) الأعلام: ٣٢٢/٣

^(٢) الإنقاذ ص: ١٨٩. أي: أبى الحجاج أن يتركه يصلى متوجهًا إلى قبلة المسلمين.

ولما خرج عبد الرحمن بن الأشعث على عبدالملك بن مروان، كان سعيد بن جبير معه، فلما قتل عبد الرحمن ذهب سعيد إلى مكة، فقبض عليه واليها "خالد القسري"، وأرسله إلى الحجاج فقتله، وكان الحجاج يخاطبه " بشقيّ بن كسيّر" بدل سعيد بن جبير. قال أحمد بن حنبل: "قتل الحجاج سعيداً، وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه".

وروي أن الحجاج لما أراد قتله أمر الجلاّد أن ينطلق به، فيضرب عنقه، فقال له سعيد: دعني أصلّي ركعتين، قال الحجاج ماذا يقول؟ قال: يريد الصلاة، فأبى إلا أن يصلّي إلى المشرق^(٣) - قبلة النصارى - ثم أمر أن تضرب عنقه، ووجهه موجّه إلى غير القبلة، فأداروا وجهه، فقال سعيد عندئذ: ﴿فَإِنَّمَا تُؤْلُو افْشَمَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥)، ثم ضربت عنقه وهو يردد: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وذهبت نفسه البريئة الطاهرة إلى رها تشكو إليه ظلم الحجاج، وجاد بأنفاسه في سبيل عقيدته ودينه، رحمة الله وأسكنه فسيح جناته^(٤).

٢ - طبة أهل المدينة:

وقد اشتهر منهم عدد، على رأسهم: "محمد بن كعب القرظي، وأبو العالية الرياحي، وزيد بن أسلم" رحمه الله.

ونحن نتحدث عن هؤلاء الثلاثة الذين اشتهروا بالتفسیر من أهل المدينة المنورة، والذين كان لهم أثر عظيم في نقل علوم الصحابة، سواءً كان ذلك في الفقه، أو الحديث، أو التفسير، وإن كان هناك غيرهم من اشتهروا من التابعين، ولكن شهرة هؤلاء كانت أوسع، وأثرهم كان أظهر.

محمد بن كعب القرظي:

جاء في "هذيب التهذيب" للعسقلاني في ترجمته ما يلي:

"هو محمد بن كعب القرظي، أبو حمزة المدّني من حلفاء الأوس، سكن الكوفة، ثم المدينة،

^(١) انظر طبقات الكبير لابن سعد: ٢٥٧/٦.

روى عن جمع غفير من الصحابة وخاصة عن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود .
قال ابن سعد: كان ثقة عالماً كثير الحديث، ورعاً صالحاً.
قال عون بن عبد الله: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن منه.

ويذكر البخاري في سبب تسميته بـ"القرطي" أن أباه كان من لم ينبع يوم قريظة فترك، وذلك أن النبي ﷺ قتل الرجال من بني قريظة حينما خانوا العهود، وغدروا بالرسول، فأمر بقتل مقاتلتهم، وترك الأطفال والصبيان والنساء.

وقد كان من أفضل أهل المدينة علماً وفقها، وكان يحدث في المسجد، فسقط عليه السقف
وعلى أصحابه، فمات تحت الهدم، وكان ذلك سنة (١١٧) هجرية حَتَّى يَرَى.^(١)

أبو العالية الرياحى:

اسم رفيع بن مهران، وكنيته أبو العالية وهو مولى امرأة من بنى رياح، وهو تابعي ثقة من أهل البصرة، اشتهر بالفقه والتفسير، رأى أبا بكر، وقرأ القرآن على أبي بن كعب وغيره، وسمع من عمر، وابن مسعود، وعليّ، وعائشة، وغيرهم رحمهم الله.

روي عنه أنه قال: قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين. وكان منذ حداثة سنّه راغباً في العلم، مكباً على طلبه، حتى نبغ فيه وفاق الأقران، وخاصة في التفسير، وقد كان ابن عباس رض يرفعه على سريره وقريش أسفلاً منه، ويقول: هكذا العلم يزيد الشريف شرفاً، ويجلس الملوك على الأسرة، مات سنة ٩٣ هجرية عن عمر يناهز الشمانين، رحمه الله.

زید بن اسلم:

هو زيد بن أسلم العدوي العمري، يكنى: أباً أسامة، وهو فقيه محدث من أهل المدينة، كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته، واستقدمه الوليد بن يزيد في جماعة من فقهاء المدينة إلى دمشق

^(٤) انظر "تهدیب التهدیب": ٤٢١/٥.

مستفتياً في أمر، وكان ثقة كثير الحديث، له حلقة في المسجد النبوى، وله كتاب في "التفسير" رواه عنه ولده "عبد الرحمن"، وقد كان رجلاً مهيباً.

قال ابن عجلان: "ما هبتُ أحداً قط هببتي لزید بن أسلم".

وحدثَ ذات يوم بحديثٍ ولم يسنده، فسألَه رجلٌ يا أباً أسامة! عمن هذا؟ فقال: يا ابن أخي! ما كنا نجالس السفهاء.

وكان له حلقة كبيرة في المسجد النبوى الشريف، وكان علي بن الحسين يجلس إليه، فيستمع له ويترك مجالس قومه، فقيل له في ذلك: ترك مجالس قومك إلى عبد عمر بن الخطاب - حيث كان مولى عمر -، فقال علي: إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه، توفي عليه السلام بالمدينة المنورة سنة ١٣٦ هجرية.^(١)

٣ - طبة أهل العراق:

وقد اشتهر منهم عدد، وعلى رأسهم: الحسن البصري، ومسروق بن الأحدع، وقتادة بن دعامة، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني، ومرة الهمданى.

ونحن نتحدث عن ترجمة هؤلاء الأعلام بشيء من الإيجاز، فنقول: ومن الله نستمد العون.

الحسن البصري:

هو الحسن بن يسار البصري، إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمانه، يكنى: أباً سعيد، وهو أحد العلماء، والفصحاء، والشجعان، والنُّسَاك، ولد بالمدينة المنورة، وشبَّ في كنف^(٢) علي ابن أبي طالب، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية، فسكن البصرة، وعظمت هيبته في القلوب، فكان يدخل على الولاة، فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحق لومة لائم، رأى مائة وعشرين صاحبها، وكان من أ Finch أهل البصرة، وأعبدهم، وأفقهم.

^(١) تذكرة الحفاظ للذهبي: ٦٢ / ١

^(٢) الكنف: جانب الشيء، الظل، جمع: أكتاف، يقال: جعله في كنفه: أي أحاط به.

قال الغزالى: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة، وكان في غاية من الفصاحة، تنصيب الحكم من فيه.

قال أیوب: ما رأي عيناي رجلاً قط كان أفقه من الحسن البصري، كان يعي^(١) الحكم، وينطق بها، وكان إذا وعظ، أبكي الحاضرين كأنما كان في الآخرة، ثم جاء منها، فهو يخبر عمّا رأى وعاين، ولهذا فقد اشتهر بالوعظ، وكان رقيق القلب، فصيح اللسان.

وكان يحدث بالأحاديث البوية، فإذا حديث عن علي بن أبي طالب لم يذكره حشية من بطش الحاج، قال يونس بن عبيد: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد! إنك تقول قال رسول الله وإنك لم تدركه؟ قال يا ابن أخي! لقد سألتني عن شيء ما سألي عنـه أحد قبلك، ولو لا منزلتك مـنـي ما أخبرتك، إني في زمان كما ترى – وكان في عمل الحاجـاج – كل شيء سمعتني أقول: قال رسول الله فهو عنـ علي بن أبي طالب غيرـ أـيـ في زمان لا أـسـتـطـعـ أنـ أـذـكـرـ عـلـيـاـ.

ولما ولـي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه: إـنـيـ قدـ اـبـتـلـيـ بـهـذـاـ الـأـمـرـ، فـانـظـرـ لـيـ أـعـوـانـاـ يـعـيـنـوـنـيـ عـلـيـهـ، فـأـجـابـهـ الـحـسـنـ: أـمـاـ أـبـنـاءـ الدـنـيـاـ، فـلـاـ تـرـيـدـهـمـ، وـأـمـاـ أـبـنـاءـ الـآـخـرـةـ، فـلـاـ يـرـيدـونـكـ، فـاستـعـنـ بـالـلـهـ عـلـىـ أـمـرـكـ.

توفي بالبصرة سنة ١١٠ هجرية، ودفن فيها رحمة واسعة.

مسروق بن الأجدع:

مسروق بن الأجدع الهمداني، كوفي، تابعي ثقة، من أصحاب ابن مسعود الذين نقلوا لنا هدي الرسول ﷺ. وهو عابد فقيه يكنى: أبا عائشة، وقد اشتهر بالتفسير، ورواية الحديث، كان أبوه أفرس فارس باليمن، وكان خاله عمر بن معد يكرب.

^(١)يعي: وعيـاـ، وـعـيـ الشـيـءـ: جـمـعـهـ فـيـ الـوـعـاءـ، وـوـعـيـ الـحـدـيـثـ: حـفـظـهـ وـفـهـمـهـ، وـوـعـيـ الـأـمـرـ: أـدـرـكـهـ عـلـيـ حـقـيقـتـهـ.

^(٢)تمذيب التهذيب: ٢٦٣/٢.

^(٣)الأعلام: ٢٤٢/٢.

وقد تولى القضاء، فلم يكن يأخذ على القضاة رزقا، وكان قانعاً زاهداً، راضياً بما قسم الله مع أنه كان صاحب عيال، جاءته امرأته يوماً فقالت: يا أبا عائشة! إنه ما أصبح اليوم لعيالك رزق، فتبسم، ثم قال: والله ليأتينهم الله برزق، فرزقه الله رزقاً واسعاً. روي عنه أنه لقي عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، فسأله ما اسمك؟ قال: مسروق بن الأجدع، فقال له عمر: الأجدع شيطان، أنت مسروق بن عبد الرحمن، فكان بعد ذلك يقول: أنا مسروق بن عبد الرحمن.

قال علي بن المديني - شيخ البخاري - : ما أقدم على مسروق من أصحاب عبد الله بن مسعود أحداً، صلى خلف أبي بكر، ولقي عمر وعثمان رضي الله عنهما.

شهد القادسية مع إخوته الثلاثة، فقتلوا يومئذ بالقادسية، وجرح مسروق، فشلت يده، وله طريقة لطيفة في النصح والوعظ، خرج يوماً ومعه بعض تلامذته، فارتقي بهم على كنasaة في الكوفة، فقال: ألا أريكم الدنيا؟ هذه هي الدنيا: أكلوها فأفتوها، لبسوها فأبلوها، ركبواها فأنصوها، سفكوا فيها دماءهم، واستحلوا فيها محارفهم، وقطعوا فيها أرحامهم. ^(١)

سئل يوماً عن بيت شعر، فقال: أكره أن أرى في صحيفتي شعراً.

قتادة بن دعامة:

وأما قتادة: فهو أبو الخطاب السدوسي البصري، ولد في البصرة سنة ٦١، وتوفي سنة ١١٧ هجرية، وعمره ٥٥ سنة. روى عن أنس بن مالك وسعيد بن المسيب، وجمع من الصحابة رضي الله عنهم، وكان قوي الحفظ، شديد الذكاء، يروى عنه أنه قال: "ما قلت لحدث قط: أعدْ علىّ، وما سمعت أذناي شيئاً إلا وعاه قليّ". ويروى أنه دخل على سعيد بن المسيب، فجعل يسأله أيامًا، وأكثر عليه من السؤال، فقال له سعيد: أكل ما سألتني عنه تحفظه؟ قال: نعم، فتعجب منه، فقال له قتادة: سألك عن كذا، فقلت فيه كذا، وسألتك عن كذا، فقلت فيه كذا، حتى أورد

^(١) هذيب التهذيب: ٦/٨٢.

عليه جميع ما سمعه منه. فقال له سعيد: ما كنت أظن أن الله خلق مثلك، وقال عنه مرة: ما أتاني عراقي أحسن من قنادة.

وورئت عليه مرة صحفة جابر، فحفظها.^(١)

وقد كان ضريراً فاقد البصر، حيث ولد وهو أعمى، ولكنه كان آية في الحفظ والنبوغ والذكاء. وكان أحمد بن حنبل يطرب في ذكره والثناء عليه، وينشر من علمه وفقهه.

وكان إماماً في التفسير والفقه، ولكنه أخذ عليه أنه كان يأخذ عن كل أحد، حتى قال فيه الشعبي: قنادة حاطب ليل.^(٢)

توفي رحمه الله بالبصرة، ودفن بها، ولما مات بكى عليه أهل البصرة.

عطاء الخراساني:

قال الحافظ الأصبهاني: كان مولده سنة ٥٠، ووفاته سنة ١٣٥ هجرية. وهو عطاء بن أبي مسلم الخراساني، يكفي: أبو عثمان، وكان ثقة صدوقاً، عابداً زاهداً، كثير العبادة والتبتل، كان يحب النبي الليل مجدداً وصلاًةً. روى عبد الرحمن بن يزيد أنه كان يحب النبي الليل صلاةً، فإذا ذهب من الليل ثلثة، أو نصفه، نادانا يا فلان، ويَا فلان! قوموا، فتوضئوا وصلوا، فإن قيام الليل وصيام النهار أيسر من شراب الصديد.^(٣)

وكان يحب نشر العلم، فإذا لم يجد أحداً من تلامذته يحده ذهب إلى المساكين، فحدثهم خوفاً من الوعيد لكاتب العلم.

وقد اشتهر بالفقه والحديث والتفسير، وكان على غاية من الزهد والورع رحمه الله.^(٤)

^(١) تهذيب التهذيب: ٣٥١/٨.

^(٢) نفس المرجع، والجزء، والصفحة.

^(٣) انظر "تهذيب الكمال" للمزري: ٤٦٩/٤.

^(٤) انظر "تهذيب التهذيب": ١٠/٨٨.

مُرَّة الهمذاني:

هو مرة بن شراحيل الهمذاني، أدرك عدداً من الصحابة غير قليل، ويكتفى: أبو إسماعيل، وهو المعروف مُرَّة الطيب، ومرة الخير، لقب بذلك لعبادته، كان عابداً ورعاً، وزاهداً صالحاً.

قال العجلي: كان يصلّي في اليوم والليلة خمسمائه ركعة، وهو تابع ثقة، توفي سنة (٧٦) هجرية، رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

هؤلاء هم أعلام المفسرين من التابعين، استمدوا علومهم، وقبسوا معارفهم من الصحابة الكرام رض. وعنهم أخذ تابعوا التابعين، ومن بعدهم من العلماء العاملين، وهكذا حفظ دين الله، وكتابه، وشريعته، وعلومه و المعارفه، سليمة كاملة عن طريق التلقى والتلقين، جيلاً عن جيل، مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

ولقد صدق الرسول الكريم فيما نبأ عنه، وأخيراً حيث قال: "يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عدو له، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين".

وهكذا حفظ الله كتابه بحفظ هؤلاء الرجال الأعلام، والفتات الأفضل، الذين كرسوا جهودهم في خدمة العلم والدين، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأسكنهم فسيح جناته... آمين.

تنبيه:

يلاحظ على تفسير التابعين رحمهم الله أنه قد دخلت إلى أقوالهم بعض الروايات الإسرائيلية، واحتللت الصحيح بالعليل، ونقل على لسانهم بعض الروايات التي لم تثبت، فينبغي التنبه عند نقل أقوالهم إلى الصحيح منها، وأن يرجع الإنسان إلى المراجع الموثوقة من كتب التفسير، كتفسير ابن جرير وغيره من التفاسير الموثوقة.

قال السيوطي في كتابه "الإتقان" بعد أن ذكر أشهر المفسرين من التابعين ما نصه:

"فهؤلاء قدماء المفسرين، وغالب أقواهم تلقواها من الصحابة، ثم بعد هذه الطبقة ألفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين، كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، ويزيد بن هارون وآخرين، ثم جاء بعدهم ابن حرير الطبرى، وكتابه أجمل التفاسير وأعظمها".^(١)

* * * *

^(١) الإتقان للسيوطى: ٢٩٠.

الفصل التاسع:

إعجاز القرآن

العناية بدراسة القرآن العظيم:

لم يحدث في تاريخ البشرية أن أمة من الأمم اعنت بكتابها السماوي كما اعنت هذه الأمة الحمدية، ولم نسمع عن كتاب مقدس نال من الحفظ والرعاية، والإجلال والإكبار، كما ناله هذا الكتاب المجيد، معجزة "محمد" الخالدة، وحجته البالغة، ودعوته إلى الناس أجمعين.

ولا عجب أن ينال القرآن العظيم هذه المنزلة الرفيعة، ويحتل من نفوس المسلمين تلك المكانة الجليلة، ذلك؛ لأن الأحداث التي رافقت نزول هذا الكتاب المقدس، يجعله يتبوأ مكان الصدارة بين جميع الكتب السماوية، ويفوق كل ما جاء به الأنبياء والمرسلون، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من هداية وإصلاح، وتربيه وتعليم، وسمو وتشريع، ولقد أحسن وأبدع من قال:

اللهُ أَكْبَرُ إِنِّي مُحَمَّدٌ وَكُتُبَهُ أَهْدَى وَأَقْوَمُ قِيلَا
لَا تَذَكُّرُوا الْكِتَبَ السَّوَالِفَ عَنْهُ طَلَعَ الصَّبَاحُ فَأَطْفَلَهُ الْقِنْدِيلَا

القرآن معجزة "محمد" الخالدة:

وقد جرت حكمة الله الأزلية أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات، والدلائل الواضحات، والحجج والبراهين الدامغة، التي تدل على صدقهم، وعلى أنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير، وقد خص الله تبارك وتعالى نبينا صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمعجزة العظمى "القرآن الكريم". ذلك النور الرباني، والوحى السماوي، الذي ألقاه على قلب نبيه قرآناً عربياً غير ذي عوج، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، والذي أحيا به أجيالاً من العدم، كانت في عداد الموتى، فأحيتها الله بنور هذا القرآن،

وهداها أقوم طريق وانتشلها^(١) من الحضيض،^(٢) فجعلها خير أمة أخرجت للناس، وصدق الله حيث يقول: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مِنَا فَأَحْيَنَا وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

لقد أحيا القرآن أماء، وأوجد مجتمعاً، وألف حيلاً لم يعرف له التاريخ مثيلاً، فأخرج من العرب الذين كانوا رعاة الإبل والغنم، سادة الشعوب والأمم، فملّكهم الدنيا، حتى حكموا أقصاصي المعمورة، وكل ذلك بفضل هذا القرآن، معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين، وفي ذلك يقول أمير الشعراء:

أنجوك عيسى دعا ميتاً فقام له وأنت أححيت أجيالاً من العدم

ولئن كانت معجزة الأنبياء السابقين معجزات "حسية" تتناسب مع العصر والزمان الذي بعثوا فيه، كمعجزة موسى عليه السلام حيث كانت "اليد، والعصا"؛ لأنّه بُعث في زمن كثُر فيه السحر، واشتهر فيه السحر، وكذلك معجزة عيسى عليه السلام حيث كانت بإحياء الموتى، وإبراء الأكماء^(٣) والأبرص، والإخبار عن بعض المغيبات؛ لأنّه بُعث في عصر كثُر فيه الطب والحكمة، وظهر فيه الأطباء البارعون، فأتاهم عيسى بن مریم بما أدهشهم وأعجزهم من شفاء المرضى، وإحياء الموتى، وإبراء العمى، البكم، الصم.

أقول: إذا كانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات مادية حسية، فإن معجزة "محمد بن عبد الله" معجزة روحية عقلية، وقد خصّه الله بالقرآن، معجزة العقل الباقي على الرمان؛ ليراها ذوق القلوب والبصائر، فيستثيروا بضيائها، وينتفعوا بهديها في المستقبل والحاضر، فقد ورد عن سيد المرسلين عليه السلام أنه قال:

(١) انتشل الشيء: نشله ونشل الشيء نشلا: أسرع نزعه، يقال نشل اللحم من القدر ونشل الغريق من الماء.

(٢) الحضيض: ما سفل من الأرض.

(٣) الأكماء: الأعمى، قال تعالى: ﴿وَأَبْرَئُ الْأَكْمَاءَ وَالْأَبْرَصَ وَأَخْيَى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٤٩).

"ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أو حاه الله إلَيْ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعاً" (رواية البخاري).

أجل... هذا الوحي السماوي الذي ألقاه الله على قلب نبيه الأمين؛ ليكون ضياءً ورحمة للعالمين، هو معجزة الإسلام الخالدة، وحجته الباقيَة، تقوم على فم الدنيا شاهدة بصدق الرسول، ناطقة بعظمة الإسلام، وخلود هذا الدين، بينما ذهبت المعجزات الحسية، ومضت مع أحدها الكونية، وتلاشت من الوجود بعد وفاة الأنبياء الكرام، الذين أتوا بها، فلم يعد لها وجود وبيان إلا في هذا القرآن الذي أخبر عنها، فكان له الفضل الأعظم عليها، سابقاً ولاحقاً، والله در القائل حيث يقول:

جاءَ النَّبِيُّونَ بِالآيَاتِ فَانْصَرَمْتُ
 آيَاتُهُ كُلُّمَا طَالَ الْمَدْيَ جُدْدٌ يُزِيِّنُهُنَّ جَمَلُ الْعِنْقِ وَالْقِدْمِ
 الآيَاتُ: الْمَرَادُ بِهَا الْمَعْجَزَاتُ، جَمْعُ آيَةٍ بِمَعْنَى الْمَعْجَزَةِ. انصرمت: أَيْ ذَهَبَتْ بِذَهَابِهِمْ.

قال العالمة الزرقاني: ^(١)

"وهنا نلفت النظر إلى أن القرآن بما اشتمل عليه من المعجزات الكثيرة، قد كتب له الخلود، فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يمت بموت الرسول ﷺ، بل هو قائم على فم الدنيا يحتاج كل مكذب، ويتحدى كل منكر، ويدعو أمم العالم جماعة إلى ما فيه من هداية الإسلام، وسعادة بني الإنسان، ومن هذا يظهر الفرق جلياً بين معجزات النبي الإسلام ﷺ ومعجزات إخوانه الأنبياء عليهم أزكي الصلاة وأتم التسليم، فمعجزات محمد ﷺ في القرآن وحده آلاف مؤلفة، وهي ممتدة بالبقاء إلى اليوم، وإلى ما بعد اليوم، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، أما معجزات سائر الرسل: فمحفوظة العدد، قصيرة الأمد، ذهبت بذهاب زمانهم وماتت بموتهم، ومن يطلبها الآن لا يجدوها إلا في خبر كان، ولا يسلم شاهد له بها إلا هذا القرآن."

^(١) انظر "مناهل العرفان": ٢٣٢/٢

وتلك نعمة يمْنُها القرآن على سائر الكتب والرسُل، وما صَحَّ من الأديان كافَّة، قال تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾ (المائدة: ٤٨).

وقال عز اسمه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا فَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ...﴾ (البقرة: ٢٨٥).

هذا لم تكن معجزة سيد الأنبياء معجزة حسية، تقعُرُ الحس و تستولي على النفوس، فلم تكن عصا تُنْقَلِبُ حية كعصا موسى عليه السلام، أو نارا تصير برداء، وسلاما كالنار التي ألقى فيها الخليل عليه السلام، أو ناقة تخرج من صخر أصم ولها رغاء كناقة صالح عليه السلام، أو مريضا يشفى، أو أعمى يبرأ كما فعل عيسى عليه السلام، وإنما كانت معجزة "عقلية خالدة"؛ لأنها خاتمة الرسالات، فهي خالدة خلود الدهر، باقية بقاء الإنسان.

ويقول الشيخ محمد البنا ما نصه:

"إِذَا كَانَ قَدْ جَرَتْ خُوارَقُ الْعَادَاتِ عَلَى يَدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ الْقُرْآنِ، كَمَا وَرَدَ فِي صَاحِحِ السُّنَّةِ، فَإِنَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَتَحَدَّ هَا بَلْ كَانَ التَّحْدِي بِالْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَهَذَا كَانَ الْقُرْآنُ مَعْجِزَةُ الرَّسُولِ الَّتِي تَؤْيِدُ رِسَالَتَهُ، وَتُشَرِّقُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

ورسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاملة خالدة؛ لأنها خاتمة الرسالات، فكانت الحكمة أن تتفق معجزته مع نوع رسالته، إذ كل نبي سبق، كان يأتي برسالة لقوم بأعيائهم، وتنتهي بما يأتي بعدها من الرسالات، ولم يكن من الممكن أن تكون معجزة خاتم الأنبياء أمراً حسياً يراه جماعة حين يقع، فإذا لحق الرسول بالرفيق الأعلى، انقضى ذلك الأمر المحسوس، ولا يراه أحد من بعده؛ لأن الأمور المحسوسة لا تتفق مع نوع هذه الرسالة، ولا مع خلوتها، لقد كان القرآن معجزة للناس جميعاً، ولذلك جاء من نوع آخر غير نوع المعجزات السابقة، وقد جاء للدنيا بعد أن اكتملت المدارك البشرية، وارتقي الفكر الإنساني؛ لأن رسالة سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وافتقت البشرية بعد أن أدركت رشدتها، وتحلَّ كمال النمو العقلي في مجموعها، فكانت معجزته تدرك "بالعقل"، ولا تحتاج

إلى أي نوع من الحس، فهي معانٌ خالدة، يدرك سموها الإنسان في كل الأجيال، وهي معجزة يخاطب بها الناس جميعاً.^(١)

معنى إعجاز القرآن:

الإعجاز في اللغة العربية هو: نسبة العجز إلى الغير، قال تعالى: ﴿أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْفَرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةً أَخْيِي...﴾ (المائدة: ٣١)، وتسمى المعجزة "معجزة"؛ لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها؛ لأنها أمر خارق للعادة، خارج عن حدود الأسباب المعروفة.

وإعجاز القرآن معناه: إثبات عجز البشر - متفرقين ومجتمعين - عن الإتيان بهم، وليس المقصود من "إعجاز القرآن" هو تعجيز البشر لذات التعجيز، أي تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بهم مثل القرآن، فإن ذلك معلوم لدى كل عاقل، وإنما الغرض: إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صادق، وهكذا سائر معجزات الأنبياء الكرام التي يعجز البشر عنها.

ليس الغرض منها إلا إظهار صدقهم، وإثبات أن ما جاعوا به إنما هو بوحي من الحكيم العليم، وتزييل من الإله القادر، وأنهم إنما يبلغون رسالات الله، وليس لهم إلا الإخبار والتبلیغ.

فالمعجزات إذا براهين من الله سبحانه إلى عباده، بصدق رسالته وأنبيائه، فكأنّ الله تعالى - بواسطة هذه المعجزة - يقول: صدق عبدي فيما بلّغ عني، وأنا أرسلته؛ ليبلغكم ذلك، والدليل على صدقه أن أجري على يديه خوارق العادات، مما لا يستطيع أحد منكم أن يأتي بهم، وما ليس بقدور أحد من الناس أن يجاريه في مثل هذا الأمر العجيب ذلك هو معنى الإعجاز، وذلك هو مفهوم المعجزة.

متى يتحقق الإعجاز؟

والإعجاز لا يتحقق إلا إذا توافرت أمور نحملها فيما يلي:

^(١) الكتاب والسنة ص: ٢٢.

- أ- الأول: التحدي، أي: طلب المباراة والمعارضة.
- ب- الثاني: أن يكون الدافع إلى ردّ التحدي قائماً.
- ج- أن يكون المانع منتفياً.

ولتوسيع هذه الأمور الثلاثة ببعض الأمثلة، فنقول:

هذا القرآن العظيم "معجزة محمد الكبرى" الذي تحدى الله به العرب خاصة، والناس أجمعين، يأتي به نبيُّ أميٍّ، لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يدرس في مدرسة، أو يتلقَّى علومه في جامعة من الجامعات الكبيرة، ولم يثبت عنه أنه كان قد تلقى شيئاً من العلوم والمعارف عن بعض النابغين من العلماء، أو المبرزين في صنوف الثقافة والعرفان، ولم يتصل بأحد من علماء أهل الكتاب "اليهود والنصارى" حتى يطلع على أنباء الأمم السابقين، وأخبار الأنبياء المتقدمين. جاءهم بهذا الكتاب الجيد متهدِّياً لهم - وهم أئمة الفصاحة، وفرسان البلاغة - وطلب منهم معارضته القرآن بعبارات قوية، ولهجات واخزة، تستفزُ العزيمة، وتدفع إلى المباراة، وتنزل معهم من التحدي بجميع القرآن إلى التحدي بعشر سور مثله، ثم إلى التحدي بسورة واحدة من مثله، وهم في كل هذا واجهون^(١) لا ينسون ببنت شفة، وهم رغم هذا التحدي ينتقلون من عجز إلى عجز، ومن هزيمة إلى هزيمة.

أليس في هذا أكبر شاهد وبرهان على إعجاز القرآن؟

أسلوب القرآن في التحدي:

جاء التحدي في القرآن الكريم بصور متعددة، وأساليب متنوعة، تهزُّ كيان العرب هزاً، وتجرُّّهم إلى الميدان جراً، وفي أسلوب ممتع أخاذ، يملُك عليهم شعورهم، ويستحوذ على أفضدهم بسحره وجماله ورونقه.

^(١) واجهون: من وجم بجم وجماً ووجوماً: سكت على غيظ وسكت عن الكلام لشدة الحزن، وسكت فرعاً.

لقد تحداهم على أن يأتوا بمثل القرآن، فعجزوا وولوا الأدبار مع أنهم فرسان الفصاحة، وملوك البيان، فتنزل معهم إلى "عشر سور" من مثله مفتريات، فانقطعوا واندحروا، وعجزوا عن الإتيان بتلك السور العشر.

فتنزل معهم إلى ما هو أسهل وأيسر إلى الإتيان بمثل "سورة واحدة" فقط من سور القرآن، فلم يتقدم واحد منهم إلى حلبة الميدان...، وبذلك سجل عليهم القرآن العجز والمزيمة، وثبتت معجزة محمد النبي الأمي على أن هذا القرآن تنزيل من رب العالمين: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيًّا مُّبِينًا﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥) وصدق الله حيث يقول: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدْسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِتَبَيَّنَ الَّذِينَ آتَئُوا وَهُدُىٰ وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ١٠٢).

أنواع التحدي:

والتحدي الذي جاء في القرآن الكريم كان على نوعين:

- ١ - التحدي العام.
- ٢ - التحدي الخاص.

أما الأول: فقد ورد لجميع الخالقين بما فيهم الفلاسفة، والعباقرة، والعلماء، والحكماء، وجاء لجميع البشر بدون استثناء عربهم وعجمهم، أبضمهم وأسودهم، مؤمنهم وكافرهم. استمع إلى هذا التحدي الصارخ في سورة الإسراء: ﴿قُلْ لَعِنْ اجْتَمَعَتِ الْأَنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضُ ظَهِيرَا﴾ (الإسراء: ٨٨).

وأما الثاني: "التحدي الخاص": فقد جاء للعرب خاصة، وعلى الأخص منهم لكتاب قريش، وقد ورد هذا التحدي على نوعين أيضا:

- ١ - التحدي الكلي: وهو التحدي بجميع القرآن في أحکامه وروعته وبلاغته وبيانه.

٢- التحدي الجزئي: وهو التحدي بمثيل سورة من سور القرآن الكريم ولو من أقصر سوره كسورة الكوثر.

فالأول مثل قوله تعالى: ﴿فَلَيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور: ٣٤) والمراد بالحديث في هذه الآيات الكريمة "قرآن مثله" أي: يأتيوا بقرآن يشبه هذا الذي جاءهم به محمد رسول الله، والذي زعموا أنه افتراء، وتقوله على الله، كما ورد التحدي بالقرآن كله في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَيْتُهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (القصص: ٤٩). فقد طلب منهم أن يأتيوا بكتاب كامل غير هذا الكتاب الكريم، فإذا لم يستجيبوا لدعوته، فإنما هم أناس متعنتون، يعبدون الهوى، ويسيرون على غير هدى الله.

أما التحدي الجزئي: فقد ورد في سورة "هود" في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمٍ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهُلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (هود: ١٤، ١٣).

كما ورد التحدي بأقل من ذلك، تحداهم بسورة واحدة من أقصر سور القرآن، وجاء هذا التحدي مقورونا بالتعجيز الفاضح، في الحاضر والمستقبل، مسحلا عليهم ذلك العجز بما يثير حميتهم، ويفربطهم بتكلف المعارضة، لا سيما بعد قولتهم القبيحة ودعواهم الكاذبة حين قالوا: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَهَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال: ٣١).

جاءهم التحدي في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿هُوَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤، ٢٣).

قال العلامة القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن": قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعني فيما مضى، ﴿لَوْلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أي: تطبيقوا ذلك فيما يأتي، وفيه إثارة لهمهم، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون

عجزهم بعد ذلك أبدع، وهو من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها.^(١) أما الأمر الثاني وهو: "قيام المقتضي للمباراة والمعارضة" عند العرب، فقد كان حاصلاً وقائماً، فإن النبي ﷺ جاءهم بدين جديد، أبطل فيه دينهم، وسفه أحالمهم، وسخر من آهانهم وأصنامهم، وجعلهم أضحوكة بين الناس، دعاهم إلى اتباعه، وإلى اعتقاد أنه رسول من عند الله، وقال لهم: إن الحجة على صدقني هذا الكتاب الذي أوحاه الله إليّ، فإذا لم تصدقوني في ذلك، فأنا أخداكم أن تأتوا بمثله، أو بمثل سورة منه، وإذا عجزتم، فذلك آية صدق وبرهان رسالتي إليكم. مما كان أحوجهم إلى أن يأتوا بمثله خاصة بعد هذا التحدي السافر، والتهكم الشديد اللاذع بعقولهم، وآهانهم، وأصنامهم.

أقول: ما كان أحوجهم إلى دحض ما ادعاه، وإبطال أنه من عند الله، وذلك بسلوك أيسر الطرق، وولوج أقرب الأبواب لرد دعواه، وذلك عن طريق ما يرعوا فيه، واشتهروا بجودته وإنقاذه، ألا وهو "البيان" في النطق و"الفصاحة" في اللسان، وكان ذلك أفعى لهم من الحرب التي ذاقوا ويلاتها، وخاضوا غمارها حتى شربوا كؤوس الأسى، وتجروا الموت الذئام، ولكنهم اختاروا طعن الرماح ووقع النبال، ولم يدخلوا في المباراة.

يقول القاضي الباقلاني رحمه الله:

كيف يجوز أن يقدروا على معارضة القرآن السهلة عليهم، وذلك يُدْحِض حجته، ويفسد دلالته، ويبطل أمره، فيعدلون عن ذلك إلى سائر ما صاروا إليه من الأمور التي ليس عليها مزيد في المنازدة والمعاداة، ويتركون الأمر الحقيق؟ هذا ما يمتنع وقوعه في العادات، ولا يجوز اتفاقه من العقلاة. وأما الأمر الثالث: وهو "انتفاء ما يمنعهم من معارضة القرآن"؛ فلأنه نزل بلسان عربي - هو لسانهم -، وألفاظه من أحرف العرب، وعباراته على أسلوب العرب، وهم أهل البيان ولسان، وأمراء الفصاحة والبلاغة، وقد دلت أشعارهم، ونطقت خطبُهم وحكمُهم على براعتهم في ذلك،

^(١) تفسير القرطبي "٣٢/١".

وعلى أفهم حازوا قصب السبق في مضمار الفصاحة والبيان، كما أثبتت الأيام أفهم من ذوي القدرة والاستطاعة على أن يبرزوا في الشعر والنشر، وأن يحلّقوا في سماء الفصحي، ألا وهي لغتهم الأساسية "لغة القرآن" التي بها يتفاخرون ويتبارون، ويعقدون المنتديات، ويجتمعون في المحافل؛ ليستمعوا أروع القصائد والخطب، ويصوغوا أجمل الألفاظ والعبارات، ولم يكونوا في عجز من قدرهم، أو نقصٍ في عقولهم، بل كانت قدرتهم موفورة، واستطاعتهم مشهورة، وهم أولوا النهي والألباب، ومع ذلك فالقرآن دعاهم أن يستعينوا بمن شاؤوا، ويكمّلوا ما ينقصهم بأهل الأديان، ويستحضروا عذّتهم بالاتصال بالسحرة والكهان، وبمن شاؤوا من طوائف الإنس والجان، فليس أمامهم ثَمَّة مانع، والنبي ﷺ لم يضرب لهم أجالاً.

للمعارضة، ولم يحدد زمنا للمناقشة، حتى يقول قائل منهم: إن الزمان لا يكفي، وليس فيه سعة، كما أن القرآن لم ينزل جملة واحدة حتى يحتاجوا بذلك، بل نزل مفرقاً في ثلاثة وعشرين سنة، بين كل مجموعة وأخرى زمن متسع للمعارضة وللإتيان بهم، لو كان في مقدورهم ذلك، فلما عجزوا دل على أنه تنزيل رب العباد، وكفى بذلك دليلاً وبرهاناً.

مثُل على إعجاز القرآن:

وقد ذكر المرحوم "الشيخ الرّرقاني" كلاماً نفيساً في كتابه "مناهل العرفان" نقله بنصه، قال رحمه الله في بحث تعريف "المعجزة" ما يلي:

"المعجزة: هي أمر حارق للعادة، خارج عن حدود الأسباب المعروفة، يخلقه الله تعالى على يد مدعى النبوة عند دعواه إليها، شاهداً على صدقه، فإذا قام إنسان ما، وادعى أنه مبعوث من الله تعالى إلى خلقه، ورسوله إلى عباده، وقال: إن آية صدقني فيما أدعّيه أن يغير الله الذي أرسلني عادة من عاداته على يدي، وأن يخرج الآن عن سنة من سننه العامة في وجوده، ثم قال: وسيأتيكم الله بهذا الأمر العجائب من باب ترون أنكم فيه نابغون وعليه قادرون، وإن أتحداكم

- زرافات ووحدانا - أَن تأتوا بِمَثَلْ هَذِهِ الْآيَةِ، وَأَمَامُكُمْ الْبَابُ مفتوحاً كَمَا تَعْتَقِدُونَ، وَفِيمَ النَّبُوَغُ مُوفُوراً كَمَا تَدْعُونَ، ثُمَّ أَنْتُمْ مجتمعونَ وَأَنَا وَحْدي.

قال ذلك بلغة الواثق، وتحداها هذا التحدي الظاهر في وقت يثور فيه على عقائدهنا وعاداتنا وأخلاقنا، ويصفه فيه أحلامنا وأحلام أمثالنا من آبائنا، ونحن أحقر ما نكون على تعجيزه وتبهيه والغلبة عليه والظفر به دفاعا عن كرامتنا، وانتصارا لأعز شيء لدينا، ثم لم يلبث أن قام وقمنا وأجمع أمره وأجمعنا، وإذا نحن جميا بعد محاولات ومصالولات: لم نستطع أن نأتي بمثل ما أتي به فضلا عن أعظم منه، مع أننا أمة وهو فرد، ومع أنه قد دخل إلينا من أيسر الطرق في نظرنا، ومن أشهر فن في زماننا، ومع أنه قد أعطانا الفرصة الكافية لمناظرته، وأنصفنا كل إنصاف من نفسه. هل يشك كل ذي مسكة من عقل في أن هذا الإنسان المتفوق الممتاز صادق في رسالته، ومحق في دعوته، خصوصا إذا عرفنا فوق ذلك كله: أنه نشأ فينا على الصدق والأمانة، ومكارم الأخلاق من لدن صباح وطفولته إلى يوم مبعثه ورسالته.

لو أنه جاء بالمعجزة من باب لا نعرفه، لقلنا: رجل حَذِقَ فنا من الفنون التي لا علم لنا بها، أو تعلّم صناعة من الصناعات التي لم نحط بخبرها.

أمّا وقد جاءنا من الناحية التي نشهد لأنفسنا فيها بالتفوق والسبق، فلا يسعنا إلا الإذعان له، والإيمان بما جاء به ما دمنا منصفين...

ولنضرب لك مثلا: جاء موسى عليه السلام بمعجزته عصا من الخشب، لا روح فيها ولا حرفة، ولا لين ولا رطوبة، ثم ألقاها باسم الذي أرسله، فإذا هي حية تسعى، بينما الأمة التي تحداها بذلك كانت قد تفوقت في السحر وحَذِيقَةِ، وضربت فيه بأوفر سهم، وأوفي نصيب، خصوصا أهتم أمة وهو فرد وهم نابغون في السحر، وهو مع نشأته فيهم لم يعرف يوما من الأيام بمعالجة السحر، فهل يبقى للشك ظل بعد أن ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلتف ما يأفكرون؟
﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ، وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ،﴾

فَالْأُولُوا أَمْنًا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١١٨﴾ (الأعراف: ١١٨-١٢٢).

الحق أبلج، ولذلك كان أول من آمن به هم السحرة أنفسهم؛ لأنهم أعرف بالسحر ومقدماته ونتائجها، وقد رأوا رأي العين أن ذلك الإعجاز ليس من نوع السحر الذي عرفوه.

قل مثل ذلك في معجزة كل رسول أرسله الله، قُلْهُ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الْكَلَمُ وَالْأَبْرُصُ، وَإِحْيَايَهُ الْمَوْتَىٰ، وَخَلْقِهِ مِنَ الطِّينِ كَهِيَّةُ الطَّيْرِ بِإِذْنِ اللَّهِ أَمَامُ قَوْمٍ نَبَغَوْا فِي الْطَّبِّ أَيْمَانًا نَبُوْغَ، وَمَهْرَوْا فِيهِ أَيْمَانًا مَهَارَةً.

وقل مثل ذلك وأكثر من ذلك في خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، وما جاء به من آيات بينات، ومعجزات واضحات، وحسبك القرآن وحده برهانا ساطعا، بل برهانين ساطعتين، كل مقدار ثلاثة آيات منه حجة قاطعة، تقوم في فم الدنيا إلى يوم الساعة، تتحدى العالم بما يكون فيها من أسرار الفصاحة والبيان، والعلوم والمعارف، وأنباء الغيب وشواهد الحق^(١)

شروط المعجزة الإلهية:

وللمعجزة شرائط خمسة نبه عليها العلماء، فإن اختل منها شرط لا تكون معجزة:

١ - الشرط الأول: أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله رب العالمين.

٢ - الشرط الثاني: أن تخرق العادة، وتكون مخالفة للسنن الكونية.

٣ - الشرط الثالث: أن يستشهد بها مدّعي الرسالة على صدق دعواه.

٤ - الشرط الرابع: أن تقع على وفق دعوى النبي المتحدي بتلك المعجزة.

٥ - الشرط الخامس: ألا يأتي أحد بمثل تلك المعجزة على وجه المعارضة.

فهذه الشروط الخمسة إن تحققت كان ذلك الأمر الخارق للعادة معجزة دالة على نبوة صاحب الدعوى، التي ظهرت المعجزة على يده، وإن لم تتحقق خرجت عن كونها معجزة، ولم تدل

^(١) مناهل العرفان: ٦٨/١.

على صدق صاحب الدعوى.

أما الشرط الأول: فإنه لو أتى آت - في زمن يصح فيه بحثيء الرسل - وادعى الرسالة، وجعل معجزته أن يقوم ويقعد، ويأكل ويشرب، ويتحرك من مكان إلى مكان، لم يكن هذا الذي ادعاه معجزة، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات مما لا يقدر عليها البشر: كفلق البحر، وانشقاق القمر، وإحياء الموتى... إلخ.

وأما الثاني: وهو حرق العادة، فلو قال المدعي للنبوة: معجزتي أن تطلع الشمس من المشرق وتغرب من المغرب، وأن يأتي النهار بعد الليل، لم يكن فيما ادعاه معجزة؛ لأن هذه الأمور، وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، لكنها لم تُفعَّل من أجله، وقد كانت من قبله، فليس فيها دلالة على صدقه.

وأما الثالث: وهو أن يستشهد بها مدعى النبوة، وتحصل عند طلبها تصديقاً للدعواه، فلو ادعى إنسان أن معجزته أن ينقلب الجمام إلى حيوان أو إنسان ولم ينقلب لا يدل على صدق دعواه.

وأما الرابع: وهو أن تقع المعجزة على وفق الدعوى لا على خلافه؛ لأنها حينذاك تكون تكذيباً له. روي أن مسيلمة الكذاب - لعنه الله - طلب منه أصحابه أن يتفل في بئر؛ ليكثر

فيها الماء، فغارت البئر، فدل على كذبه.^(١)

خامساً: ألا تعارض المعجزة، فإن عورضت بطل كونها معجزة، ولم تدل على صدق أصحابها، فلو استطاع أحد فلق البحر أو شق القمر لم تعد معجزة، ولهذا قال تعالى في خطاب المشركين:

﴿فَلَمَّا تُؤْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور: ٣٤).

بِمَ كَانَ إِعْجَازُ الْقُرْآنِ؟

القرآن العظيم كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه، وفي روعته وبيانه، وفي علومه وحكمه، وفي تأثير هدایته، وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة، ولقد جاء العلماء في كشف أسرار البيان عن وجوه إعجاز القرآن بعد أن ثبتت عندهم بالوجдан والبرهان، وقد أجمع أهل

^(١) انظر "تفسير القرطبي" ١/٧٠.

العربية قاطبة، وأهل اللسان منهم والبيان على أن القرآن "معجز بذاته" أي: أن إعجازه إنما كان بفصاحة ألفاظه، وروعة بيانه، وأسلوبه الفريد، الذي لا يشاهده فيه أسلوب، لا من نثر، ولا من شعر، ومسحته اللغوية الخلابة، التي تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي، وبراعته الفنية.

مذهب أهل الصرف:

وقد ذهب بعض المعتزلة منهم "أبو إسحاق النظام" إلى أن إعجاز القرآن إنما كان بـ "الصرف" بمعنى: أن الله عزوجل صرف البشر عن معارضته القرآن مع قدرتهم عليها، وخلق فيهم العجز عن حماكاته في أنفسهم وأسلفهم، ولو لا أن الله صرفهم عن ذلك لاستطاعوا أن يأتوا بمثله، ولعمري هذا قول من لم يتذوق طعم العربية، ولا عرف أسرارها، بل قول من لم يدرك من العلوم إلا قشورا لا ثسمن، ولا تغنى من جوع، هو قول ساقط مرذول، مخالف لما أجمع عليه العلماء والفصحاء والبلغاء في القديم والحديث.

يقول حجة الأدب العربي مصطفى الرافعي رحمه الله: "وقد اختلفت آراء المعتزلة في وجه إعجاز القرآن، فذهب شيطان المتكلمين "أبو إسحاق النظام" إلى أن الإعجاز كان بالصرف، وهي أن الله صرف العرب عن معارضته القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقا للعادة. وقال "المرتضى" من الشيعة: بل معنى الصرف أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة؛ ليحيئوا بمثل القرآن..."

فكأنه يقول: إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب، ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما ليس به ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم، ولا كان العلم في زمんهم... وهذا رأي يُبين الخلط كما ترى. ثم قال: وعلى الجملة: فإن القول بالصرف لا يختلف عن قول العرب فيه: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثِرُ﴾ (المدثر: ٢٤)، وهذا زعم رده الله على أهله، وأكذبهم فيه، وجعل القول به ضربا من العمى: ﴿فَأَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبَصِّرُونَ﴾ (الطور: ١٥).^(١)

^(١) إعجاز القرآن للرافعي ص: ١٦٤.

وعلى ذلك المذهب الفاسد يمكن أن يقال: إن المعجز ليس هو القرآن الكريم على حد زعمهم، إنما هو "الصرف" التي بسببها عجزوا عن الإتيان بمثله: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(١) وقد أسف "ابن حزم" الظاهري حين سلك ذلك المسلك المحتوى، وذهب إلى ما ذهب إليه سلفه "النظام" من سُخْف الكلام، ولكن بأسلوب رشيق رقيق حيث يقول في كتابه: "الفصل" في سبب الإعجاز ما نصه:

"لم يقل أحد: إن كلام الله تعالى غير معجز، ولكن لما قاله الله تعالى وجعله كلاما له، أصاره معجزا، ومنع من مماثلته، وهذا برهان كاف لا يحتاج إلى غيره".

فأنت ترى صاحب هذا الرأي يجعل القرآن الكريم معجزاً منع الله عزوجل من مماثلته، وهذا عين رأي النظام الذي يقول بالصرف، وهو رأي باطل - كما أسلفنا -، وال القوم محجوبون عن ضياء الحق الساطع، وما أجمل قول القائل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رَمِّهِ وينكر الفُمْ طَعْمَ الماء من سَقْمِهِ

آراء العلماء في الإعجاز:

بعد أن أجمع العلماء على إعجاز القرآن بذاته، وعلى عدم استطاعة أحد من البشر الإتيان بمثله، اختلفت آراؤهم في وجه إعجاز القرآن على آراء:

أ- يرى بعضهم: أن وجه الإعجاز في القرآن، وهو ما اشتتمل عليه من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم في مطالعه، ومقاطعه، وفواصله.

ب- ويرى البعض الآخر: أن وجه الإعجاز إنما يكمن في فصاحة ألفاظه، وبلاعه عباراته، وجودة سبكه؛ إذ هو في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها.

^(١) التوبة: ١٢٧.

ج- ويرى آخرون: أن الإعجاز في خلوه من التناقض، واشتماله على المعانى الدقيقة، والأمور الغيبية التي ليست بقدور البشر، ولا في استطاعتهم معرفتها، كما أنه سليم من التناقض والتعارض.

- وهناك من يقول: إن وجه الإعجاز هو ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة، والبدائع الرائقة في الفوائح، والمقاصد، والخواتيم في كل سورة، والمعول عليه عندهم ما يلي:

- الفصاحة في الألفاظ.
 - البلاغة في المعانٍ.
 - صورة النظم البديع.

وهذه الأقوال كلها لا تخرج عن دائرة واحدة هي "الدائرة البينية" التي امتاز بها القرآن، وهي وإن كانت حقا إلا أن إعجاز القرآن ليس في "الفصاحة والبلاغة" فحسب: بل هناك وجوه أخرى لإعجاز القرآن، وقد أجاد العلامة "القرطبي" رحمه الله في تفسيره القيم المسمى: "الجامع لأحكام القرآن"، فعد عشرة وجوه لإعجاز القرآن، كما ذكر فضيلة الشيخ "الزرقاني" في كتابه "مناهيل العرفان" أربعة عشر وحدها من وجوه الإعجاز، منها ما ذكره القرطبي، ومنها ما لم يذكره، ونحن نذكر هذه الوجوه بالإيجاز، ثم نعقبها بشيء من التفصيل، فنقول - ومن الله نستمد العون -

وجوه إعجاز القرآن الكريم:

أولاً: النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب.

ثانياً: الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب العربية.

ثالثاً: الجزءة التي لا يمكن لخلوق أن يأتي بمثلها.

رابعاً: التشريع الدقيق الكامل، الذي يبيّن كل تشريع وضعى.

- خامساً: الإخبار عن المغيبات التي لا تُعرف إلا بالوحي.
- سادساً: عدم التعارض مع العلوم الكونية المقطوع بصحتها.
- سابعاً: الوفاء بكل ما أخبر عنه القرآن الكريم من وعد ووعيد.
- ثامناً: العلوم والمعارف التي اشتمل عليها: العلوم الشرعية والعلوم الكونية.
- تاسعاً: وفاؤه بمحاجات البشر.
- عاشرًا: تأثيره في قلوب الأتباع والأعداء.

١ - النظم البديع:

أما الوجه الأول من وجوه إعجازه فهو "النظم البديع" المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب، فالقرآن الكريم لا يشبهه شيء في نظمه، لا من شعر ولا من نثر، وذلك بشهادة أساطين البلاغة، وأئمة الفصاحة والبيان: "الوليد بن المغيرة"، و"عتبة بن ربيعة" وغيرهما من فصحاء العرب ومشاهيرهم.

أمثلة من التاريخ:

- ١- يروى أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاها فقال: يا عاص! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا؛ ليعطوه لك، فإنك أتيت محمداً للتعرض لما قبله - أي: لتنازل من فضله -.
قال الوليد: لقد علمت قريش أي من أكثرها مالا.
قال أبو جهل: فقل فيه قولًا يبلغ قومك أنك منكر له.
قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، لا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلىه لثمرة، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو، وما يعلى عليه.
قال أبو جهل اللعين: والله ما يرضي قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال:

فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثِرُ^(١)، فنزل فيه قول الله تعالى: **هُوَ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا، وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَمْ مَدُودًا^(٢)** (المذر: ١٢، ١١) إلى قوله: **إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَرَ^(٣)** **فُقْتَلَ كَيْفَ قَدَرَ^(٤)** **ثُمَّ قُتْلَ كَيْفَ قَدَرَ^(٥)** **ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ^(٦)** **ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ^(٧)** **فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثِرُ^(٨)** **إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ^(٩)** (المذر: ٢٥-١٨).^(١)

٢- ويروى أن الوليد لما سمع القرآن من النبي ﷺ تأثر تأثرًا بالغاً، فجاء لقومه "بني مخزوم"، وقال لهم: والله لقد سمعت من محمد آنفاً - أي: سابقاً - كلاماً ما هو من كلام الإنسان، ولا من كلام الجن، والله إن له حلاوة، وإن عليه لطلاوة... الخ.

فقالت قريش: صباً والله الوليد؛ لتصبأً قريش كلها.

فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعد إليه حزيناً وكلمه بما أغاظه، فقام الوليد، وقام معه أبو جهل، فلما أتى قومه قال: تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يختنق؟ وتقولون: إنه كاهن، فهل رأيتموه يتکهن؟ وتزعمون أنه شاعر؟ فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط؟ وتزعمون أنه كذاب، فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟

فقالوا في كل ذلك: اللهم لا... ثم قالوا: فما هو؟ ففكّر، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله، وبين الوالد وولده، وما الذي يقوله إلا سحر يأثره - أي: ينقله - عن أهل بابل، فارتّج النادي فرحاً، وتفرقوا مُعجبين بقوله، ومتعجبين منه، فنزلت الآيات الكريمة.^(٢)

٣- وفي صحيح مسلم أن "أنيساً الغفاري" أخا أبي ذر، قال لأبي ذر: لقيت رجلاً عمة على دينك، يزعم أن الله أرسله، قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، ساحر، كاهن. وكان أنيس أحد الشعراء. قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، مما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر - يريد أنواعه ومحوره -، فلم يلائم على لسان أحد منهم أنه شعر، والله إنهم لكاذبون، وإنه لصادق.^(٣)

^(١) رواه البيهقي في "دلائل النبوة".

^(٢) الكشاف: ٦٤٩/٤.

^(٣) تفسير القرطبي: ٧٣/١.

٤ - وأخرج ابن إسحاق في السيرة: "أن أبا جهل قال في ملأ من قريش: لقد التبس علينا أمر محمد، فلو التمست لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر، فكلمه، ثم أثنانا ببيان عن أمره؟ فقال عتبة بن ربيعة" - وكان من أشراف القوم وسادتهم - : أنا أقوم إليه وأكلمه، فأتأهله، فقال: يا محمد! أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فبم تشنتم آهتنا وتضلّلنا؟ فإن كنت تريد الرئاسة: عقدنا لك اللواء؛ فكنت رئيسنا، وإن كنت تريد النساء؛ زوجناك ما تشاء منهن، تختار من أي بنات قريش ما شئت، وإن كنت تريد المال؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغناناً، وأكثر مالاً.

والنبي ﷺ ساكتٌ لا يجيبه، فلما فرغ من عرضه، قال له النبي ﷺ: "أفرغت؟" قال: نعم. قال: فاسمع إذا، فتلا عليه سورة فصلت ﴿أَنَّمَا تَنْزِيلُهُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ فِرْزَانًا عَرَيَّيَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِّيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (فصلت: ٤-١) حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ (فصلت: ١٢) فامسك عتبة على فيه، وناشدته بالرحم أن يكف!

ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبا، فانطلقا إليه، وقالوا: يا عتبة! يا عتبة! ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت، فغضب، ثم قال لهم: والله لقد كلامته، فأجابني بشيء، والله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بكهانة، وقد ناشدته بالرحم أن يكف خشية أن ينزل بكم العذاب، وقد علمت أن محمد إذا قال شيئاً لم يكن يكذب^(١).

قال العلامة القرطبي رحمه الله:

"إذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان، وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع ما سمع مثل القرآن قط، كان في هذا القول مقرأ ياعجز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أحناس القول وأنواعه".

^(١) انظر الكشاف: ٤/١٩٢.

٢ - الأسلوب العجيب:

أما الوجه الثاني لإعجاز القرآن فهو "الأسلوب العجيب" المخالف لجميع الأساليب العربية، فقد جاء القرآن بذلك الأسلوب الرائع الخلاب، الذي يهرّب العرب برونقه وجماله، وعذوبته وحلاؤته، وقد كانت فيه من الخصائص العليا ما لم توجد في كلام يبشر على نحو ما وجدت في القرآن خصوصاً، وأن النبي ﷺ تحدى به، فأعجز أساطين الفصحاء، وأعيا مقاوميل البلغاء، وأخرس ألسنة فحول البيان، وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجاده والتبريز في هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها محسودة للتفوق في هذه الناحية.

يقول الزرقاني رحمه الله:

وها قد مرت على اللغة العربية - من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا - أدوار مختلفة بين علو وزنرل، واتساع وانقباض، وحركة وجمود، وحضاره وبداءة، والقرآن في كل هذه الأدوار واقف في عاليائه، يطل على الجميع من سمائه، وهو يشع نوراً وهداية، ويفيض عذوبة وجلالة، ويسهل رقة وجزالة، ويرفع جدة وطلاؤة، ولا يزال كما كان غضا طرياً، يحمل راية الإعجاز، ويتحدى أمم العالم في يقين وثقة، قائلاً في صراحة الحق وقوته، وسلطان الإعجاز وصولته: **﴿فَقُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُونُونَ وَالْجِنُونَ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ بِإِعْظَمٍ ظَهِيرَا﴾** (الاسراء: ٨٨).^(١)

خصائص أسلوب القرآن:

وللقرآن الكريم في أسلوبه العجيب المخالف لجميع الأساليب البشرية: خصائص عديدة نجملها فيما يلي:

الخاصة الأولى: مسحة القرآن اللغوية، التي تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي.
الخاصة الثانية: إرضاؤه العامة والخاصة. معنى أن الجميع يحسون بجلاله، ويشعرون بروعته.

^(١) منهال العرفان: ٢٢٩/٢

الخاصة الثالثة: إرضاؤه العقل والعاطفة معاً، فالقرآن يخاطب العقل والقلب، ويجمع الحق والجمال معاً.

الخاصة الرابعة: جودة سبك القرآن وإحكام سرده، فكأنه سبيكة واحدة، تلعب بالعقول وتأخذ بالأبصار.

الخاصة الخامسة: براعته في تصريف القول، وتفنته في ضروب الكلام بمعنى: أنه يورد المعنى الواحد باللفاظ شتى، وطرق مختلفة، وكلها رائعة فائقة.

الخاصة السادسة: جمع القرآن بين الإجمال والبيان.

الخاصة السابعة: الوفاء بالمعنى مع القصد في اللفظ. ^(١)

أمثلة توضيحية على خصائص أسلوب القرآن:

يقول حجة الأدب العربي الفقيد "مصطفى الرافعي" ^(٢):

١ - "لو تدبّرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حرکاتها الصرفية واللغوية، تحرّي في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مُسَاوقةً لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة، فلا تُعدّ ولا تُساغ، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيباً.... من ذلك لفظة "النذر" جمع نذير، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً، فضلاً عن جسأة^(٣) هذا الحرف، ونبوة^(٤) في اللسان، ولكنه جاء في القرآن على العكس في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ﴾ (المردود: ٣٦)، فتأمل هذا التركيب، وأنعم، ثم أنعم على تأمله، وتذوقّ موقع الحروف، وأجرِ حرکاتها في حس السمع، وتأمل مواضع القلقلة في دال "لقد"، وفي الطاء من "بطشتنا"،

^(١) انظر "مناهل العرفان" للزرقا尼.

^(٢) خشونة.

^(٣) بنا الشيء نبوا ونبوة: لم يستوف مكانه المناسب له. ويقال: كلمة نابية: قلقة غير منسجمة.

وفي الفتحات المتواالية فيما وراء الطاء إلى الواو من قوله: ﴿بَطْشَتَنَا فَتَمَارُوا﴾ مع الفصل بالمد، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعد، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها، كما تكون الأحماض في الأطعمة".

٢- "وفي القرآن لفظة غريبة، هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها فيه، وهي كلمة ﴿ضِيزَى﴾ من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةً ضِيزَى﴾ (النجم: ٢٢)، ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن ومن أعجبه، ولو أردت اللغة العربية ما صلح لهذا الموضع غيرها، فإن السورة التي هي منها، وهي سورة "النجم" مفضلة كلها على الياء، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل، ثم هي في معرض الإنكار على العرب؛ إذ وردت في ذكر الأصنام، وزعمهم في قسمة الأولاد، فلأنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنيات الله مع وأدھم للبنات، فقال تعالى: ﴿أَلَّكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُثْنَى، تِلْكَ إِذَا قِسْمَةً ضِيزَى﴾ (النجم: ٢٢، ٢١)، فكانت غرابة اللفظة أشد الأشياء ملامة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى، والتهكم في الأخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل".

٣- وما لا يسعه طوق إنسان في نظم الكلام البليغ، ثم مما يدل على أن نظم القرآن مادة فوق الصنعة ومن وراء الفكر، وكأنها صبت على الجملة صبا، أنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعاً، ولم يستعمل منه صيغة المفرد، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها، كلفظة "اللُّبُّ"، فإنها لم ترد إلا بمجموعة كقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٢١)، وقوله: ﴿وَلَيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩) نحوهما، ولم ترد فيه مفردة، بل جاء مكانها "القلب" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧)، وذلك لأن لفظ "الباء" شديد مجتمع، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المستrixية، فلما لم تحسن اللفظة أسقطتها من نظمها بتة.

و كذلك لفظ "الكوب" استعملت فيه مجموعة، ولم يأت بها مفردة؛ لأنه لا يتهمها ما يجعلها في النطق - من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب - كلفظ "أكواب" الذي هو الجمع، وألأرجاء لم يستعمل القرآن لفظها إلا مجموعاً، وترك المفرد وهو الرجا، أي: الجانب لعنة لفظه، وأنه لا يسوغ في نظمه كما ترى.

وعكس ذلك لفظة "الأرض"، فإنها لم ترد فيه إلا مفردة، ولم يرد في القرآن صيغة الجمع "أرضين"، ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التي ذهبت بسر الفصاحة، وذهب بها حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة، وذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْتَزَلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ (الطلاق: ١٢)، ولم يقل: "سبعين أرضين" لهذه الجسأة التي تدخل اللفظ، ويختل بها النظم اختلالاً..

٤ - وتأمل قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَلَ وَالضَّفَادَعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ (الأعراف: ١٣٣)، فإنها خمسة أسماء، أخفها في اللفظ: "الطوفان، والجراد، والدم" وأنقلها "القمم، والضفادع"، فقدم "الطوفان" لمكان المدين فيها، حتى يأنس اللسان بخفتها، ثم "الجراد"، وفيها كذلك مد، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفهما في اللسان، وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغنة فيه، ثم جيء بلفظة "الدم" آخر، وهي أخف الخمسة وأنقلها حروفاً؛ ليسرع اللسان فيها، ويستقيم لها ذوق النظم، ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب.

وأنت فمهما قلبت هذه الأسماء الخمسة، فإنك لا ترى لها فصاحة إلا في هذا الوضع، فلو قدمت أو أخرت ليادرك التهافت والتعثر، ولأعتنك أن تجيء منها بلفظ، أو نظم صحيح. من ذلك يخلص لنا: أن القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه؛ لأنه ليس وضعاً إنسانياً أبلة، ولو كان من وضع إنسان، لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب العرب، أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

ولقد أحس العرب بهذا المعنى، واستيقنه بلغاؤهم، ولو لاه ما أفحموا، ولا انقطعوا من دونه؛ لأنهم

رأوا جنساً من الكلام غير ما توديه طباعهم، وكيف لهم في معارضته بطبيعة غير مخلوقة؟^(١)

ويقول المرحوم فضيلة الشيخ "الزرقاوي" في موضوع خصائص أسلوب القرآن:

"وللقرآن مسحة خلاة عجيبة، تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي.... ونريد بنظام القرآن الصوتي، اتساق القرآن وائلاته في حركاته وسكناته، ومداته وغناه، واتصالاته وسكناته، اتساقاً عجيباً، وائلاتلاه رائعاً، يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور."

ونريد بجمال القرآن اللغوي تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في وصف حروفه وترتيب كلماته ترتيباً دونه كل ترتيب تعاطاه الناس في كلامهم، ولقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز، بحيث لو دخل في القرآن شيء من كلام الناس، لاعتله مذاقه في أفواه قارئيه، واحتل نظامه في آذان سامعيه.

ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي، وذلك النظام الصوتي: أهـما - كما كانـا - دليل إعجاز من ناحية، كانـا سـوراً منـيـعاً لـحـفـظـ القرآنـ منـ نـاحـيـةـ أـخـرىـ، وـذـلـكـ أـنـ مـنـ شـأـنـ الجـمـالـ اللـغـوـيـ، وـالـنـظـامـ الصـوـتـيـ أـنـ يـسـتـرـعـيـ الأـسـمـاعـ، وـيـشـيرـ الـأـنـتـبـاهـ، وـيـحـرـكـ دـاعـيـةـ الإـقـبـالـ فيـ كـلـ إـنـسـانـ إـلـىـ هـذـاـ القـرـآنـ الـكـرـيمـ، وـبـذـلـكـ يـقـيـ أـبـدـ الـدـهـرـ سـائـداـ عـلـىـ أـلـسـنـةـ الـخـلـقـ، وـفـيـ آـذـافـهـ، وـيـعـرـفـ بـذـاتـهـ وـمـزـايـاهـ بـيـنـهـمـ، فـلـاـ يـجـرـؤـ أـحـدـ عـلـىـ تـغـيـرـهـ وـتـبـدـيلـهـ؛ مـصـدـاقـاـ لـقـوـلـهـ سـبـحـانـهـ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

ومن خصائص أسلوب القرآن العظيم: أنه يخاطب العقل والقلب معاً، ويجمع الحق والجمال معاً، انظر إليه وهو في معungan^(٣) إقامة الدليل العقلي على البعث والنشور، وفي مواجهة المنكريين المكذبين، كيف يسوق استدلاله سوقاً يهز القلوب هزاً، ويتمتع العاطفة إمتناعاً بما جاء في طيّ هذه الأدلة

^(١) إعجاز القرآن للرافعي ص: ٢٦١. منهال العرفان ٢/٢٠٨.

^(٢) منهال العرفان ٢/٢٠٨.

^(٣) المَعْمَعَانْ: شدة الحر. ويقال: يوم مَعْمَعَانْ وَيَوْمَ مَعْمَعَانِي.

المسكينة المقنعة، إذ قال سبحانه في سورة "فصلت": ﴿فَوَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَائِشَةً فَإِذَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهَا الْمَاءُ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لِمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت: ٣٩).

واستمع إليه في سورة "ق" إذ يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَّ كَمَا نَبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخلَ بِاسْقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدُّ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْسِنَا بِهِ لَلَّهَ مِنْتَا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (ق: ٩-١١).

تأمل هذا الأسلوب البارع الذي أقنع العقل، وأمتع العاطفة في آن واحد حتى في الجملة التي هي بمثابة التبيحة من مقدمات الدليل؛ إذ قال في الآية الأولى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لِمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (فصلت: ٣٩)، وفي الآيات الأخيرة قال: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي: الخروج من القبور، والبعث والنشور.

يا للجمال الساحر، ويا للإعجاز الباهر، الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معا، بأنصرع الأدلة، وأجمل البيان في هذه الكلمات المعدودات.

ثم انظر إلى القرآن، وهو يسوق قصة "يوسف" عليه - مثلا - كيف يأتي في خلاها بالعظات البالغة، ويطلع من خلاها بالبراهين الساطعة على وجوب الاعتصام: بالعفاف، والشرف، والأمانة، إذ قال في فصل من فصول تلك القصة الرائعة: ﴿وَرَأَوْدَتْهُ التَّيْهُ فِي كَيْتَهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَادَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَتَوَاعِي إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف: ٢٣).

فتتأمل في هذه الآية كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث، بدوعاعي العفاف الثلاث؟ مقابلة صورت من القصص الممتع جدالا عنيفا بين "جند الرحمن" و"جند الشيطان"، ووضعتهما أمام العقل المنصف في كفي ميزان، وهكذا تجد القرآن كله مزيجا حلوا سائغا، يخفف على النفوس أن تجرع الأدلة العقلية، ويرفع عن العقول باللغات العاطفية، فهل تسعد بمثل هذا في الكلام البشر؟ لا، ثم لا، فكلام البشر إن وفي بحق العقل: بخس العاطفة حقها، وإن وفي بحق العاطفة: بخس العقل حقه، حتى لقد بات العرف العام يقسم الأساليب البشرية إلى قسمين، لاثالث لهما "أسلوب علمي"، و"أسلوب أدبي".

فطلاب العلم لا يرضيهم أسلوب الأدب، وطلاب الأدب لا يرضيهم أسلوب العلم، وهكذا تجد كلام العلماء والمحققين فيه من الجفاء والعربي، ما لا يهز القلوب ويحرك النفوس. وتجد في كلام الأدباء والشعراء من المهرول والعمق العلمي ما لا يغذّي الأفكار ويقنع العقول. أما القرآن فقد انفرد بهذه المزىّة بين أنواع الكلام؛ لأنّه تنزيل من القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر: ٦٤).^(١)

٣ - الإيجاز الرائع:

الوجه الثالث من وجوه الإعجاز ذلك الإيجاز الرائع، والجزالة^(٢) الخارقة التي ليس بإمكان مخلوق من البشر أن يحيط بها، أو يأتي بمثلها؛ لأنّها فوق الطاقة البشرية، والقدرة الإنسانية، لقد كان البدوي - راعي الغنم - يسمع القرآن فيخر ساجدا لله رب العالمين، وذلك لروعته لهذا الكتاب المجيد، ولما يفعل به في نفوس السامعين، وهو دليل رقة الإحساس، ولطف الشعور من أولئك الرعاة الحفاة.

قصة الجارية والأصممي:

يروى أنّ الأصممي خرج ذات يوم فلقي جارية، خماسية أو سداسية، وسمعها تنشد أبياتاً من الشعر رائعة، فأعجب بتلك الأبيات وهزت منه النفس والقلب بجمال أسلوبها، وروعتها بيامها، وفصاحة ألفاظها، فقال لها: قاتلوك الله ما أفصحك؟ فقالت له: ويحك! أو يُعدُّ هذا فصاحة بعد قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهَا أَمْ مُؤْسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا حَفَّتِ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص: ٧)، ثم قالت له: فقد جمعت هذه الآية على وجاهتها بين أمرتين، وهيدين، وخبرين، وبشارتين إلخ.^(٣)

^(١) منهال العرفان: ص: ٢١٠.

^(٢) المراد بالجزالة: الفحامة في الأنفاظ، والإجادة في التعبير مع قوة السبك وعدم التعقيد.

^(٣) القصة ذكرها "القرطبي" في تفسيره: الجزء الثالث عشر ص: ٢٥٢، وذكرها صاحب المنار في الجزء الأول ص: ٢٨. والمراد بقوله: "خماسية، أو سداسية" أي: طولها خمسة أشار، أو ستة أشار، أي أنها معدلة القامة.

قال الأصمسي، فأعجبت بفهمها وإدراكتها أكثر ما أعجبت بشعرها، فهي جارية بدوية صغيرة السن، ولكنها واسعة العلم والفهم، أما الآيات التي كانت تنشدها فهي قوله:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِذِنْبِي كُلَّهُ قَبْلَ إِنْسَانًا بِغَيْرِ حِلٍّ
مُثْلَ الْغَزَالِ نَاعِمًا فِي دَلَّهُ وَاتَّصَفَ الْلَّيلُ وَلَمْ أَصْلِهِ

وقد أشارت هذه الجارية على الأصمسي بروعة ما في القرآن من بلاغة وفصاحة، وإيجاز وإعجاز، فالآلية الكريمة جمعت بين أمرتين وهما: ﴿أَرْضَعْيَهُ﴾، و﴿فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ﴾، وهندين وهما: ﴿لَا تَخَافِي﴾ و﴿لَا تَحْزَنِي﴾ وخبرين وهما: ﴿أُوْحَيْنَا﴾ و﴿جِئْنَا﴾ وبشرين وهما: ﴿إِنَّا رَادُواهُ إِلَيْكَ﴾ و﴿وَجَاءَ عَلَوْهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فالبشارة الأولى: برده إليها سليمان كريما، والبشارة الثانية: وهي أن الله سبحانه وتعالى سيجعله رسولا هاديا.

فانظر - رعاك الله - كيف أدركت هذه الجارية البدوية بفطرنها العربية، سرا من أسرار هذا الإيجاز والإعجاز، وانتبهت إلى ما لم يدركه هو من أسرار هذا القرآن، فكان الآية نظمت في عقد من اللؤلؤ والمرجان، فكانت لائتها بعزيزان.

ويروى أن ابن المقفع - الكاتب البلigh المشهور - حاول أن يعارض القرآن ذات مرة، فسمع صبيا يقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَيْلَ يَا أَرْضُ الْبَلِيعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءَ أَقْلَعِي وَغِيَضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيّ وَقَيْلَ بُعْدًا لِلنَّقْوَمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ٤٤)، فكسر الأقلام، ومنزق الصحف التي كان قد بدأ بها في المعارضة، وقال: هذا والله مما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، فمزق ما جمع، واستحيانا على نفسه من إظهاره. وهكذا رجع الأديب الكبير البلigh عن عزمه بعد أن حدثته نفسه بمعارضة بعض سوره؛ لأنه شعر ببروعة القرآن.

ثم انظر إلى الجزلة والإيجاز في أسلوب القرآن، وقارنها بأروع أسلوب نطق به عربي، وهو أسلوب أوضح من نطق بالضاد، سيد المرسلين محمد بن عبد الله، الذي شهد بلاغته وفصاحته أعداؤه قبل أنصاره، قارن بين "القرآن والسنة النبوية" تجد الفرق شاسعا، والبون بعيدا، كفرق ما بين السماء

والأرض، فبلغة القرآن ونضارته وإشرافته في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان، تأمل قوله ﷺ في صفة الجنة وما فيها من نعيم وخلود: "فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطط على قلب بشر" الحديث، وقارن بين هذه الألفاظ على روتها وبين قوله تعالى في وصف نعيم أهل الجنة: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي إِلَّا نُفُسُّ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ (الزخرف: ٧١). وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة: ١٧)، فهذا أعدل وزنا، وأحسن تركيبا، وأعذب لفظا، وأجزل عباره، وأقل حروفا.

ووازن بين قوله ﷺ: "كلكم راعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، الرجل راعٍ في بيته، ومسؤول عن رعيته" الحديث.

وبين قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لِنَسَائِنَهُمْ أَحْمَمُينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر: ٩٣، ٩٤)، وقوله: ﴿فَلَنْسَائِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلِنَسَائِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف: ٦).

وكذلك قارن بين سائر أقواله ﷺ وبين القرآن الكريم، تجد أن كلام الرسول على بلاغته لا يخرج عن كونه كلام بشر في الذروة العليا من الكلام، أما كلام الله تعالى فلا يشبهه كلام؛ لأنه كلام خالق البشر، انظر إليه وهو يتحدث في جزء آية من آياته المجيدة عن أحوال الأمم السابقات، ومال الجاحدين المكذبين، وما حل بهم من كوارث ونكبات، نتيجة لطغيائهم وتمردتهم، ثم كيف انتقم الله منهم جميعا بعد أن جاؤوا الحد في الطغيان، فلم ينج منهم إنسان، يقول جل ثناؤه: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبَا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْدَهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٠).

يقول القرطبي رحمه الله نقا عن "ابن الحصار": وهذه الثلاثة أوجه من "النظم، والأسلوب، والجزالة" لازمة كل سورة، بل هي لازمة كل آية، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحددي والتعجيز، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة، فهذه سورة "الكوثر" ثلاث آيات قصار،

وهي أقصر سورة في القرآن، وقد تضمنت الإخبار عن مغيبين: أحدهما: الإخبار عن الكوثر - نهر في الجنة -، وعظمته وسعته وكثرة أوانيه، وذلك يدل على أن المصدرين به أكثر من أتباع سائر الرسل.

والثاني: الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وكان عند نزول الآية ذا مال وولد، ثم أهلك الله سبحانه ماله وولده،^(١) وانقطع نسله".^(٢)

٤ - التشريع الإلهي الكامل:

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم ذلك التشريع الإلهي الكامل الذي يسمى فوق كل تشريع وضعى عرفه البشر في القديم والحديث. فالقرآن الكريم هو الذي وضع أصول العقائد، وأحكام العبادات، وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع الاقتصادي والسياسي، والمدنى والاجتماعى. وهو الذي نظم حياة الأسرة والمجتمع، ووضع أعدل المبادئ الإنسانية الكريمة التي ينادي بها دعاة الإصلاح في القرن العشرين، ألا وهي "المساواة، الحرية، العدالة - التي يسمونها: الديموقراطية - الشورى" إلى غير ما هنالك من أسس الحضارة والتشريع الذي تسعى إليه المدينة الحديثة. ففي العقائد دعا القرآن إلى عقيدة طاهرة سامية، واضحة جلية، عمادها الإيمان بالله عز وجل والتصديق بجميع أنبيائه ورسله، والإيمان بجميع الكتب السماوية؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِ وَكُلُّهُمْ وَرُسُلُهُ لَا نُفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ودعا أهل الكتاب - اليهود والنصارى - إلى كلمة سواء، لا انحراف فيها ولا التواء، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ يَئِنَّا وَبَيْنَكُمْ أَلَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهُدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وفي العبادات جاء القرآن العظيم بأسس العبادات ودعائهما، فشرع الصلاة والصيام، والحج

^(١) معنى الأبر: الذي لا ولد له ولا نسل، والثانية معناه: المبغض. وقد قال الزمخشري أنها نزلت في العاص بن وائل.

^(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١/٧٤.

والزكاة، وسائر أعمال البر والطاعة.

ولم يقتصر "ال العبادة" في الإسلام على هذه الدعائم والأركان، بل هي تشمل كل عمل حسن وفعل بر، أو طاعة، وهذا فإن العلماء قرروا أن كل عمل يقصد به الإنسان وجه الله يكون عبادة. وقالوا: "إن النية الصالحة تقلب العادة إلى عبادة". فإذا عمل الإنسان، واحترف له صنعة بقصد التعفف عن الحرام، والإإنفاق على أهله وعياله، وإذا أكل أو شرب بقصد التقوّي على طاعة الله، كان عمله عبادة يثاب عليها، والأصل في هذا قول النبي الكريم ﷺ: " وإنك لن تنفق نفقة تتبعها بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى اللقمة تضعها في في امرأتك" الحديث.^(١) وقوله ﷺ: "وفي بُضْعِ أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر".^(٢)

وإذا أمعنا النظر في أصول العبادات المفروضة نجد أن الإسلام قد وسعها ونوعها، وجعلها ضرورة متفاوتة، فمنها ما هو "عبادة مالية" كالزكاة والصدقات، ومنها ما هو "عبادة بدنية" كالصلوة والصيام، ومنها ما هو يجمع بين الأمرين "عبادة مالية وبدنية" كالجهاد في سبيل الله يكون بالمال والنفس، وهذا التنويع له مغزاً وحكمته السامية، وذلك؛ لئلا تألف النفس شيئاً فتصبح لها عادة، أو تملّ وتضجر من العبادة الواحدة.

وفي مجال "التشريع العام" نجد القرآن العظيم قد وضع قواعد عامة في التشريع المدني، والجناحي، والسياسي، والاقتصادي، ووضع أساساً للتعامل الدولي في حالة السلم والحرب على أكمل وجه وأعدل نظام.

^(١) الحديث من رواية البخاري في قصة "سعد بن أبي وقاص" حين دخل الرسول ﷺ يزوره من وجوه اشتده به.

^(٢) الحديث من رواية مسلم، وهو في باب كثرة طرق الخير، وأوله: أن ناساً قالوا: يا رسول الله! ذهب أهل الدثور بالأجور.

ففي أمر المعاملات، حرم القرآن أكل أموال الناس بالباطل ﴿هُوَ أَيْمَانُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُم﴾ (النساء: ٢٩).

ودعا إلى الإشهاد عند إبرام البيع وبكتابة الدين ﴿هُوَ أَيْمَانُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَآتُمْ بِدِينِ إِلَى أَجْلٍ مُسَمَّى فَاقْتُبُوهُ وَلْيَكُتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ (البقرة: ٢٨٢). وفي الأمور الجنائية شرع القرآن الحدود، وأوجب على الأمة تنفيذها من أجل حماية المجتمع، وصيانته من الفوضى والاضطراب، وتؤمن الأمة على حياتها ومستقبلها، وأموالها وأعراضها؛ لعيش الحياة الكريمة السعيدة التي لن تكون إلا عن طريق الأمن والاستقرار.

وقد نص القرآن الكريم على أمهات الجرائم، وأعظمها خطرا على مستقبل الفرد والجماعة، ووضع لكل منها عقوبات مقدرة لا يجوز الزيادة عليها أو النقصان منها، أو التساهل في تطبيقها، وترك ما سوى ذلك من "الجرائم الخفيفة" للحاكم المسلم ينفذ فيها ما يراه من العقوبة على ضوء السنة النبوية المطهرة، وبالشكل الذي يحقق روح الإسلام من إرادة الخير للناس، وتطهير المجتمع من المفاسد والمظالم الاجتماعية.

أما الجرائم الكبيرة التي عين لها القرآن عقوبات رادعة، فهي خمسة: "جريمة القتل، جريمة الزنا، جريمة السرقة، جريمة قطع الطريق، جريمة الاعتداء على كرامة الناس بالقذف".

ولعل أروع مثل للمقارنة بين "التشريع الإلهي القرآني"، وبين "التشريع الوضعي" الذي هو من صنع البشر، ذلك الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم في نفوس العرب بسبب تلك الطريقة الحكيمية التي سلكها في معالجة المفاسد والأمراض الاجتماعية حيث قضى على كل فساد، واستأصل كل جريمة من نفوسهم، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، فملوكوا الدنيا وسادوا العالم.

أمثلة من واقع الحياة:

ومن الأمثلة على تفوق ذلك التشريع القرآني الحكيم على بقية التشريعات البشرية والنظم الأرضية: ما نلمسه في واقع الحياة، ويمكن أن نشير إشارة خاطفة إلى سمو الشريعة الإسلامية على بقية

النظم فيما يلي:

- ١ - منذ زمن قريب حرّمت "أمريكا" الخمر، ولكنها فشلت، ولم تنجح؛ لأنها لم توفق إلى الطريقة الحكيمية التي أتبّعها الإسلام في تحريم الخمر، فعادت إلى إياحته مع اعتقادها بضرره القادح.
- ٢ - أباحت بعض الدول الغربية وخاصة "أمريكا" الطلاق بعد أن كان ممنوعاً لديها بسبب تعاليم الكنيسة، ولكنها أسرفت فيه إلى درجة ضارة، ولا تزال تأخذ بتشريع الطلاق.
- ٣ - مصلحو أوروبا يرفعون أصواتهم بضرورة السماح "بتعدد الزوجات" حتى بعض نسائهم طالبن بذلك نتيجة لكثره العوانس من النساء، بحيث أصبحت المشكلة ذات أهمية خطيرة على المجتمع الأوروبي.
- ٤ - الخيانات الزوجية انتشرت في المجتمع الأوروبي "المتمدن" بشكل فظيع، وبصورة مذلة، حتى أصبحت الأسر مهددة بانفصال عراها، وكثير فيها اللقطاء، وذلك بسبب السفور والتبرج، والاختلاط بين الجنسين.
- ٥ - إسبانيا: أصدرت حكومتها قراراً وسنت قانوناً بمنع البغاء الرسمي في بلادها، وbumn النساء من الـبـرـوز عـلـى الشـواطـئ فـي ثـيـاب الـاسـتـحـام.
- ٦ - زعيم فرنسا نادى غداة هزيمتها أمام الألمان في الحرب الأخيرة يقول: إن سبب الهيار دولة فرنسا وسبب هزيمتها وانكسارها هو انغماسهم في الشهوات الجنسية، وإسرافهم في المفاسد والمفاثن.
- ٧ - وأخيراً نجد أن الجرائم تزداد في كل يوم في المجتمع المتmodern "المجتمع الغربي" مع صرامة العقوبات المشروعة عندهم بالحبس والسجن سنوات الطوال، أو الإعدام بالشنق، ومع ذلك نجد الجرائم المرهوة من خطف للفتيات والفتىـان، وإـزـهـاق لـلـأـرـواـحـ، وـسـرـقةـ فـي وـضـحـ النـهـارـ لـلـبـيـوتـ وـالـبـنـوـكـ وـالـمـحـلـاتـ الـكـبـيرـةـ حتـىـ لـقـدـ أـصـبـحـناـ نـسـمـعـ عنـ وـجـودـ عـصـابـاتـ خـطـيرـةـ،ـ تـمـدـدـ أـمـنـ الـبـلـادـ وـسـلـامـةـ الـعـبـادـ،ـ وـذـلـكـ مـنـ أـعـظـمـ الـبرـاهـينـ عـلـىـ فـشـلـ النـظـمـ الـوضـعـيةـ،ـ وـالـتـشـرـيـعـاتـ الـبـشـرـيةـ.ـ أـمـاـ إـلـاسـلـامـ فـقـدـ حـقـقـ الـأـمـنـ وـالـسـلـامـ،ـ وـقـضـىـ عـلـىـ الـجـرـيمـةـ فـيـ مـهـدـهـاـ،ـ

ولقد أحسن من قال:

أين ما نظمتْ عقولٌ ضِعافٌ
من نظام المُهيمِنَ الدِّيَانِ
إيه عصر العِشرين ظُنُوك عصراً
نَير الوجه مُسِعدُ الإنسانِ
لستَ نوراً، بل أنتَ نارٌ وظلمٌ
مذْ جعلتَ الإنسانَ كالحيوانَ

ذلك هو الفرق بين تشريع الرحمن وتشريع الإنسان، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.^(١)

٥ - الإخبار عن المغيبات:

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم إخباره عن المغيبات، وذلك برهان ساطع، ودليل قاطع على أن هذا القرآن ليس من كلام بشر، وإنما هو كلام علام الغيوب الذي لا تخفي عليه خافية، ولو كان من صنع محمد - كما زعموا - لظهرت علائم الوضع في تلك الأخبار الغيبة بوقوعها على خلاف ما أخبر، ولافتضح أمره بالكذب الصريح، وحاشاه - ﷺ - من الكذب على الله.

أ- فمن هذه الأخبار الغيبة إخباره عن الحرب التي ستقع بين الروم والفرس، وستكون الغلبة فيها والانتصار للروم بعد أن انكسروا في الحرب السابقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿الْمَّ
غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ لَهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ
بَعْدٍ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَخُ الْمُؤْمِنُونَ يَنَصِّرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الروم: ٥-١).

يدرك المفسرون في سبب نزول هذه الآية: أن حرباً وقعت بين دولة الروم وهي "مسيحية"، ودولة الفرس وهي "وثنية"، فانتصر الفرس على الروم، ففرح المشركون وشمتوا، وقالوا لل المسلمين: تزعمون أنكم أهل كتاب، وأن النصارى أهل كتاب،وها قد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن نحن عليكم، فاغتمّ المسلمون، وحزنوا لانهزام الروم، وهم دولة متدينة أمام دولة الفرس وهم وثنيون، فنزلت الآية الكريمة تبشر المسلمين بانتصار الروم على الفرس

^(١) انظر كتاب "مناهل العرفان" للزرقاوي.

وفي الآية نبوءة أخرى، وهي أن المسلمين سيفرحون بنصر قريب في الوقت الذي ينتصر فيه الروم: ﴿وَيَوْمَ إِذَا يُفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾، ولقد صدق الله وعده في هذه كما صدقه في تلك، فكان ظفر المسلمين في بدر واقعاً في الطرف الذي انتصر فيه الروم، وهكذا تحققت النبوءاتان في وقت واحد بفضل الله.

يقول الزمخشري: وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة، وأن القرآن من عند الله؛ لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.^(١)

بـ- التنبؤ بدخول الرسول وأصحابه مكة آمنين مطمئنين. روي أن النبي ﷺ رأى في منامه، وذلك قبل خروجه إلى الحديبية، رأى كأنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وحسبوا إنهم دخلوها من عامهم، وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حق، فلما كان صلح الحديبية خرجوا من المدينة محميين يسوقون المَهْدِيَ إلى مكة لا يقصدون حرباً، وإنما يقصدون العمرة والنسك، ولكن قريشاً صدّقهم، وقادت تقع الحرب بين المسلمين والشركين، لو لا أن الرسول ﷺ رضي معهم بالصلح وإثارة منه للسلم وحيا للسلام العام.

^(١) انظر الكشاف: ٤/٣٤٥. في سبب نزول الآية الكريمة.

وكان من شروط ذلك الصلح أن يرجع الرسول ومن معه من ذلك العام على أن يدخلوا مكة في العام القابل، واتخذ المنافقون ضعفاء الإيمان من ذلك سبيلا إلى الطعن والدس واللمز، حتى قال رئيس المنافقين عبد الله بن أبي: والله ما حلقنا، ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام، ولكن نزلت الآية الكريمة تحمل تلك الوعود الثلاثة المؤكدة وهي: دخول مكة، وأداء النسك، والأمن من قريش على رغم ما هو معروف من غدر قريش ونكثهم العهود، وتقطيعهم الأرحام، وقد أنجز الله وعده فتم الأمر، ودخل المؤمنون مكة آمنين مطمئنين، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُرَسُولُهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِينَ مُحَلَّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصَّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ٢٧).

ج- تنبؤ القرآن باهزام المشركين قبل وقوع الحرب، وذلك في قوله تعالى في سورة القمر: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ ۝ سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ بِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرًا﴾ (القمر: ٤٤-٤٦)، وسورة القمر مكية، والجهاد لم يشرع إلا في السنة الثانية من الهجرة، فأين هي إذا فكرة الحرب؟ ومن الذي كان يجول بخياله أن ينهزم جمع المشركين، وينتصر عليهم المسلمون وهم قلة في العدد والعدد ولكنه وعد الله لا يخلف. روي عن عكرمة أنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، قال عمر بن الخطاب: أي جمع هذا الذي سيهزم؟ فلما كانت غزوة بدرا رأى رسول الله ﷺ وهو يشب في الدرع ويقول: ﴿سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، فعرف عمر تأويلها.^(١) روى عن ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين.

د- تنبؤ القرآن بذلك المستقبل الأسود الذي يتضرر كفار قريش، وذلك في قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَعْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَنَّى لَهُمُ الذُّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾

وَقَالُوا مَعْلِمٌ مَجْحُونٌ ﴿٤﴾ إِنَّا كَاشِفُ الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿٥﴾ يَوْمَ نُبَطِّشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى
إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿٦﴾ (الدخان: ١٠-١٦).

وبسبب نزول هذه الآيات الكريمة: أن أهل مكة لما كذبوا رسول الله ﷺ، واستعصوا وتمردوا عليه، دعا عليهم فقال: "اللهم أعني عليهم بسبعين يوم يوسف" فأخذتهم سنة محصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميادة من الجوع، وينظر أحدهم إلى السماء، فيرى كهيئة الدخان، فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد! إنك جئت تأمر بطاعة الله، وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادعوا الله لهم، فأنزل الله هذه الآيات الكريمة. ^(١)

قال الزرقاني رحمه الله: وفي هذه الآيات عند التأمل خمسة تنبؤات:

أولها: الإخبار بما يعشاهم من القحط والجوع، حتى يرى الرجل بينه وبين السماء كهيئة الدخان.

الثاني: الإخبار بأنهم سيضرعون إلى الله حين تخل بهم هذه الأزمة.

الثالث: الإخبار بأن الله سيكشف عنهم ذلك العذاب قليلاً.

الرابع: الإخبار بأنهم سيعودون إلى كفرهم وعتواهم.

الخامس: الإخبار بأن الله سينتقم منهم يوم البطشة، وهو يوم بدر.

ثم قال: ولقد حق الله ذلك كله، ما اخرم منه ولا نبوءة واحدة، فأصيروا بالقحط حتى أكلوا العظام، وجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من شدة جوعه وجهده، ثم قالوا متضرعين: ﴿رَبَّنَا اكْسِفْتَ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾، ثم كشف الله عنهم العذاب قليلاً، ثم عادوا إلى كفرهم وعتواهم، فانتقم الله منهم يوم "بدر"، فبطش بهم البطشة الكبرى حيث قُتل منهم سبعون وأسر سبعون، وأدِيل لل المسلمين منهم، أرأيت ذلك كله؟ هل يمكن أن يصدر مثله من مخلوق؟ كلا، بل هو الله العزيز الحكيم.

٥- التنبؤ بإظهار الإسلام على جميع الأديان، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

^(١) الحديث من رواية البخاري ومسلم.

بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿الصف: ٩﴾.

وكذلك التنبؤ بالمستقبل باسم الذي سيكون للمؤمنين، وذلك في قوله تعالى: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيَمْكُنَ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيَبْدُلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾** (النور: ٥٥). ^(١)

وقد تحقق هذا الوعد الإلهي، فأظهر الله الإسلام على جميع الأديان، ومكن للمسلمين في الأرض في حياة النبي ﷺ حتى استولوا على جميع البلاد العربية، ولم يبق جزء منها إلا دان للمسلمين بالطاعة، ومن لم يدخل في الإسلام دخل في ذمة المسلمين، وخضع لسلطتهم، ودفع الجريمة لهم، ثم سار أصحابه من بعده إلى أرض كسرى، وأرض هرقل، فأزالوا دولة الفرس، ودولة الرومان، ولم يمض قرن من الزمان، حتى اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، فصارت تمتد من بحر الظلمات في المغرب إلى تخوم الصين في المشرق، فتحقق بذلك الوعد الكريم، وكان وعد الله مفعولا.

وكل هذه - وأمثالها في القرآن كثير - أخبار عن المستقبل، وقد تحققت جميعها، وهذا أمر خارق للعادة، فكان وجهاً من وجوه الإعجاز؛ لأن مثله لا يتفق إلا بإخبار من عند الله حل وعلا. ولا يغيب عن بالنا أن جميع القصص التي جاء في القرآن الكريم هو من باب الإخبار عن غيوب الماضي، الذي أطلع الله رسوله الكريم عليه، وما كان له علم بها، وهذا ذكر الله جل ثناؤه قصة نوح، ثم أعقبها بهذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: **﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾** (هود: ٤٩).

وما أروع قصص القرآن الذي نزل على خاتم المرسلين؛ ليكون ثبيتاً لقلبه وذكرى للمؤمنين، وذلك أعظم برهان على أنه تنزيل رب العالمين، فيا لها من حكمة سامية، ومعجزة باهرة!

^(١) قال الزمخشري: إن النبي ﷺ مكث مع أصحابه بمكة عشر سنين خائفين، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون ويسون وهم في السلاح، حتى قال رجل منهم: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فنزلت الآية الكريمة، وهم في خوف شديد، فأنجى الله وعده، وأظهرهم على جزيرة العرب، وافتتحوا بعد ذلك بلاد المشرق والمغرب، ومزقوا ملك الأكاسرة، وملكوا خزائنهما، واستولوا على الدنيا. الكشاف: ٢٥٢/٣.

٦ - عدم التعارض مع العلم بالحديث:

ومن وجوه إعجاز القرآن تلك الإشارات الدقيقة إلى بعض العلوم الكونية التي سبق إليها القرآن قبل أن يكتشفها العلم الحديث، ثم عدم تعارضه مع ما يكشفه العلم من نظريات علمية حديثة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الناحية من نواحي الإعجاز بقوله جل شأنه: ﴿سَتُرُّهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣). ومع اعتقادنا بأن القرآن العظيم ليس كتاب طبيعة أو هندسة أو فيزياء، وإنما هو كتاب "هدية وإرشاد"، وكتاب "تشريع وإصلاح"، ولكن مع ذلك لم تخلي آياته من الإشارات الدقيقة، والحقائق الخفية إلى بعض المسائل الطبيعية، والطبية، والجغرافية مما يدل على إعجاز القرآن وكونه وحيا من عند الله، فمن المقطوع به: أن محمداً ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وأنه نشأ في بيئة بعيدة عن مظاهر الحضارة، حيث لم تكن علوم ولا معارف ولا مدارس تقرأ فيها العلوم الكونية؛ لأن قومه وعشيرته كانوا أميين.

ومع ذلك، فإن النظريات العلمية التي أشار إليها القرآن لم تكن معلومة في عصره، ولم يكشف العلم أسرارها إلا منذ زمن قريب، وذلك من أصدق البراهين على أن هذا القرآن ليس من تأليف محمد ﷺ - كما يزعم بعض المستشرقين - إنما هو وحي من الله، أنزله على قلب سيد المرسلين بلسان عربي متين.

ولقد أجاد الأستاذ "عفيف طبارة" في كتابه "روح الدين الإسلامي"، فذكر بعض هذه الحقائق العلمية الدقيقة، ونحن ننقل بعضها بشيء من الإيجاز مع التصرف.

الفصل العاشر:

معجزات القرآن العلمية

أولاً : وحدة الكون:

أظهر النظريات العلمية الحديثة تقول: إن الأرض كانت جزءاً من المجموعة الشمسية، ثم انفصلت عنها، وتبردت، وأصبحت صالحة لسكنى الإنسان، ويرهنون على صحة هذه النظرية بوجود البراكين^(١) والمواد الملتهبة في باطن الأرض، وقدف الأرض بين حين وحين بهذه الحمم^(٢) من المواد البركانية الملتهبة... الخ.

هذه النظرية الحديثة تتفق مع ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله جل ثناؤه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَا هُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٌّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

يقول الأستاذ "طبار": هذه معجزة من معجزات القرآن يؤيدتها العلم الحديث الذي قرر أن الكون كان شيئاً واحداً متصلة من غاز،^(٣) ثم انقسم إلى سدايم، وعالمنا الشمسي كان نتيجة تلك الانقسامات...

أما الشطر الثاني من الآية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٌّ﴾ فهو من أبلغ ما جاء في تقرير حقيقة علمية أدرك العلماء سرهَا، فمعظم العمليات الكيميائية تحتاج إلى الماء، وهو العنصر الأساسي

^(١) البركان: فتحة في القشرة الأرضية تخرج منها مواد منصهرة وغازات وأبخرة، يكون غالباً مخروطي الشكل. ويطلق كذلك على الجبل الذي يتكون من تراكم هذا الماء.

^(٢) الحمم: الفحم، والرماد، وكل ما احترق من النار. واحدته: حممة.

^(٣) الغاز: حالة من حالات المادة الثلاث تكون في العادة شفافة، تتميز بأنها تشغّل كل حيّز توضع فيه وتشكل بشكله، كالملاء والأوكسجين وثاني أكسيد الكربون في درجات الحرارة والضغط العاديين. (غاز الفحم): مخلوط من الغازات يستعمل في المواقد والإلارنة.

لاستمرار الحياة لجميع الكائنات والنباتات، وللماء خواص أخرى تدل على أن مبدع الكون قد صممها بما يحقق صالح مخلوقاته، والماء يمتلك كميات كبيرة من الأوكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة، وعندما يتجمد تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد الأحياء التي تعيش في البحر من أسماكٍ وغيرها، مما أعجب حكمة القرآن للذى يبين بكلمات جليلة سرّ الحياة!

وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسير هذه الآية الكريمة: كانت السماء رتقا لامطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلاً، فتفق السماء بالمطر، وتفق الأرض بالنباتات.^(١)

أقول: هذا التفسير جميل وحسن، ويكون من باب "الاستعارة"، وهو الذي ذهب إليه المفسرون القدامى، ولكن لا يمنع أن يكون في القرآن بعض هذه الروائع العلمية التي كشف عنها العلم الحديث، فالقرآن حمال وجوه، وليس هناك تحكم في فهم أسراره، فربما فهم المتأخرون ما لم يفهمه المتقدمون، والله تعالى يقول: ﴿هُوَ سَرِّيْهُمْ آيَاٰتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣). فلعل هذا من الآيات التي أطلعهم الله عليها في القرن العشرين.

ثانياً : نشأة الكون:

يقول العالم الفلكي جينز: "إن مادة الكون بدأت غازاً منتشرًا خلال الفضاء بانتظام، وإن السديم - المجموعات الفلكية - خلقت من تكافؤ هذا الغاز".

ويقول الدكتور جامو: "إن الكون في بدء نشأته كان مملوءاً بغاز موزع توزيعاً منتظاماً، ومنه حدثت عمليات".

هذه النظرية تحد لها في القرآن الكريم ما يؤيدتها - ولو لا أن القرآن أخبر عن ذلك لاستبعدها

^(١) تفسير ابن كثير: ١٨٧/٣

هذه النظرية - يقول تعالى: ﴿هُنَّمَا اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعَيْنَ﴾ (فصلت: ١١)، فالقرآن صور مصدر خلق هذا الكون "بالدخان"، وهو الشيء الذي يفهمه القرب من الأشياء الملموسة. أيكون في مقدور أميّ - منذ أربعة عشر قرنا - أن يدرك هذا في وقت كان الناس لا يعرفون شيئاً عن هذا الكون وخفاياه؟.

ثالثاً : تقسيم الذرة:

ظل الاعتقاد السائد حتى القرن التاسع عشر أن الذرة هي أصغر جزء يمكن أن يوجد في عنصر من العناصر. وأنها غير قابلة للتجزئة؛ لأنها الجزء الذي لا يتجزأ، وقد مضت قرون على هذا الاعتقاد، ومنذ عشرات السنين الماضية حول العلماء اهتمامهم إلى مشكلة "الذرة"، فأمكنهم تجزئتها وتقسيمتها، وقد وجدوا أنها تحتوي على الدقائق الآتية:

(١) البروتون (٢) النيترون (٣) الإلكترون

وبواسطة هذه التجزئة اخترعوا القنبلة الذرية، والقنبلة الهيدروجينية، ونعود بالله من قيام الساعة ومن شر إبليس اللعين.

استمع إلى قوله تعالى عند الإخبار عن الذرة: ﴿وَمَا يَعْزُبُ^(١) عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس: ٦٦).

فكلمة ﴿أَصْغَرَ﴾ من الذرة في الآية القرآنية: تصريح جلي بإمكان تجزئتها، وفي قوله: ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ بيان بأن خواص الذرات في الأرض، هي نفس خواص الذرات الموجودة في الشمس والنجوم والكواكب، فهل درس محمد ﷺ خواص الذرة، وأمكنه تجزئتها، والوقوف على خواصها في الأرض والسماء؟ إنما لدليل قويٌ على أن القرآن وحيٌ إلهيٌ.

^(١) يعزب: أي يغيب ومحفي.

رابعاً : نقص الأوكسجين:

منذ اكتشاف الطيران، ظهرت للعلماء بادرة طبيعية، وهي: "نقص الأوكسجين في طبقات الجو العليا"، فكلما حلق الإنسان وارتفع في أجواء السماء، كلما أدركته هذه الظاهرة، وشعر عند ذلك بضيق الصدر وصعوبة التنفس، حتى ليكاد يشعر بالاختناق، وهذا فإن الطيارين يعطون تعليمات للركاب بأن يستعملوا "الأوكسجين الصناعي" حين تعلو بهم الطائرة إلى مرتفات عالية تزيد عن ٣٥ خمسة وثلاثين ألف قدم. هذه الظاهرة العلمية أشار إليها القرآن الكريم قبل اختراع الطيران، وقيل أربعة عشر قرناً، استمع إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيهِ يَسْرُحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضْلِلَهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا﴾^(١) كأنما يصعد في السماء (الأنعام: ١٢٥).

ولقد كان القدماء يفسرون هذه الآية حسب مفاهيمهم التي تتفق مع زمامهم، فكانوا يقولون: ﴿كَانَمَا يَصَعُّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: كمن يحاول الصعود إلى السماء، وهو ليس بمستطاع، أو كمن يحاول عمل المستحيل.

وقد جاء هذا العصر، فأظهر معجزة القرآن، وسحل اتفاقاً رائعاً للآية القرآنية مع الواقع العلمي، فكان تأييداً لصدق نبوة محمد ﷺ، فليله ما أروع هذا القرآن، وما أسماه؟

خامساً : الزوجية منبئة في كل شيء:

كان الناس يعتقدون بأن الزوجية "الذكر، والأثني" منبئة بين النوعين "الإنسان، والحيوان" فقط، فجاء العلم الحديث، فأثبتت أن الزوجية توجد في النبات كذلك، وفي الجمادات، وفي كل ذرة من ذرات الكون والوجود حتى الكهرباء، وفيها "الموجب"، وفيها "السلب"، هذه فيها شحنة كهربائية موجبة، وتلك فيها شحنة كهربائية سالبة، وحتى الذرة فيها "البروتون" و"النيترون"، وكل منها يشبه الذكر والأثني، وهذا الاكتشاف سبق إليه القرآن العظيم في عديد من الآيات الكريمة، استمع إلى هذه الروائع البينات:

^(١) حرجاً: شديد الضيق.

- أ- **﴿هُوَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** (الذريات: ٤٩). فالعموم هنا واضح: **﴿هُوَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾**.
- ب- **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْتَسَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾** (الشعراء: ٧) الإشارة هنا "للنبات".
- ج- **﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلُّهَا مِمَّا تُبْتَأِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾** (يس: ٣٦).

فهذه الآية الكريمة عممت الروحية في النبات والإنسان، وفي كل شيء مما نعلمه، أو لا نعلمه، فسبحان الإله القدير العليم الذي أحاط علمه بكل الأكونان، وأحصى كل شيء عددا.

سادسا : أغشية الجنين:

ثبت علميا أن الجنين في بطن أمه محاط بثلاثة أغشية، وهذه الأغشية لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق، وتظهر بالعين المجردة كأنها غشاء واحد، وهذه الأغشية هي التي تسمى: "الغشاء المbarي" و"الخوربون"، و"اللفائي". هذا ما أثبته الطبّ الحديث، وقد جاء القرآن الكريم مؤيداً هذه الحقيقة العلمية، وذلك في سورة الزمر في قوله جل وعلا: **﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٌ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾** (الزمر: ٦)، ففي هذه الآية معجزة علمية للقرآن، فقد أخبر أن الجنين له ثلاثة أغشية سماها: "ظلمات"؛ لأن الغشاء حاجز، وحجاب يحجز عنه النور والضياء، وهي في العلم الحديث ثلاثة أغشية.

سابعا : التلقيح بواسطة الرياح:

أثبت العلم الحديث: أن الهواء ينقل الأعضاء المذكورة إلى المؤنة في التخييل والتين، وغيرها من الأشجار المثمرة، فيكون التلقيح بواسطة الرياح^(١) والهواء، وهذه الناحية العلمية تحدث عنها

^(١) يقول المستشرق المستر "أجنيري" الأستاذ في مدرسة "أكسفورد" في القرن الماضي: إن أصحاب الإبل قد عرفوا أن الرياح تلقيح الأشجار والثمار قبل أن يعلموا أهل أوروبا بثلاثة عشر قرنا، يشير بذلك إلى أن هذا مما سبق إليه القرآن. والفضل ما شهدت به الأعداء.

القرآن الكريم في قوله جل ثناؤه: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِعَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِحَازِنِينَ﴾ (الحجر: ٢٢)، وهذا سبق للقرآن في الحقائق العلمية الثابتة مما يدل على صدق النبوة.

ثامنا : الحيوان المنوي:

اكتشف الطب الحديث أن هذا السائل من مني الإنسان: يحوي حيوانات صغيرة تسمى "الحيوانات المنوية"، وهي لا ترى بالعين المجردة، إنما ترى "المكرسكوب"، وكل حيوان منها له رأس ورقبة وذيل، يشبه دودة العلق في شكلها ورسمها، وأن هذا الحيوان يختلط بالبويضة الأنثوية فيلقيحها، فإذا ما تم اللقاح انتطبق عنق الرحم، فلم يدخل شيء من بعده إلى الرحم، وأما بقية الحيوانات فتموت، وهذه الناحية العلمية وهي : أن الحيوان المنوي يشبه العلق في الشكل والرسم، فقد أثبتتها القرآن، استمع إلى قوله جل وعلا: ﴿ا قُرْأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق: ٢٠)، فهذه الآية معجزة بلية من معجزات القرآن لم يظهر وقت نزولها ولا بعده بعشرات السنين إلى أن اكتشف الممحر المكبر "المكرسكوب"، وعرف كيف يتكون الإنسان بقدرة الله !

تاسعا : اختلاف بصمات الإنسان:

في القرن الماضي سنة (١٨٨٤) م استعملت في إنكلترا رسميا طريقة للتعرف على الشخص بواسطة بصمات الأصابع، وأصبحت هذه الطريقة متتبعة في جميع البلاد، ذلك؛ لأن بشرة الأصابع مغطاة بخطوط دقيقة، وعلى عدة أنواع: "أقواس، عراو، دوامات"، وهذه الخطوط لا تتغير مدى الحياة، وجميع أعضاء الجسم تتشابه أحيانا، ولكن الأصابع لها مميزات خاصة؛ إذ أنها لا تتشابه ولا تتقرب، وهنا المعجزة الإلهية، فلماذا اختار الله سبحانه بناء الإنسان في إقامة الدليل على البعد: ﴿هَلْ يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنَّ نَجْمَعَ عِظَامَهُ، بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَيَانَهُ﴾ (القيمة: ٤، ٣).

٧ - الوفاء بالوعد:

ومن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم "الوفاء بالوعد" في كل ما أخبر عنه، وفي كل ما وعد الله سبحانه عباده به، وهذا الوعد ينقسم إلى قسمين:

أ- وعد مطلق.

ب- وعد مقيد.

فالوعد المطلق كوعده بنصر رسوله، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه، ونصر المؤمنين على الكافرين، وقد تحقق ذلك كله، أقرأ إن شئت قوله جل وعلا: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخَرَ وَيُتَمِّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ أَنْصَرًا عَزِيزًا﴾ (الفتح: ٣-٤).

وقد تتحقق هذا النصر بفتح مكة، وبدخول الناس في الإسلام أفواجاً أفواجاً، وبذلك تمت النعمة على سيد الأنام محمد ﷺ، وأقر الله عينه بنصره على أعدائه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرٌ اللَّهُ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبَّحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا﴾ (النصر: ١-٣). وصدق الله وعده بنصرته لأنبيائه وأوليائهما: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر: ٥١).

ومن الوعد المطلق قوله جل ثناؤه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧)، وقد تحقق نصر المؤمنين في مواطن عديدة في بدر وأحد وغيرهما من المعارك العظيمة التي شهدتها تاريخ الإسلام، أقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذْلَّةٍ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٣)، وقوله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ صَدَقْتُمُ اللَّهَ وَعْدَهُ إِذْ تَحْسُنُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ (آل عمران: ١٥٢) تحسونهم: أي تقتلونهم قتلاً ذريعاً.

ومن الوعد المطلق قوله سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَحْلِفُنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَحْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (النور: ٥٥).

وقد تحقق الوعد، فانتصر المؤمنون حتى فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، وسارت جيوشهم حتى بلغت أقصى المعמורה، وقد كان أبو بكر رضي الله عنه إذا أرسل جيوشه للغزو عرّفهم ما وعدهم الله؛ ليتقوا بالصبر ويستيقنوا بالظفر، ومن الوعد المطلق قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (الفتح: ٢٨). أما الوعد المقيد فهو ما كان فيه شرط كشرط التقوى، وشرط الصبر، وشرط نصرة دين الله وما شابه ذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُبَيِّنُ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَبَرْزُقًا مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٣، ٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٤).

وقد وعد الله المؤمنين بالنصر بشرط الصبر، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفَانِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (الأنفال: ٦٥).

٨ - العلوم والمعارف:

ومن وجوه إعجاز القرآن: هذه العلوم والمعارف التي زخر بها القرآن الكريم، والتي بلغت من نصاعة البرهان وقوة الحجّة مبلغا يستحيل على محمد صلوات الله عليه - وهو رجل أمي نشأ بين الأميين - أن يأتي بها من عند نفسه، بل يستحيل على أهل الأرض جيلا من أدباء وعلماء، وفلاسفة وحكماء، ومن مشرعين وعباقرة أن يأتوا بمثل هذه العلوم والمعارف، وفي هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن حجة دامغة، وبرهان ساطع، يقسم ظهر كل أفاك معاوند، يزعم أن ما جاء به محمد إن هو إلا تعليم الكتب السابقة، استمدّها محمد من بعض أهل الكتاب في عصره، ثم نسبها إلى ربه؛ ليستمد من هذه النسبة قدسيتها: ﴿كَبَرْتُ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف: ٥).

ونحن نقول لهؤلاء الغمّي: كيف يكون القرآن نسخة عن الكتب السابقة، وقد جاء منكرا على

أهلها، مخالفًا لأكثراها، بل جاء مبطلاً وهادماً لأصول أفكارها وعوائدها بسبب ما دخل فيها من تحرير وتبديل؟

وكيف يمكن أن تتفق عقيدة "التوحيد" مع عقيدة "التشليث"، وبينهما كما بين السماء والأرض؟ ألم يسمعوا الحكم القاطع الجازم فيهم بأنهم كفرةٌ فجرةٌ، يعبدون أحبارهم ورہبائهم من دون الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ قَاتَلُهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانُهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبه: ٣١، ٣٠).

جاء القرآن بالعلوم المتنوعة، والمعارف المتعددة في العقائد والعبادات، والتشريع والتنظيم، وفي الأخلاق والمعاملات، وفي حقول شتى: في التربية والتعليم، وفي السياسة والاقتصاد، وفي الفلسفة والاجتماع، وكذلك في القصص والأخبار، وفي أصول المناقضة والجدل.

ولاشك أن هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز، فكيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب، ولا نشأ في بلد علم وتشريع، ولا في مدينة ذات حضارة ومدنية: أن يأتي بمثل ما في القرآن من هذه العلوم والمعارف تحقيقاً وكمالاً، مؤيداً بالحجج والبراهين بعد أن قضى معظم حياته لا يعرف شيئاً عنها، ولم ينطق بقاعدة أو أصل منها، ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون ذلك وحياً من الله تعالى؟ وأحب أن أقتصر هنا على مثل من هذه العلوم المتنوعة العديدة، وهو بحث "العقيدة في القرآن"، وأن أقارن بين تعاليم الإسلام، وتعاليم اليهودية والنصرانية على عهد نزوله؛ ليتبين الصبح لذى عينين، ويظهر ضياء الحق الساطع، ونوره الباهر، وكما قيل:

"وبضدها تميز الأشياء".

العقيدة الإسلامية:

جاء القرآن بعقيدة سمحنة صافية، بيضاء نقية في ذات الله تبارك وتعالى، وفي حق رسleه الكرام، فالله رب العالمين واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد، له جميع صفات الكمال،

ومنه عن جميع صفات النص: "لا ذاته تشبهها الذوات، ولا حكت صفاتِه الصفاتُ": ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) وهو جل وعلا قيوم ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةً وَلَا نَوْمًا﴾ (البقرة: ٢٥٥) ولا يشغله شأن عن شأن: ﴿هُوَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الشَّرَى﴾ (طه: ٦)... هو الخالق المتفرد بالخلق والإيجاد، وبهذه ناصية العباد، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٢٠) الكل خلقه، والجميع عبيده: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَيَ الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ (مرim: ٩٣) اقرأ إن شئت هذه الآيات الروائع في صفات الله عزوجل:

- ١ - ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغارِقِ﴾ (الصفات: ٤، ٥).
- ٢ - ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسَعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (طه: ٩٨).
- ٣ - ﴿فَقُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيَّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا، وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَجَدَّدْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلُّ وَكَبِرَهُ تَكْبِيرًا﴾ (الإسراء: ١١١، ١١٠).
- ٤ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَتُمُ الْفُقَرَاءَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (فاطر: ١٥-١٧).

العقيدة اليهودية:

وضل اليهود بعد موسى عليه السلام، فعبدوا بعلا، وزعموا أن الله ابنها هو العظيم عليه السلام، وشبهوا الله بالإنسان، فزعموا أنه تعب من خلق السماوات والأرض، فاستراح يوم السبت، واستلقى على قفاه، وركبوا رؤوسهم، فقالوا: إنه - جل وعلا - ظهر في صورة إنسان، وصارع إسرائيل، فلم يستطع أن يغلبه، ولم يتخلص منه الرب حتى باركه وذرته، فأطلقه عند ذلك يعقوب، وادعوا أنهم الشعب المختار من بين الشعوب، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الدار الآخرة حالصة

لهم من دون الناس، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، هي مدة عبادتهم العجل أربعين يوماً كما افتروا على السيد المسيح "عيسى"، فزعموا أنه ابن زنا، وأن أمه زانية، وأنهم صلبوه؛ ليطهروا بني إسرائيل من هذه الجريمة الشنيعة.

كل هذا - وأمثاله كثير - من أباطيل وأضاليل اليهود، جاء القرآن هادماً لها وحرباً عليها، فكيف يزعمون أن القرآن نسخة عن التوراة؟

العقيدة النصرانية:

وضل النصارى، فزعموا أن الله ولداً، وذهبوا إلى عقيدة معقدة من الإيمان بالشليث: "الأب، والابن، وروح القدس"، وسموها بالأقانيم، فعيسى هو "الأقنوم" الثاني من الثالوث الإلهي الذي هو عين الأول والثالث، وكل منهما عين الآخر، الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، وخلعوا على رجال كهنوتهم ما هو حق الله وحده من التشريع والتحليل والترجم، وزعموا أن "ابن الله" صلب؛ ليخلص الإنسان من خططيته، ويظهره من أوزاره، والأعجب من هذا: أن كثيرين منهم يعتقدون بأن "عيسى بن مریم" هو الله، نزل إلى الأرض بصورة بشر. إلى غير ذلك من الأباطيل والمخازي التي نسبوها إلى الله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٤٣).

فانظر مدى البوء الشاسع بين الحق الذي جاء به القرآن، وبين الباطل الذي جاء به هؤلاء وهؤلاء على أن القرآن الكريم لم يكتف بسرد هذه الأباطيل والإخبار بها عن تحريف أهل الكتاب، بل رد على أولئك ببراهينه الساطعة، وأداته القاطعة.

استمع إليه وهو يقول عن أهل الكتاب "النصارى": ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ اتَّهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ لَنْ يَسْتَكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ

الْمُقْرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكِفُ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكِبِرُ فَسَيَخْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿النساء: ١٧١، ١٧٢﴾.

واستمع إليه وهو يتكلم عن أهل الكتاب "اليهود"، فيقول: **﴿فِيمَا نَقْضُهُمْ مِثَاقُهُمْ وَكُفُرُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلُهُمُ الْأَنْسَابَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفُرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًاً وَبِكُفُرِهِمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾** وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا مَسِيحًا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَاتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبَهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعُ الظَّنَّ وَمَا قَاتَلُوهُ يَقِيناً، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿النساء: ١٥٥-١٥٨﴾.

ولقد صرخ القرآن بالتحريف الذي وقع عند أهل الكتاب في "التوراة والإنجيل"، وبين أن مهمه الرسول إنما هي في تصحیح ما ارتكبه أهل الكتاب من الكذب والبهتان، وفي كشف ما أخفوه من آيات الله في التوراة والإنجيل: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفِونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبْلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ يَادِنُهُ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾** (المائدة: ١٥، ١٦).

فهل بعد هذا البرهان من حجة أوضح على صدق سيد المرسلين؟ ويرحم الله "البوصيري" حيث يقول:

كافاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليم

٩ - وفاوه بجاجات البشر:

وهذا الوجه من وجوه الإعجاز ظاهر جلي، يدركه كل متأنل في شريعة الإسلام، فقد جاء القرآن الكريم بهدایات تامة كاملة، شاملة واسعة، تفي بجاجات البشر في كل زمان ومكان، ويتجلى ذلك إذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمى إليها القرآن في هدايته وإرشاده وهي بإيجاز:

- ١ - إصلاح الأفراد.
- ٢ - إصلاح المجتمعات.
- ٣ - إصلاح العقائد.
- ٤ - إصلاح العبادات.
- ٥ - إصلاح الأخلاق.
- ٦ - إصلاح الحكم والسياسة.

٧ - إصلاح الشؤون المالية. ٨ - إصلاح الشؤون الحربية. ٩ - إصلاح الثقافة العلمية.

١٠ - تحرير العقول والأفكار من الخرافات.

ولقد أحسن من قال:

شريعة الله للإنسان تبيان وكل شيء سوى القرآن خسران^(١)

١٠ - تأثير القرآن في القلوب:

ومن وجوه إعجاز القرآن ذلك التأثير البالغ الذي أحدثه في قلوب أتباعه وأعدائه، حتى لقد بلغ من شدة التأثير أن المشركين أنفسهم كانوا يخرجون في جنح الليل يستمعون إلى تلاوة القرآن من المسلمين، وحتى تواصوا فيما بينهم لا يستمعوا إلى القرآن، وأن يرفعوا أصواتهم بالضجيج حينما يتلوه محمد؛ لثلا يؤمن به الناس: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوَّا فِيهِ لَعْلَكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦).

ولقد بلغ من تأثير القرآن في القلوب أن يفيء إلى ظلاله أشد الناس عداوة له، وأعظمهم عنادا، فيسلم كثير من هؤلاء الزعماء، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب، وسعد بن معاذ، وأبي سعيد بن حضير، وغيرهم من القادة والرؤساء، هذا هو عمر بن الخطاب الذي يبلغ من شدة قسوته على المسلمين أن يقول فيه أحدهم: "والله لن يسلم حتى يسلم حمار الخطاب"، والذي يبلغ من شدة عدائه أن يتقلد سيفه بالظهيرة، ثم يخرج ليقتله عن محمد عليه السلام، ثم لا يأتي المساء إلا وقد رجع معتقدا للإسلام بسبب بعض آيات سمعها في بيت أخيه من "سعيد بن زيد" عليهما والقصة مشهورة.

وتأمل كيف أسلم سعد بن معاذ عليهما - سيد قبيلة الخزرج - هو وابن أخيه أبي سعيد بن حضير. تروي كتب السيرة: أن رسول الله عليه السلام حين كان في مكة جاءه وفد المدينة الذين بايعوه بيعة العقبة،

^(١) من قصيدة للأستاذ ولد الأعظمي.

فأرسل معهم مبعوثين جليلين يعلمانيم الإسلام والقرآن، وهما : "مصعب بن عمير، وعبدالله بن أم مكتوم رضي الله عنهما، فلما وصلا المدينة أخذوا يعلمان الناس القرآن، فبلغ ذلك سعد بن معاذ رضي الله عنه - سيد القبيلة -، فقال ابن أخيه أسيد بن حضير: ألا تذهب إلى هذين الرجلين اللذين جاءا يسفهان ضعفاءنا، فتنهاهما وتزجرهما عن هذا الصنيع؟

فسار إليهما أسيد، فلما انتهى إليهما قال لهما: ما جاء بكم؟ جئتما تسفهان ضعفاءنا، ثم توعدهما وهددما فقال: اعتزلانا إن كانت لكم في أنفسكم حاجة؟

قال له مصعب رضي الله عنه: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كفينا عنك ما تكره. فجلس أسيد وجعل مصعب رضي الله عنه يقرأ، وهو يسمع، فما انتهى من مجلسه حتى أسلم، ثم كرّ راجعا إلى سعد فقال له: والله ما رأيت بالرجلين بأسا، وأخفى أمامه إسلامه، فغضب سعد وقام بنفسه ثائرا مهتاجا، فقال لهما: ما جاء بكم؟ جئتما تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا.

قال له مصعب رضي الله عنه: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا قبلته منا، وإن كرهته كفينا عنك ما تكره. فقال: أنصفتما، فجعل مصعب رضي الله عنه يتلو القرآن عليه، وسعد يستمع.

يقول مصعب رضي الله عنه: والله! لقد كان وجه سعد يشرق بالإيمان وهو يستمع القرآن، فما انتهى مصعب من القراءة حتى أعلن سيد الأوس إيمانه، ثم كرّ راجعا، فجمع قبيلته وقال لهم: كيف تدعوني فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، فقال لهم سعد: كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا بـ محمد، فدخلوا جميعا في الإسلام... رضي الله عن سعد وأرضاه.

هكذا كان تأثير القرآن في قلوب الأولياء والأعداء، ولا تنس قصة الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة وغيرهما من تأثروا بالقرآن، ولو لا حب الرعامة، ولو لا حب الجاه والسلطان لدخلوا جميعا في دين الله، ولكن الهداية بيد الله ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ (الرعد: ٢٧) و ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص: ٥٦).

ذكر صاحب تفسير المنار أن فيلسوفا من فلاسفة فرنسا ألف كتابا ردّ فيه - ما زعمه دعاة

النصرانية من أن محمداً صلوات الله عليه لم يأت بمثل آيات موسى، وعيسى عليهما السلام، ولم يكن له من الآيات الخوارق ما كان لمن قبله – فقال ذلك الفيلسوف:

"إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً مولها مدحها، صادعاً ومتضرعاً، فيفعل في جذب القلوب إلى الإيمان به فوق ما كانت تفعله جميع آيات الأنبياء السابقين"^(١). وذكر الرافعي كلمة قيمة في كتابه "إعجاز القرآن" هذه الكلمة نقلها عن الأمير شبيب أرسلان: "أن "لوثير" و"كلفين" المصلحين المعروفيين في التاريخ المسيحي، ذكرها مرة أمام "فولتير" فيلسوف فرنسي، فقال: "إنما لا يليقان حذاءين لنعال محمد صلوات الله عليه".

سلامته من التناقض:

وأخيراً فإن من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم سلامته من التناقض والتعارض، خلافاً لجميع كلام البشر، وصدق الله حيث يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢). هذه بعض وجوه الإعجاز في القرآن، وهناك وجوه أخرى ضربنا عنها صفحات خشية التطويل.

ولا يزال الزمن يكشف عن أسرار إعجاز القرآن، فكلما تقدم الزمن تجلّت نواحٍ من نواحي إعجازه، وقام البرهان القاطع أنه تنزيل الحكيم الحميد، ومع ذلك فإن هذه الأسرار التي ذكرها العلماء، إن هي إلا قطرة من بحر علوم القرآن، ومهما اتسع القول وعظم البيان، فإن كلام الله تعالى لا يحيط به أحد، كما لا يحيط أحد بعظمة ذاته، وجليل صفاتاته.

دفع شبهة القول بالصرفة:

وإذ قد انتهينا من وجوه إعجاز القرآن الكريم نرى لزاماً علينا أن ندفع تلك الشبهة التي ذهب إليها بعض المعتزلة وبعض الشيعة، وهي: "شبهة القول بالصرفة".

وخلالصتها: أن الله عزٌّ وجلٌ صرف العرب عن معارضته على حين أنه لم يتجاوز في بلاغته

^(١) انظر تفسير المنار.

المستوى الذي يعجز عنه البشر، ولو لا أن الله صرف همهم عن معارضته لاستطاعوا أن يأتوا بمثله... الخ.

فأنت ترى أصحاب هذا القول يذهبون إلى أن القرآن ليس معجزاً بذاته، وإنما كان إعجازه بسبب أمرين:

الأول: الصارف الإلهي الذي زهدهم في المعارضة، فكسروا وقعدوا.

الثاني: العارض المفاجيء الذي عطل مواهبهم البينانية وقدرتهم البلاغية.

وهذا القول - بشقيه - باطل، لا يثبت أمام البحث، ولا يتفق مع الواقع، وذلك لعدة أسباب:

أولاً: لو كان هذا القول صحيحاً، لكان الإعجاز في "الصرف" لا في القرآن نفسه، وهذا باطل بالإجماع.

ثانياً: لو صح القول بالصرف لكان ذلك "تعجيزاً" لا "إعجازاً"؛ لأنه حينئذ يشبه ما لو قطعنا لسان إنسان، ثم كلفناه بعد ذلك بالكلام، فهذا ليس من باب العجز، وإنما هو من باب التعجيز.

اللقاء في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

ثالثاً: لو كان هناك صارف زهدهم في المعارضة من "كسل أو ملل" لما وقفوا في وجه نبي الإسلام، ولما آذوه، وأصحابه، ولما عذبوا المسلمين وشردوكهم، ولما قاطعوا الرسول وعشيرته، وحاصروهم في الشعب حتى أكلوا ورق الشجر، ولما فاوضوه وساوموه على أن يترك الدعوة، ثم اضطروه إلى الهجرة هو وأصحابه الكرام إلى غير ما هنالك من دوافع وبواطن، جعلتهم يسلكون كل سبيل للقضاء على الإسلام.

رابعاً: لو كان هناك عارض مفاجيء عطل مواهبهم البينانية لأعلنوا ذلك في الناس؛ ليلتمسوا العذر لأنفسهم، وبالتالي؛ ليقللوا من شأن القرآن، ولكنوا بعد نزول القرآن أقل فصاحة وبلاهة منهم قبل نزوله، وهذا باطل واضح البطلان.

خامساً: لو كان هذا العارض المفاجيء صحيحاً لأمكننا نحن الآن، وأمكن المشتغلين بالأدب العربي

في كل عصر أن يعارضوا القرآن، وأن يتبنوا الكذب في دعوى إعجازه، وكل هذه الأشياء باطلة، فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعد ذلك كله: إن العرب كانوا مصروفين عن معارضته القرآن وهي القرآن، وأئمّهم مخلدين إلى العجز والكسل، زاهدين في النزول لذلك الميدان؟ وهل يصح لانسان يحترم نفسه وعقله أن يصدق بمثل هذا الافتراء، القول "بتعطيل المواهب والحواس" بعد أن يستمع إلى شهادة ألد الأعداء من صناديد قريش وهو "الوليد بن المغيرة" حين قال كلمته المشهورة: "والله لقد سمعت آنها كلاما ليس من كلام بشر، ليس بشعر، ولا نثر، ولا كهانة، والله إن له حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلىه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى"؟

والفضل ما شهدت به الأعداء...، وأختتم هذه الكلمة بما ذكره العلامة القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" حيث قال: "فهذه عشرة وجوه، ذكرها علماؤنا هؤلئك في إعجاز القرآن، وهناك قول آخر ذكره النظام: أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته، والصرفة عند التحدي بمثله، وأن المنع والصرفة هو المعجزة دون ذات القرآن، وذلك أن الله تعالى صرف همهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله، وهذا فاسد؛ لأن إجماع الأمة أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا: "إن المنع والصرفة هو المعجز خرج القرآن أن يكون معجزا".^(١)

والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في عجزهم عن الإتيان بمثل سورة من أقصر سور القرآن مع التحدي اللاذع.

هل حاول أحد معارضة القرآن؟

أجمع رواة التاريخ والآثار على أن أساطين البلباء وفحول الشعراء من مشركي العرب لم تحدثهم أنفسهم بمعارضة القرآن، ولم ينقل عن أحد منهم أنه حاول أن يأتي بمعارضة للقرآن مع شدة

^(١) انظر تفسير القرطبي: ٧٥/١

هل حاول أحد معارضه القرآن

حرصهم على صد الناس عن الإسلام، والتکذیب برسالة محمد ﷺ.
ولكن نقل عن بعض السفهاء الحمقى أنهم حاولوا معارضته القرآن، فكان ما أنوا به لا يخرج عن أن يكون محاولات مضحكة، أخجلتهم أمام البشر، وجعلتهم أضحوكة لدى العقلاء، فباءوا بغضب من الله، وسخط من الناس، وكان مصرعهم هذا كسباً جديداً للحق، وبرهاناً ناصعاً على أن القرآن كلام الله الذي لا يستطيع معارضته إنسان.

أ- فمن أولئك: "مسيلمة الكذاب" الذي ادعى النبوة، وزعم أنه شريك لرسول الله في شأن النبوة، وقد كتب إليه في السنة العاشرة للهجرة يقول: "أما بعد! فإن قد شوركت في الأرض معك، وإنما لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، لكن قريشاً قوم يعتدون". وقد زعم مسيلمة أن له قرآنًا نزل عليه من السماء، ويأتيه به ملَك يسمى "رحمن"، وهو نحن ننقل طائفه من أقواله وهَذِيَانه؛ ليظهر كذب هذا الأحمق الدجّال، ويُتضح أمره، فكفاه ذلك الوصف أنه كذاب.

قال - أخزاه الله - معارضها سورة العاديات:

(والطاحنات طحنا، والعاجنات عجنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا.. لقد فضلتكم على أهل الوبير، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمغير فاؤوه، والباغي فناوئوه) وقال: "والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألباها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المدق فما لكم لاتمجمعون).

ومن قرآن المفترى: (الفيل ما الفيل، وما أدرك ما الفيل، له ذنب وبيل، وخرطوم طوييل...) الخ. قوله: (يا ضفدع بنت ضفدعين، نقّي ما تنقّي، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء تكدررين، ولا الشارب تمنعين).

وقد زعم أنه عارض سورة الكوثر، فخرج إلى الناس بهذا الهدى:

(إن أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، إن شانك هو الكافر).

وكل كلامه على هذا النمط واه سخيف لا ينهض ولا يتلمسك، وأنت خبير بأن مثل ذلك الإسفاف ليس من المعارضة في قليل ولا كثير.

يقول الرافعي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَرَّأَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: "إن مسلمة لم يرد أن يعرض للقرآن من ناحية "الصناعة البشارة"، وإنما أراد أن يأخذ سبيله إلى استهواه قومه من ناحية أخرى، ظنّها أهون عليه وأقرب تأثيراً في نفوسهم، وذلك أنه رأى العرب تعظم الكهان في الجاهلية، وكانت عامة أساليب الكهان من هذا السجع القلق، الذي يزعمون أنه من كلام الجن كقولهم: "يا جليح، أمر بنجيع، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله"، فجعل يسجع؛ ليوهم أنه يوحى إليه على أنه لم يفلح في هذه الحيلة إذ كان أشياعه يعرفونه بالكذب والحمامة، ويقولون: إنه لم يكن في تعاطيه الكهانة حاذقاً، ولا في دعوى النبوة صادقاً، وإنما كان اتباعهم إيماناً على حد قول قائلهم: كذاب ربعة أحبت إلينا من صادق مضر".

ب- ومنهم: "الأسود العنسي" أدعى النبوة في اليمن، وكان يزعم أن الوحي ينزل عليه، فيخفض رأسه إلى الأرض، ثم يرفعه، فيقول: قال لي كذا وكذا - يعني شيطانه الذي يوحى إليه - وكان جباراً، ولكنه كان فصيحاً معروفاً بالكهانة وال-song، والخطابة، والشعر، والنسب. ولم يذكر أنه حاول المعارضة للقرآن، وإنما اكتفى بدعوى النبوة، وبنزول الوجي عليه هُوَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيَوْحُونَ إِلَى أُولَئِكَهُمْ (آل عمران: ١٢١).

ج- ومنهم: طلحة بن خويلد الأسدية أدعى النبوة، وكان يزعم أن "ذا النون" يأتيه بالوحي، ولكنه لم يدع لنفسه قرآناً لأن قومه كانوا من الفصحاء، ولنكم تابعوه عصبية وطلبا للجاه والشهرة، وقد ذكر صاحب "معجم البلدان" أن له كلاماً كان يزعم أنه نزل عليه بالوحي، ولم يظفر من كلامه إلا على هذه المقالة (إن الله لا يصنع بتعفير وجهكم، وقع أدباركم شيئاً، فاذكروا الله قياماً، فإن الرغوة فوق الصريح) يريد: لاتركعوا ولا تسجدوا، واكتفوا بالصلاحة قياماً،

وبذكرا الله في حالة القيام، وقد أرسل له أبو بكر جيشا بقيادة خالد بن الوليد، فلما التقى الجمuan، قتل عدد كبير من أتباعه، وتزمل هو بكساء يتظاهر الوحي، فقال له "عبيبة": هل أتاك بعد؟ فقال وهو من تحت الكسae: لا، والله! ما جاء بعد، فقال له عبيبة: لقد تركك أحوج ما كنت إليه، ثم قال: يا بني فزاره! هذا كذاب ما بورك لنا وله فيما يطلب، ثم انهزم طليحة وحق بنواحي الشام، ويقال: إنه أسلم بعد ذلك، وكان له في القادسية بلاء حسن.

د- ومنهم: "النضر بن الحارث"، وهو من صناديد قريش، ورؤساء الكفر والضلال، وهو لم يدع النبوة ولا الوحي، ولكنه زعم أنه يعارض القرآن، فلفق أخبارا من حوادث الفرس وملوك العجم، وكان يجلس إلى قريش، فيحدثهم بهذه الأساطير، ثم يقول لهم: هذا خير مما أنزل على محمد.

ه- ويروى أن "أبا العلاء المعري" و"المتبني"، و"ابن المفعع" حاولوا معارضه القرآن، ولكنهم ما كادوا يبدأون هذه المحاولة حتى خجلوا واستحروا، فكسروا الأقلام، ومزقوا الصحف. وقد ذكرنا فيما مضى محاولة "ابن المفعع"، وأنه بعد أن عزم على المعارضة، وبدأ بها فعلاء، سمع صبيا يقرأ قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوْتَ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الطَّالِمِينَ﴾ (هود: ٤٤).

فمنق ما جمع واستحيا من إظهاره أمام الناس بعد أن قال قوله المشهورة: هذا والله! ما يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، وهذه القصة عن ابن المفعع يذكرها الرافعي رحمه الله، ثم يعقب عليها بقوله: "إن ابن المفعع من أبصر الناس باستحالة المعارضة، لا لشيء من الأشياء، إلا لأنه من أبلغ الناس، وإذا قيل لك: إن فلانا يزعم بإمكان المعارضة، ويحتاج لذلك وينازع فيه، فاعلم أن فلانا في الصناعة أحد رجلين اثنين: إما جاهل يصدق في نفسه، وإما عالم يكذب على الناس، ولن يكون ثالث ثلاثة".^(١)

^(١) انظر إعجاز القرآن للرافعي.

فالراجعي ينكر صحة هذه الرواية عن ابن المقفع كما ينكرها على المعرّي فكلاهما في نظره باطل وافتراء عليهما.

و- وتحدثنا الأيام القريبة أن زعماء "البهائية والقاديانية" وضعوا كتاباً يزعمون أنهم يعارضون بها القرآن، ثم خافوا - أو خجلوا - أن يظهروها أمام الناس، فاحفظوها على أمل أن يأتي الوقت المناسب، فيخرجوها بعد أن يكثر الجهل ويطيش العقل.

شبهات حول إعجاز القرآن والرد عليها:

الشبهة الأولى: يقول أعداء الإسلام في معرض الطعن في القرآن، وفي نبي القرآن: إن محمداً ﷺ قد تلقى هذا القرآن من "بحيراً الراهب"، ونسبه إلى الله عزوجل؛ ليوهم البشر قدسيته.

والجواب: أن هذه فرية ما فيها مرية، وهؤلاء الخبائث من الصليبيين وأعواهم من الملاحدة، إنما يروّجون مثل هذه الأباطيل؛ ليشوّشوّا على المثقفين من أبناء المسلمين، ويفسدوّا عليهم عقائدهم بأمثال هذه الشبهات والافتراءات، وهذه الشبهة باطلة لعدة أمور:

أولاً: إن الرسول ﷺ لم يثبت عنه أنه سافر إلى الشام إلا مرتين: مرة في صغره مع عمه "أبي طالب"، ومرة في شبابه مع "ميسرة" غلام السيدة خديجة رضي الله عنها، ولم يحدثنا التاريخ إنه سمع من "بحيراً"، أو تلقى عنه درساً واحداً. وإنما غاية الأمر أن "بحيراً الراهب" رأى سحابة تظلّل الرسول ﷺ، فحدّث عمّه بأن هذا الغلام سيكون له شأن، ثم طلب منه أن يعيده إلى مكة خوفاً عليه من اليهود، ثم هل يعقل والرسول ﷺ في سن الصغر أن يتلقى هذه العلوم والمعارف؟ أو يأتي بمثل هذا القرآن المعجز، وهو لم يتجاوز بعد سن العاشرة؟ وفي المرة الثانية: كان غرضه التجارية، ولم يثبت أنه التقى بأحد من الرهبان في هذه السفرة، فمن أين لهم هذا البهتان والافتراء؟

ثانياً: من المستحيل عقلاً على أي إنسان أن يصبح في هذه المرتبة "أستاذ العالم" ب مجرد مصادفته لراهب من الرهبان مرتين، مع أنه كان في الأولى صغيراً، وفي الثانية تاجراً، وأن يأتي بهذا الكتاب المعجز وهو أميًّا ب مجرد التقائه بأحد الرهبان مرة أو مرتين.

ثالثاً: لو كان هذا الراهب المسمى "بحيراً" هو مصدر هذا القرآن، لكنه هو الآخر بالنبوءة والرسالة، أو لكان عبقريته تفوق عباقرة الدنيا؛ لأنَّه أتى بكلام أعجز فيه الأولين والآخرين.

رابعاً: نقول: إنَّ المشركين من كفار قريش كانوا أعلم وأسلم تفكيرًا من هؤلاء المخانين؛ لأنَّهم - مع شدة حرصهم على تكذيب الرسول وتبهيتِه - لم يقبلوا على أنفسهم مثل هذا الكذب الرخيص، ولم يفكُّروا أن يقولوا إنه تعلَّم من "بحيراً الراهب" مجرد الالقاء به مرتين؛ لأنَّ العقل لا يستسيغ ذلك.

الشبهة الثانية: يقولون: هذا القرآن من تعلم "جبر الرومي"، تعلَّم منه الرسول ﷺ في مكة... إلخ.

والجواب: أنَّ هذه الشبهة قد تولى الله عزوجل الرد عليها بأبلغ حجة وأنصع بيان، فقال عزَّ من قائل: **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الدِّيْنِ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمَيْهِ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾** (النحل: ١٠٣). فهذا الرجل الذين ينسبون إليه تعلمِ محمد ﷺ هو رومي أعجمي، لا يعرف اللسان العربي، فكيف يعلَّمه القرآن؟ وقد كان "جبر" هذا حداداً يمتهن الحداقة، وقد أسلم، فكان النبي ﷺ كثيراً ما يمر عليه، فيجلس عنده، فقال المشركون: والله! ما يعلَّم محمداً هذا القرآن إلا جبر الرومي، وكان سيده يضربه ويقول له: أنت تعلم محمداً، فيقول: لا، والله! بل هو يعلَّمني ويهديني...

ومن الغريب أنَّ هذه التهمة قد لاقت استحساناً عند بعض الأفراد مع أنها في منتهى الغرابة والهزل؛ إذ كيف يكون الأستاذ عبداً حداداً أعجمياً، لا يفقه شيئاً من اللغة العربية، ثم يعلَّم الرسول لغة الضاد، وهل من المعقول أن يكون هذا الرومي الأعجمي مصدراً لهذا القرآن الذي هو أبلغ نصوص العربية، بل هو معجزة المعجزات ومفخرة العرب واللغة العربية؟ ولهذا كان رد القرآن مفحماً وقاطعاً: **﴿لِسَانُ الدِّيْنِ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمَيْهِ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾** (النحل: ١٠٣).

الشَّبَهَةُ التَّالِثَةُ: إنَّ مُحَمَّداً عَبْرِيَّةً فَذَّةً، وَهَذِهِ الْعَبْرِيَّةُ الْخَارِقَةُ، لِمَاذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هِيَ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ، وَأَنْ يَكُونَ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ تَأْلِيفِ مُحَمَّدٍ وَتَرْتِيبِهِ؛ لِأَنَّهُ ذُو شَخْصِيَّةٍ رَائِعَةٌ؟

وَالْجَوابُ: إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ إِنَّمَا يَصُدِّرُ عَنْ جَاهِلٍ لَا يَعْرِفُ شَيْئاً عَنْ حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا عَنْ تَارِيخِ عَشِيرَتِهِ وَقَوْمِهِ، فَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاشَ أَرْبَعينَ سَنَةً بَيْنَ قَوْمِهِ وَهُوَ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ فِي صَدْقَهِ، وَأُمَانَتِهِ، وَنَبْلِهِ، وَفَضْلِهِ حَتَّى كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُلْقِبُونَهُ بـ "الصَّادِقِ الْأَمِينِ"، فَهُلْ يَعْقُلُ بَعْدِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْشَّرِيفَةِ الطَّاهِرَةِ أَنْ يَأْتِي بِأَعْظَمِ هَتَّانِ؟ فَيُزَعِّمُ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ.

وَبِدَايَةِ الْإِنْسَانِ تَدْلِي عَلَى هَاهِيَّتِهِ، فَكِيفَ يَتَفَقَّدُ هَذَا مَعَ تَارِيخِ الرَّسُولِ الشَّرِيفِ الطَّاهِرِ، وَحَيَاةِ الْفَاضِلَةِ الْعَطِرَةِ؟

وَحِينَ سُأْلَ "هَرقل" مَلِكَ الرُّومَ أَبَا سَفِيَّانَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هَلْ كُنْتُمْ تَتَهَمُّونَهُ بِالْكَذْبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟"

أَجَابَهُ أَبُو سَفِيَّانَ بِقَوْلِهِ: لَا، بَلْ هُوَ عِنْدَنَا الصَّادِقُ الْأَمِينُ.

فَقَالَ لِهِ هَرقل: لَمْ يَكُنْ لِي دَعَ الْكَذْبِ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ!

وَمِنْ نَاحِيَةِ ثَانِيَةٍ فَقَدْ ثَبَّتَ فِي التَّارِيخِ ثَبُوتًا قَاطِعاً أَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَمِيَا لَا يَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، وَقَدْ أَكَّدَ هَذَا الْقُرْآنُ بِقَوْلِهِ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿هُوَ مَا كُنْتَ تَتَلَوَّ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأْرَتَابَ الْمُبْطَلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨)، فَمَنْ أَيْنَ لِرَسُولِ اللَّهِ مَعْرِفَةُ أَخْبَارِ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَرْسِلِينَ؟ وَمَنْ أَيْنَ لَهُ مَعْرِفَةُ دَقَائِقِ التَّارِيخِ، وَأَحْوَالِ الْأَمَمِ الْغَابِرَةِ، وَأَنْبَاءِ مِنْ سَيِّقِ مِنَ الْبَشَرِ عَلَى وَجْهِ الدِّقَّةِ وَالتَّفَصِيلِ؟ وَهُوَ بَعْدَ لَمْ يَقْرَأْ كِتَاباً، وَلَمْ يَدْرِسْ عِلْمًا، وَلَمْ يَتَلَقَّ هَذِهِ الْأَنْبَاءِ عَنْ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ؟

ثُمَّ مَهِمَا كَانَتْ عَبْرِيَّةُ الْإِنْسَانِ فَذَّةً، وَنَبْوَغَهُ عَظِيمًا، وَذَكَارَهُ وَافِرًا، فَمَنْ أَيْنَ لَهُ مَعْرِفَةُ أَمْوَارِ الْغَيْبِ، وَأَحْوَالِ الْمُسْتَقْبِلِ، وَهُلْ يُمْكِنُ لِبَشَرٍ مَهِمَا سَمِاً أَنْ يَخْبُرَ عَنِ الْغَيْبِ بِحِيثُ لَا يَشَدُّ عَنِ أَخْبَارِهِ

واحدة من هذه المغيبات إلا أن يكون رسولا صادقا يوحى إليه من عند الله؟ إن العقل ليحزم بأن هذا ليس في طوق البشر، ومهما بلغت العبرية من النبوغ والذكاء، ومهما كانت الشخصية قوية ومثالية، فلن تستطيع أن تخرق أستاذ الغيب أو تخبر بما ليس في مقدورها، وصدق الله: ﴿كَذَلِكَ نَفْصُلُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (طه: ٩٩).

الشبهة الرابعة: يقولون: إن عجز البشر عن الإتيان بمثل هذا القرآن لا يدل على أنه كلام الله، وما هذا إلا كمثل عجزهم عن الإتيان بمثل "الكلام النبوى"، فهل يكون كلام الرسول من عند الله؟ أو يقال إنه كلام الله؟

والجواب: أن الحديث النبوى إن عجز عامة الناس عن الإتيان بمثله فلن يعجز أحد الخاصة عن الإتيان بمثل بعضه، ولو بمقدار حديث واحد أو سطر واحد من كلامه، وكلام الرسول ﷺ وإن كان في الذروة العليا من الفصاحة والبلاغة، إلا أنه لا يخرج عن كونه كلام بشر، وقد يشتبه كلام البشر بعضهم مع بعض حتى لنجد تشابها بين كلام النبوة، وكلام بعض الخواص من الصحابة رضي الله عنهم، ونسمع الحديث فيشتبه علينا أمره: فهو مرفوع يتنهى إلى النبي ﷺ؟ أم هو موقف عند الصحابي رضي الله عنه، أي: من كلامه؟ أم مقطوع عند التابعي حمله؟ ولا نستطيع أن نميز حتى يرشدنا السندي إلى عين قائله.

ومن أولى حاسة بيانية يدرك هذا الشبه كثيرا، وقد يتبس علينا الأمر حين نسمع كلاما رائعا بلлага لأحد الفصحاء، فننظنه من كلام الرسول ﷺ، فإذا قد يكون هناك بعض الشبه بين كلام أفصح من نطق بالضاد، وبين كلام بعض النبغاء، واستمع مثلا إلى هذه الجملة الرائعة "المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وعوّدوا كل جسم ما اعتاد" فإن الإنسان إذا سمع هذه لم يستبعد أن تكون حديثا بجماهما، وصحتها، وأسلوبها الأحاذ، وربما جزم بأنها حديث شريف مع أنها ليست بحديث، إنما هي من كلام طبيب العرب المشهور "ابن كندة".

وأما القرآن فذاك له شأن آخر، لا يتبس مع غيره من الكلام، ولن تستطيع أن تجد له شبها

أو ندا، لأن الذي صنعه على عينه لن تستطيع أن تجد له شبيها أو ندا، فكيف يقاس القرآن الكريم بالحديث الشريف في هذا المقام؟

ثانياً: ومن ناحية ثانية لو كان هذا القرآن من تأليف محمد ﷺ لكن ينبغي أن يكون الأسلوب في "القرآن والسنة" واحداً ضرورة أهما صادران عن شخص واحد، استعداده واحد، ومزاجه واحد، مع أنها بحد الفرق بينهما واضحاً، والبُون شاسعاً، فأسلوب القرآن ضرب وحده تظهر عليه سمات الألوهية والربوبية التي تخل عن المشاهدة والمماثلة، وأسلوب الحديث الشريف ضرب آخر، لا يخل عن المشاهدة والمماثلة، بل هو مخلق في جو البيان بقدر الأساليب البشرية الرفيعة، ولا يستطيع مجال أن يصعد إلى سماء إعجاز القرآن، وهذا يدركه كل إنسان إذا ما قارن بين الأسلوبين بأبسط نظرة وصدق الله حيث يقول:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمن: ٢٧).

وصدق الله: **﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأَنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضِلُ ظَهِيرَاً﴾** (الإسراء: ٨٨).

* * *

الفصل الحادي عشر:

في التنبيه على أحاديث وضع في فضل سور القرآن

قال العلامة القرطبي في مقدمة تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" في باب التنبيه على الأحاديث الموضوعة في فضل سور القرآن ما يلي:

"لا التفات لما وضعه الواضعون، وانختلفوا المحتلقون من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة في فضل سور القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال، قد ارتكبها جماعة كثيرة، اختلفت أغراضهم ومقاصدهم في ارتكابها."

١ - فمنهم قوم من الزنادقة مثل المغيرة الكوفي، ومحمد الشامي المصلوب وغيرهما وضعوا أحاديث، وحدثوا بها؛ ليوقعوا بذلك الشك في قلوب الناس، منها ما رواه الشامي عن أنس ابن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "أنا خاتم النبيين لا نبئ بعدي إلا ما شاء الله"، فزاد هذا الاستثناء؛ لما كان يدعوه إليه من الإلحاد والزندقة.

٢ - ومنهم جماعة وضعوا الحديث "هوى" يدعون الناس إليه، قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب: "إن هذه الأحاديث دين، فانظروا عنمن تأخذون دينكم، فإنما كنا إذا هوينا أمراً صرّرناه حديثاً".

٣ - ومنهم جماعة وضعوا الحديث "حسبة" كما زعموا، يدعون الناس إلى فضائل الأعمال كما روی عن أبي عصمة المرزوقي قيل له: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في فضل سور القرآن سورة سورة؟

فقال: إن رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة، ومتافي ابن إسحاق، فوضعوا هذا الحديث حسبة.^(١)

^(١) أي لوجه الله وترغيباً في الدين.

قال ابن الصلاح: وهكذا الحديث الطويل الذي يروى عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في فضل القرآن سورة سورة، وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه، وإن أثر الوضع عليه لبيّن، وقد أخطأوا واحدي المفسر ومن ذكره من المفسرين في إيداعه في تفاسيرهم.

٤ - و منهم قوم من السؤال^(١) يقفون في الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله ﷺ أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد.

قال جعفر بن الطیالسی:

"صلی أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ، وَيَحِيَّى بْنُ مَعِينَ فِي مَسْجِدِ الرَّصَافَةِ، فَقَامَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا قَاصٌ (مَحْدُثٌ)"
 فقال: حدثنا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ، وَيَحِيَّى بْنُ مَعِينَ: قَالَا: أَبْنَانَا عَبْدُ الرَّزَاقَ، قَالَ: أَبْنَانَا مَعْرِمٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنْسٍ صَدِيقِهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَخْلُقُ مِنْ كُلِّ كَلْمَةٍ مِّنْهَا طَائِرٌ، مِنْ قَارَهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَرِيشَهُ مِرْجَانٌ، وَأَخْذَ فِي قَصْبَهُ نَحْوًا مِّنْ عَشَرِينَ وَرْقَةً، فَجَعَلَ أَحْمَدَ يَنْظَرُ إِلَيْيَهِ، وَيَحِيَّى يَنْظَرُ إِلَيْ أَحْمَدَ، فَقَالَ: أَنْتَ حَدَّثْتَهُ بِهَذَا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ! مَا سَمِعْتُ بِهِ إِلَّا هَذِهِ السَّاعَةِ، فَسَكَتَا حَتَّى فَرَغَ مِنْ قَصْبِهِ، فَقَالَ لَهُ يَحِيَّى: مَنْ حَدَّثَكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ؟ فَقَالَ: أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ، وَيَحِيَّى بْنُ مَعِينَ، فَقَالَ: أَنَا أَبْنَاءُ مَعِينٍ، وَهَذَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا قَطُّ فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِنَّ كَانَ وَلَا بَدَّ مِنَ الْكَذَبِ فَعْلَى غَيْرِنَا. فَقَالَ لَهُ:
 أَنْتَ يَحِيَّى بْنُ مَعِينٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: لَمْ أَزْلَ أَسْمَعْ أَنْ يَحِيَّى بْنُ مَعِينَ أَحْمَقَ، وَمَا عَلِمْتَهُ إِلَّا هَذِهِ السَّاعَةِ، فَقَالَ لَهُ يَحِيَّى:

وَكَيْفَ عَلِمْتَ أَنِّي أَحْمَق؟ قَالَ: كَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا يَحِيَّى بْنُ مَعِينَ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ غَيْرَكُمَا، كَتَبْتَ عَنْ سَبْعَةِ عَشَرَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ غَيْرَ هَذَا، قَالَ: فَوْضَعْ أَحْمَدَ كَمْهُ عَلَى وَجْهِهِ، وَقَالَ: دُعَهُ يَقُومُ، فَقَامَ كَالْمُسْتَهْزَئِ بِهِمَا".

^(١) جمع سائل الذي يسأل الناس المعونة.

قال القرطبي: " فهو لاء الطوائف كذبة على رسول الله ﷺ، ومن يجري مجراه... ثم قال: فلو اقتصر الناس على ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التي تداولها العلماء، وروها الأئمة الفقهاء، لكان لهم في ذلك غنية، وخرجوا عن تحذيره ﷺ حيث قال: "من كذب على معمداً فليتبوأ مقعده من النار".

فحذار ما وضعه أعداء الدين، وزنادقة المسلمين في باب الترغيب والترهيب وغير ذلك، وأعظمهم ضرراً أقواماً من المنسوبين إلى الرهد، وضعوا الحديث حسبة فيما زعموا، فقبل الناس موضوعاً لهم، ورکونا إليهم، فضلوا وأضلوا".^(١)

هل في القرآن ألفاظ غير عربية؟

من المقطوع به أن القرآن نزل بلسان العرب، وأنه كتاب عربي، نزل على أمة عربية بلسان عربي مبين؛ ليكون منهاجاً لحياتهم، ودستوراً لمجتمعهم، وليعتبروا به ويزكروا بما فيه: ﴿لِيَدَبُّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَاب﴾ (ص: ٢٩). وقد تضافت النصوص القرآنية الكثيرة على أن القرآن "عربي" في نظمته، وفي لفظه، وفي أسلوبه، وفي تركيبه، وأنه ليس فيه ما يخالف طريقة العرب في المفردات والجمل والأسلوب والخطاب من هذه النصوص الكريمة ما يلي:

١ - قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيًّا مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٥).

٢ - قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: ٣).

٣ - قوله جل شأنه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢).

٤ - قوله جل وعلا: ﴿هُوَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عُوْجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقَوْنَ﴾ (الزمر: ٢٨).

وقد أجمع العلماء على أن القرآن عربي ولكن اختلفوا هل فيه ألفاظ مفردة من غير كلام العرب؟ على مذهبين:

المذهب الأول: مذهب الجمهور وعلى رأسهم القاضي أبو بكر ابن الطيب، وشيخ المفسرين

^(١) انظر تفسير القرطبي: ٧٨/١

ابن حریر الطبری، والباقلاني، وغيرهم من العلماء الأعلام قالوا: إن القرآن عربي کله، وليس فيه ألفاظ أو مفردات من غير کلام العرب، وما وجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلى سائر اللغات، فإنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها، فتكلمت بها العرب والفرس، والحبشة وغيرهم.

المذهب الثاني: مذهب طائفة من العلماء قالوا: إن في القرآن بعض ألفاظ ليست عربية، وأن تلك الألفاظ - لقلتها - لا تخرج القرآن عن كونه عربياً مبيناً، فمثلاً لفظ: "المشكاة" بمعنى الكُوَّة، ولفظ: "الکفل" بمعنى الضعف، ولفظ: "قَسْوَة" بمعنى الأسد، كل هذه الألفاظ هي بلسان الحبشة وهي ألفاظ غير عربية.

وكذلك لفظ: "القسطاس" بمعنى الميزان، بلسان الروم.

ولفظ: "السجیل" بمعنى الحجارة والطين بلسان الفرس.

ولفظ: "الغساق" بمعنى البارد المتنبئ بلسان الترك.

ولفظ: "الیم" بمعنى البحر، و"الطور" بمعنى الجبل بلسان السريانية.

قال ابن عطیة: "فحقيقة العبارة أن هذه الألفاظ في الأصل "أعجمية" لكن العرب استعملتها وعربتها، فهي عربية بهذا الوجه. وقد كان للعرب مخالطة بغيرها من سائر الألسنة، فعاقت العرب بالألفاظ أعجمية، استعملتها في أشعارها ومحاورها حتى جرتْ بجرى العربي الصحيح، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن".^(۱)

أدلة الجمھور:

وقد استدل الجمھور بعض الأدلة التي تثبت أن القرآن عربي، وليس فيه ألفاظ غير عربية، وفيه أسماء أعلام لم ينفعه لسانه غير لسان العرب، مثل: "إسرائیل" و"جیرئیل" و"عمران" و"نوح" و"لوط". وقد استدل الجمھور بما يلي:

^(۱) انظر تفسير القرطبي: ٦٨/١ بتصرف.

أولاً: الآيات القرآنية السابقة التي أثبتت أن هذا القرآن عربي كله في لفظه وأسلوبه، ونظمه وتركيبه، فقد أخبر الله عزوجل عن القرآن بأنه عربي، فقال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وتكرر هذا اللفظ في آيات عديدة، ومعلوم أن لفظ القرآن عام، يشمل جميع السور والآيات، ويشمل كل الألفاظ والمفردات.

ثانياً: إن القرآن نزل بلغة العرب ليفهموه ويعقلوه، ويتدبروا معانيه، ويستحيل أن يخاطب الله تعالى قوماً لا يعلمون، كيف والآيات صريحة في إنزاله بلغة العرب للاعتبار والعمل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢) و﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: ٣)، وهذا ينفي أن يكون فيه ألفاظ غير عربية.

ثالثاً: إن الله تعالى قد رد على المشركين حين زعموا أن محمداً ﷺ تلقى هذا القرآن عن بعض أهل الكتاب "جبر الرومي"، وأقام الحجة عليهم باختلاف اللسانين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الدِّيْنِ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^(١) (التحل: ١٠). فالقرآن عربي، وذاك أعمامي، وشتان بينهما؟

رابعاً: لو كان في هذا القرآن شيء ليس من لغة العرب، أو لا يفهمه العرب، أو ألفاظ "أعمامية" غير عربية، لأعلن المشركون اعترافهم على القرآن، واحتجوا بذلك على عدم صدق الرسول، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (فصلت: ٤).

خامساً: إن ما وجد في القرآن من ألفاظ تنسب إلى سائر اللغات، فإنما هو من باب "تoward the languages and their agreements" يعني أنه هذه اللفظة تكلم بها العرب، وتتكلم بها الفرس والعجم، وتتكلم بها غيرهم، فهي مما اتفقت عليه اللغات، لا يعني أن هذه الألفاظ غير عربية، فإذا تكلم بها العرب

^(١) ومعنى الآية: لو أنزلنا القرآن بغير لغتهم، وجعلناه باللغة الأعمامية، لقالوا: هلا بینت آياته ونزلت كلماته بلغتنا العربية؛ لتتفهمه وتدبره؟ (أعربي وعجمي؟) أي رسول عربي وقرآن عجمي، كيف يكون ذلك؟ وكيف ينزل القرآن الأعمامي على الرسول العربي؟.

فهي عربية، وإذا تكلم بها غيرهم أو استعملها الأعاجم فلا يخرجها عن كونها عربية.

الترجم:

والصحيح ما ذهب إليه الطبرى وجمهور العلماء من أن القرآن كله عربي، وهو ما تشهد له النصوص الكثيرة، والحجج الدامغة القوية التي احتاج بها العلماء.

وقد انتصر العلامة القرطبي لرأي الجمهور، ورد الرأي الثاني، وقال — بعد أن ذكر المذهبين:- "إن الأول أصح، فإن العرب لا يخلو أن تكون تناهبت بها أو لا، فإن كان الأول فهي من كلامهم، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم.

وإن لم تكن العرب تناهبت بها، ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون، وحيثند لا يكون القرآن عربيا، ولا يكون الرسول مخاطبا لقومه بلسانهم".^(١)

.....

^(١) تفسير القرطبي: ٦٩/١

بحث ترجمة القرآن

معنى الترجمة:

ترجمة القرآن معناها: نقل القرآن إلى لغات أجنبية أخرى غير اللغة العربية، وطبع هذه الترجمة في نسخ؛ ليطلع عليها من لا يعرف اللغة العربية "لغة القرآن"، ويفهم مراد الله عزوجل من كتابه العزيز بواسطة هذه الترجمة.

أنواع الترجمة:

وتنقسم هذه الترجمة إلى قسمين:

الأول: الترجمة الحرفية.

الثاني: الترجمة التفسيرية.

والمراد بالقسم الأول: "الحرفية" أن يترجم القرآن بالفاظه ومفرداته وجمله وتركيبه، ترجمة طبق الأصل إلى اللغة الإنجليزية، أو الألمانية، أو الفرنسية – مثلاً – فيقال: "القرآن باللغة الإنجليزية" أو "القرآن باللغة الألمانية"، وهكذا ... فهي تشبه وضع المرادف مكان مرادفة، وبعض الناس يسمى هذه الترجمة "ترجمة لفظية".

وأما القسم الثاني: "التفسيرية" فهو أن يترجم معنى الآيات الكريمة، بحيث لا يتقييد الإنسان باللفظ، وإنما يكون ^{هُم} المعنى، فيترجم القرآن بالفاظ لا يتقييد بها بالمفردات والتركيب، وإنما يعمد إلى الأصل فيفهمه، ثم يصبه في قالب يؤديه من اللغة الأخرى، ويكون هذا المعنى موافقاً لمراد صاحب الأصل من غير أن يكلف نفسه عناء البحث والوقوف عند كل مفرد من المفردات، أو لفظه من الألفاظ، وهذا النوع يسمى "الترجمة الحرفية" أو الترجمة المعنوية.

شروط الترجمة:

ويشترط للترجمة سواء كانت حرفية، أو تفسيرية، شروط عده، نوجزها فيما يلي:

- ١- أن يعرف المترجم بكسر الجيم اللغتين معاً: لغة الأصل، ولغة الترجمة.
- ٢- أن يكون ملماً بأساليب وخصائص اللغات التي يؤدّي ترجمتها.
- ٣- أن تكون "صيغة الترجمة" صحيحة بحيث يمكن أن تحل محل الأصل.
- ٤- أن تفي الترجمة بجميع معاني الأصل ومقاصده وفاءً كاملاً.

كما يشترط للترجمة "الحرفية" زيادة على هذه الشروط شرطان آخران:

الأول: وجود مفردات كاملة في لغة الترجمة، مساوية للمفردات التي هي لغة الأصل.

الثاني: تشابه اللغتين في الضمائر المستترة، والروابط التي تربط الجمل لتأليف التركيب.

هل تجوز الترجمة الحرفية للقرآن؟

وعلى ضوء ما سبق من تقسيم الترجمة إلى حرفية وتفسيرية، ومعرفة معنى كل منها، والشروط التي ينبغي أن تتوفر في الترجمة يتضح لنا أن الترجمة الحرفية غير جائزة، وغير صحيحة. وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: أنه لا يجوز كتابة القرآن بغير أحرف اللغة العربية؛ لعدة يقع التحريف والتبديل.

ثانياً: إن اللغات - غير العربية - ليس فيها من الألفاظ والمفردات والضمائر ما يقوم مقام الألفاظ العربية.

ثالثاً: إن الاقتصار على الألفاظ قد يفسد المعنى، ويسبب الخلل في التعبير والنظم.

ولنضرب بعض الأمثلة على ذلك؛ ليتوضح الأمر، فنقول:

لو أردنا ترجمة الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْمِلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنْقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الاسراء: ٢٩)، فإذا أردنا ترجمتها ترجمة حرفية، فإن الترجمة تكون

كالآتي: لا تجعل يدك مربوطة إلى عنقك، ولا تمدها كلَّ المد إلى آخره، وهو معنى فاسد لم يقصده القرآن الكريم، بل قد يستنكر المترجم له هذا الوضع، فيقول: لماذا ينهانا الله عن ربط اليد بالعنق، أو مدّها غاية المد؟.

فالتعبير الذي جاء في القرآن إنما هو من باب التمثيل؛ لبيان عاقبة الإسراف أو الشح، وهو معنى من أروع المعاني، لا يدركه إلا من فهم أساليب العرب في التخاطب بالأسلوب البليغ. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضُ لَهُمَا جَنَاحَ الْذُلُّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (الإسراء: ٢٤)، فإن هذا اللفظ لا يمكن ترجمته ترجمة حرفية لوجود نوع خاص من التعبير البليغ يسمى بـ"الاستعارة المكنية"، وهذا لا يوجد في غير اللغة العربية، ومثله قوله تعالى: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (يونس: ٢)، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القمر: ١٤)، ومثله كذلك قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧)، فإذا ترجمناها ترجمة حرفية يفسد المعنى تماماً، ويصبح ضرباً من الهذيان في الكلام، وأمثال هذا كثير، وفساده واضح.

ترجمة القرآن بالمعنى:

أما ترجمة القرآن بالمعنى فهي جائزة بالشروط المتقدمة، وهي لا تسمى "قرآنًا"، وإنما تسمى تفسيراً للقرآن وذلك؛ لأن الله تعبدنا باللفاظ القرآن، ولم يتعدنا بغيره من الكلام.

فكلام الرسول ﷺ تجوز روايته بالمعنى بأن يقول: قال رسول الله: ما معناه، ولكن القرآن لا يجوز روايته بالمعنى، فلا يصح أن نقول: قال الله تعالى ما معناه، بل لا بد من تلاوة النص بحروفه وألفاظه؛ لأنه موحى به من عند الله، ولأنه معجز بلفظه ومعناه.

فالترجمة في الحقيقة هنا ليست ترجمة للقرآن، وإنما هي ترجمة لمعانِي القرآن، أو ترجمة لتفسير القرآن.

وقد أنزل الله كتابه إلى الخلق أجمعين؛ ليكون مصدر هداية وإرشاد، وإسعاد لهم، فلا مانع لنا

أن ننقل معاني القرآن إلى الأمم الأخرى من لا يعرفون اللغة العربية؛ ليستبرروا بهذا القرآن، ويقبسوا من هديه وإرشاده، وهذا بلا شك غرض من أغراض القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩).

فترجمة القرآن بهذا المعنى يجيزها العلماء، بل هي واجبة على المسلمين؛ ليبلغوا الناس دعوة الله، ويحملوا إليهم هداية القرآن، وبغير هذه الترجمة لا يمكن أن يدرك الناس عظمة هذه الشريعة، وروعتها هذا الدين، وجمال هذا القرآن، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

انتهى الكتاب بعونه سبحانه وتعالى

والحمد لله في البدء والختام

فهرس التبیان في علوم القرآن

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٧	كيف نزل القرآن الكريم	٣	مقدمة الطبعة الرابعة للمؤلف
٢٠	حكمة نزول القرآن منحما.....	٥	مقدمة الطبعة الثالثة للمؤلف
٢٣	المرحلة الأولى.....		الفصل الأول
٢٣	المرحلة الثانية.....		علوم القرآن
٢٤	المرحلة الثالثة.....	٧	تمهيد.....
٢٤	المرحلة الرابعة.....	٨	ما المقصود بعلوم القرآن
٢٩	كيف تلقى النبي ﷺ القرآن	٨	تعريف القرآن
٣٠	هل السنة النبوية يوحى من الله الفصل الثالث	٩	فضائل القرآن
	أسباب النزول	٩	آيات الكريمة.....
٣٣	فوائد معرفة أسباب النزول	١٠	الأحاديث الشريفة
٣٤	أمثلة على معرفة أسباب النزول	١٠	أسماء القرآن
٣٥	توضيح معنى الآية الكريمة	١١	وجه التسمية
٣٦	ما هو سبب النزول.....	١٢	من ابتدأ نزول القرآن
٣٧	كيف يعرف سبب النزول.....	١٣	رواية البخاري.....
٣٨	هل يتعدد سبب النزول	١٤	أول ما نزل وأخر ما نزل
	هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص	١٤	آية المائدة متأخرة في النزول
٤٢	السبب	١٥	تنبيه
	الفصل الرابع	١٥	وبحاب عن هذا الحديث بأجوبة
	نزول القرآن على سبعة أحرف	١٦	أول ما نزل في القتال والخمر والأطعمة ...
	والقراءات المشهورة		الفصل الثاني
٤٤	تمهيد.....		حكمة نزول القرآن مفرقا
		١٧	نزول القرآن الكريم

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٦٢	ابن كثير	٤٤	أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف
٦٢	العاصم الكوفي	٤٧	الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف ..
٦٢	أبو عمرو	٤٨	معنى نزول القرآن على سبعة أحرف
٦٣	حمزة الكوفي	٤٩	اختلاف العلماء في تفسير الأحرف
٦٣	نافع	٥١	الترجيح
٦٣	الكسائي	٥٢	هل الأحرف السبعة موجودة في المصاحف الآن
الفصل الخامس			
	النسخ في القرآن الكريم	٥٢	حاجتهم (جماعة من الفقهاء والقراء)
	وحكمته التشريعية	٥٣	مناقشة مذهب الطبرى
		٥٣	رد عليه
٦٦	كلمة لطيفة في النسخ للقاسمي		بعض الشبهات الواردة على سبعة أحرف والرد عليها
٦٧	تعريف النسخ لغة واصطلاحاً	٥٥	
٦٧	سبب الترول لآية النسخ	٥٥	الشبهة الأولى
٦٨	هل النسخ واقع في الشرائع السماوية	٥٦	الشبهة الثانية
٦٨	أدلة الجمهور	٥٧	القراءات المشهورة
٦٩	كلام الإمام القرطبي في جامع الأحكام ...	٥٧	تعريف القراءات
٧٠	أقسام النسخ في القرآن الكريم	٥٧	هل كان في عهد الصحابة قراء
٧٢	الحكمة من نسخ الحكم مع بقاء التلاوة ..	٥٧	ونعود ونقول كيف نشأت القراءات
٧٢	هل ينسخ القرآن بالسنة النبوية المطهرة ...	٥٩	عدد القراءات وأنواعها
٧٣	هل يقع النسخ في الأخبار	٦٠	أول من صنف في القراءات
	الفصل السادس	٦٠	مني اشتهرت قراءة السبعة
	جمع القرآن الكريم	٦٠	مني دونت القراءات
٧٤	جمع القرآن في عهد النبوة	٦١	طريقته
٧٤	جمع القرآن في الصدور	٦١	القراء السبعة المشهورون
٧٧	جمع القرآن في السطور	٦١	القراء السبعة
٧٧	طريقة الكتابة	٦١	ابن عامر

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	القسم الثاني		جمع القرآن في عهد أبي بكر <small>رضي الله عنه</small>
١٠٠	التفسير بالدراءة أو بالرأي	٧٩	رواية البخاري
١٠٠	معنى التفسير بالرأي	٧٩	تساؤلات حول جمع القرآن
١٠١	أنواع التفسير بالرأي	٨١	الخطبة الرشيدة في جمع القرآن
١٠٣	أمهات التفسير	٨٢	مزايا مصحف أبي بكر الصديق <small>رضي الله عنه</small>
١٠٣	العلوم التي يحتاجها المفسر	٨٣	لماذا لم يجمع القرآن في مصحف واحد
١٠٥	قصة لطيفة	٨٤	جمع القرآن في عهد عثمان <small>رضي الله عنه</small>
١٠٨	مراتب التفسير	٨٥	سبب جمع عثمان للقرآن الكريم
١٠٩	المربطة الدنيا	٨٦	الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان
١٠٩	أوجه التفسير		الفصل السابع
١٠٩	أقوال العلماء في جواز التفسير بالرأي		التفسير والمفسرون
١١٠	أدلة المانعين	٨٨	لماذا نفسر القرآن
١١٠	أدلة المحيزين للتفسير بالرأي	٨٩	الفرق بين التفسير والتأويل
١١١	الرد على أدلة المانعين	٨٩	معنى التأويل
١١٣	كلمة الإمام الغزالى	٩١	أقسام التفسير
١١٣	كلمة الراغب الأصفهانى		القسم الأول
١١٣	كلمة الإمام القرطبي	٩٢	التفسير بالرواية "المتأور"
	القسم الثالث	٩٤	أسباب ضعف الرواية بالمؤثر
١١٥	التفسير الإشاري وغرائب التفسير	٩٥	رأي الزرقاني في مناهل العرفان
١١٥	معنى التفسير الإشاري	٩٦	أشهر المفسرين من الصحابة
١١٦	آراء العلماء في التفسير الإشاري	٩٦	عبد الله بن عباس <small>رضي الله عنهما</small>
١١٦	أدلة المحيزين	٩٧	رواية البخاري
١١٧	طائفة من أقوال العلماء	٩٨	شيخ ابن عباس
١١٧	كلمة الزركشي في البرهان	٩٨	تلامذة ابن عباس
١١٨	كلمة النسفي والفتازاني	٩٩	عبد الله بن مسعود <small>رضي الله عنه</small>

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٣٤	تفسير الجواهر.....	١١٩	كلام السيوطي في الإتقان
١٣٥	تفسير السيوطي	١١٩	معنى الحديث الوارد في التفسير الإشاري ..
١٣٦	مشاهير كتب التفسير بالدرایة	١٢٠	شروط قبول التفسير الإشاري.....
١٣٦	أشهر كتب التفسير بالدرایة "بالرأي" ..	١٢١	كلمة قيمة للشيخ الزرقاني
١٣٧	التعريف بكتب التفسير بالرأي	١٢٢	كلمة حجة الإسلام الغزالي
١٣٧	تفسير الفخر الرازي	١٢٢	أمثلة على التأويل الإشاري الفاسد
١٣٧	تفسير البيضاوي	١٢٣	خلاصة البحث
١٣٧	تفسير الخازن	١٢٤	غرائب التفسير
١٣٨	تفسير النسفي	١٢٥	أمثلة على هذه الغرائب
١٣٨	تفسير النيسابوري	١٢٥	نماذج عن تفسير الشيعة
١٣٨	تفسير أبي السعود	١٢٦	من تفسيرات الشيعة الاثنا عشرية
١٣٩	تفسير أبي حيان	١٢٧	من تفسيرات السبيبة
١٣٩	تفسير الآلوسي	١٢٨	تفسيرات الباطنية
١٤٠	أشهر تفاسير آيات الأحكام	١٢٨	وهم فرق متعددة نذكر أهمها
١٤٠	أشهر كتب التفسير الإشاري	١٢٨	نماذج عن تفسير الباطنية
١٤١	أشهر تفاسير المعتزلة والشيعة	أشهر كتب التفسير
١٤٢	أشهر كتب التفسير في العصر الحديث ... الفصل الثامن المفسرون من التابعين	١٣٠	بالرواية والدرایة والإشارة
١٤٣	الطبقة الأولى	١٣٠	أشهر كتب التفسير بالتأثر
١٤٣	مجاهد بن جير	١٣١	التعريف بكتب التفسير بالتأثر
١٤٤	عطاء بن أبي رباح	١٣١	تفسير ابن حجر
١٤٥	عكرمة مولى ابن عباس	١٣١	مزايا هذا التفسير
١٤٥	طاوس بن كيسان اليماني	١٣١	تفسير السمرقندى
١٤٦	سعید بن جبیر	١٣٢	تفسير الثعلبي
١٤٧	طبلة أهل المدينة.....	١٣٢	تفسير البغوي
		١٣٣	تفسير ابن عطية
		١٣٣	تفسير ابن كثير

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٧٤	الأسلوب العجيب.....	١٤٧	محمد بن كعب القرظي.....
١٧٤	خصائص أسلوب القرآن.....	١٤٨	أبو العالية الرياحي
١٧٥	أمثولة توضيحية على خصائص أسلوب القرآن ...	١٤٨	زيد بن أسلم
١٨٠	الإيجاز الرائع.....	١٤٩	طبقة أهل العراق.....
١٨٠	قصة الجارية والأصمي.....	١٤٩	الحسن البصري
١٨٣	التشريع الإلهي الكامل	١٥٠	مسروق بن الأجدع.....
١٨٥	أمثولة من واقع الحياة	١٥١	قتادة بن دعامة
١٨٧	الإخبار عن المغيبات	١٥٢	عطاء الخراساني
١٩٢	عدم التعارض مع العلم بالحديث.....	١٥٣	مرة الهمذاني
	الفصل العاشر		تنبيه
	معجزات القرآن العلمية		الفصل التاسع
١٩٣	أولاً وحدة الكون		إعجاز القرآن
١٩٤	ثانياً نشأة الكون	١٥٥	العناية بدراسة القرآن العظيم.....
١٩٥	ثالثاً تقسيم الذرة.....	١٥٥	القرآن معجزة محمد الخالدة
١٩٦	رابعاً نقص الأوكسجين	١٥٩	معنى إعجاز القرآن.....
١٩٦	خامساً الزوجية منبئة في كل شيء.....	١٥٩	متى يتحقق الإعجاز
١٩٧	سادساً أغشية الجنين.....	١٦٠	أسلوب القرآن في التحدي
١٩٧	سابعاً التلقيح بواسطة الرياح	١٦١	أنواع التحدي
١٩٨	ثامناً الحيوان المنوي	١٦٤	مثل على إعجاز القرآن
١٩٨	تاسعاً اختلاف بصمات الإنسان	١٦٦	شروط المعجزة الإلهية
١٩٩	الوفاء بالوعيد.....	١٦٧	يم كان إعجاز القرآن
٢٠٠	العلوم والمعارف.....	١٦٨	مذهب أهل الصرفة
٢٠١	العقيدة الإسلامية.....	١٦٩	آراء العلماء في الإعجاز
٢٠٢	العقيدة اليهودية	١٧٠	وجوه إعجاز القرآن الكريم
٢٠٣	العقيدة النصرانية	١٧١	النظم البديع
٢٠٤	وفاؤه بمحاجات البشر	١٧١	أمثولة من التاريخ

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٢١	أدلة الجمهور.....	٢٠٥	تأثير القرآن في القلوب
٢٢٣	الترجميغ	٢٠٧	سلامته من التناقض
٢٢٤	بحث ترجمة القرآن	٢٠٧	دفع شبهة القول بالصرفة
٢٢٤	معنى الترجمة	٢٠٩	هل حاول أحد معارضه القرآن
٢٢٤	أنواع الترجمة	٢١٠	قال معارضا سورة العاديات
٢٢٥	شروط الترجمة	٢١٣	شبهات حول إعجاز القرآن والرد عليها ..
٢٢٥	هل تحوز الترجمة الحرافية للقرآن	الفصل الحادي عشر
٢٢٦	ترجمة القرآن بالمعنى	في التنبية على أحاديث وضعت
		في فضل سور القرآن
		٢٢٠	هل في القرآن ألفاظ غير عربية

* * *

مِكْتَبَةُ الْبَشَرِي

جَمِيعُ مَوْضِعَاتِ الْمَسْكَنِ
بِمِدْيَةِ شَرْكَةِ تَعْلِيمِ الْقُرْبَى (الْمَهْدَى) لِلْإِنْسَانِ بِاِسْتَانْدَرِ

ملونة كرتون مقوي	مجلدة	
شرح عقود رسم المفتى السراجي	الصحيح لمسلم	الجامع للترمذى
الفوز الكبير	الموطأ للإمام مالك	الموطأ للإمام محمد
تلخيص المفتاح	الهداية	مشكاة المصايب
مبادئ الفلسفة	تفسير البيضاوى	التبیان في علوم القرآن
دروس البلاغة	تفسير الجلالين	شرح نخبة الفكر
تعليم المتعلم	شرح العقائد	المسند للإمام الأعظم
هداية التحور (مع المارين)	آثار السنن	ديوان الحماسة
المرقات	الحسامي	مختصر المعانى
ایساغوجي	ديوان المتنى	الهداية السعيدية
هدایة النحو (متداول)	نور الأنوار	رياض الصالحين
عوامل النحو	شرح الجامى	القطبي
شرح مائة عامل	كتن الدقائق	المقامات الحريرية
المنهاج في القواعد والإعراب	فتحة العرب	أصول الشاشى
ستطبع قريبا بعون الله تعالى	مختصر القدوسي	شرح تهذيب
ملونة مجلدة	نور الإيضاح	علم الصيحة
الصحيح للبخاري		
Books in English	Other Languages	
Tafsir-e-Uthmani (Vol. 1, 2, 3)	Riyad Us Saliheen (Spanish) (H. Binding)	
Lisaan-ul-Quran (Vol. 1, 2, 3)	Fazail-e-Aamal (German)	
KeyLisaan-ul-Quran (Vol. 1, 2, 3)	Muntakhab Ahadis (German)	
Al-Hizb-ul-Azam (Large) (H. Binding)	To be published Shortly Insha Allah	
Al-Hizb-ul-Azam (Small) (Card Cover)	Al-Hizb-ul-Azam (French) (Coloured)	

مکتبہ البشیری

ببرداری متعلق بر بیانیت تحریث (دھنرو) کراچی، پاکستان

درس نظامی اردو مطبوعات		
سورہ میں		
نورانی قادہ	رحمانی قادہ	خواہ نبوی شرح شہل ترمذی
بغدادی قادہ	اعجاز القرآن	معین الفسلہ
تفسیر عثمانی	بیان القرآن	آسان اصول فقہ
اللّٰهُ أَكْلَمُ الْأَوْلَٰئِ	سیرت سید الکوئنی عاصم الشیعین	معین الاصول
حیات الصحابہ و علیہم السلام	خلافے راشدین	تاریخ اسلام
امت مسلمی کی ماہیں	نیک بیان	فصول اکبری
رسول اللہ ﷺ کی فصیحتیں	تبغیث دین (امام غزالی رضی اللہ عنہ)	علم الصرف (اولین و آخرین)
اکرام مسلمین / حقوق العبادی فلسفیجی	علم اخو	عربی صفوۃ المصادر
حیلے اور بہانے	علامات قیامت	جال القرآن
اسلامی سیاست	جزء الاعمال	خوہیر
آداب معیشت	علیکم سبقتی	میران و منشعب (صرف)
حسن حصین	منزل	تسہیل المبتدی
الحزب الاعظم (ہفتواز مکمل)	الحزب الاعظم (ماہوار مکمل)	تعلیم الاسلام (مکمل)
زاد السعید	اعمال قرآنی	عربی زبان کا آسان قادہ
سنون دعائیں	مناجات مقبول	نام حق
فضل صدقات	فضل اعمال	پد نامہ
فضل درود شریف	اکرام مسلم	عربی کا مطعم (اول تا چہارم)
فضل حج	فضل علم	عوازل اخو (اخو)
جوہر الحدیث	فضل امت محمدیہ	حیات المسلمين
آسان نماز	فتحب احادیث	تعلیم العقائد
نمایمدل	نمایمدل	مفتاح لسان القرآن (اول تا سوم)
معلم المذاہج	آنیمہ نماز	بہشت زیور (تین حصے)
خطبات الاحکام / جماعتات العام	بہشت زیور (مکمل)	
	روضۃ الادب	
دائی نقشہ اوقات نماز: کراچی، سنده، پنجاب، خیبر پختونخواہ		
دیگر اردو مطبوعات		
		قرآن مجید پندرہ سطری (عائضی)
		پنج پارہ
		عم پارہ (درسی)
		پنج سورہ